ندوات علمية

(01)

مركز الأمانة
للأبحاث والدراسات العلمية
"CARES"

القصص القرآني من منظور الاستخلاف

أعمال اليوم الدراسي

الذي نظمه مركز الأمانة

يوم 24 ذي الحجة 1444/ 13 يوليوز 2023.

ندوات علمية (01)

القصص القرآني

من منظور الاستخلاف

أعمال اليوم الدراسي

الذي نظمه مركز الأمانة

القنيطرة

يوم 24 ذي الحجة 1444/ 13 يوليوز 2023.

مركز الأمانة
للأبحاث والدراسات العلمية
CARES

منشورات مركز الأمانة للأبحاث والدراسات العلمية

كتاب: القصص القرآني من منظور الاستخلاف

ندوات علمية (01)

أعمال اليوم الدراسي الذي نظمه مركز الأمانة

يوم 24 ذي الحجة 1444/ 13 يوليوز 2023.

بالقنيطرة

جميع الحقوق محفوظة لمركز الأمانة

طبعة إلكترونية أولى: رجب 1447هـ/ دجنبر2025م

الإشراف العلمي: عبد السلام محمد الأحمر

المراجعة اللغوية: محمد السعيد بلحرمة

الإخراج الفني والتصفيف: بوجمعة أحراير

الموقع الإلكتروني: www.alamanaweb.ma

البريد الإلكتروني: centrealamana@gmail.com

ما يرد في منشورات المركز لا يعبر بالضرورة عن موقفه

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله الذي يتم كل عمل صالح بعونه وتوفيقه، ولا يرقى في درجات السواء والاكتمال إلا على قدر ما يختاره سبحانه ويرضاه، والصلاة والسلام على نبي الهدى والرحمة المسداة إلى سائر الأنام، وعلى آله وصحابته ومن تبعهم وسار على نهجهم إلى يوم الدين.

يسعدنا أن نقدم لقرائنا الأعزاء هذا السّفر، المشتمل على أعمال اليوم الدراسي في موضوع: "القصص القرآني من منظور الاستخلاف" بعد أن حظيت مداخلاته بما تيسر من التدقيق والتحقيق والتوسع المفيد، مع حرص المشاركين ما أمكن على إخضاع مضامين بحوثهم لروح الورقة التأطيرية، التي سعينا جهد المستطاع، لنربطها بالمشروع العلمي للمركز، والذي حددنا له أساسا ثابتا هو أمانة الاستخلاف.

ونرى في بداية هذا التقديم، فائدة منهجية كبيرة، للتذكير بأهم مرتكزات تلك الورقة، التي تمت مقاربة عناوين المداخلات على أساسها، ويلزم أن تتم قراءتها في إطارها المحدد، لعل ذلك أدعى لتحقيق الفهم على نحو أصح وأكمل.

وعلى رأس تلك المرتكزات اعتبرنا المفهوم المعتمد للاستخلاف في هذه المدارسة؛ هو أن الاستخلاف ابتلاء بالأمانة العظمى، المقتضية لحرية الإنسان، المرتبطة بمسؤولياته الثابتة عن جميع اختياراته وأفعاله؛ العقلية الفكرية، والقلبية الوجدانية، والسلوكية الأخلاقية، سواء أخذت اتجاه الإيمان بالله أو اتجاه جحود ألوهيته.

ونلاحظ بأن حكمة الله البالغة، اقتضت بأن يقدم لنا في كتابه العزيز، الابتلاء بأمانة الاستخلاف الذي هو غاية الوجود البشري، في سياق قصة مثيرة، جمعت أحداثها بين الله جل جلاله وملائكته الأطهار، وآدم وحواء وإبليس، وذلك في الملإ الأعلى، فظلت هذه القصة الأولى هي أساس السردية الاستخلافية، التي اختلفت حكاياتها فاقتربت من حقائقها أحيانا، وابتعدت عنها أحيانا أخرى، لكن ذات الحقائق هي التي أطرت جميع الأحداث، التي ستجري فوق الأرض، عندما أهبط الله إليها آدم وحواء، ليمارسا وذريتهما من بعدهما تجربة الاستخلاف، فينشئون قصصا حية على أرض الواقع؛ كلها تحكي وتصور وتصف الطبيعة

البشرية، وتتطابق تماما مع السردية الاستخلافية الأصلية، التي سيقت في القرآن الكريم، ونراها مترجمة على الأرض في أفعال الصلاح والفساد، والهداية والغواية، والحق والباطل.

ومن ثم فإن القصص الإنسانية، إما تكون وفية ومتكاملة للممارسة الواقعية للحياة، أو تكون تصورات خيالية تفترض واقعا لا وجود له، أو تكون مرويات تجمع بين الواقع والخيال. وهو ما يمكن اعتباره في حقيقة الأمر مقاربة أدبية وفنية، لتفاصيل الممارسة الاستخلافية في أبعادها المختلفة، والتي هي غاية الله الأساسية من خلق البشر على الأرض.

ومن هنا يمكن القول بأن كل قصة وقعت على الأرض، قد نتبين عند التأمل والتحليل، أنها صورة مشابهة وعاكسة على نحو معين، لروح ومضمون السردية الاستخلافية، التي تجلت فيها حقيقة حرية الإنسان وجسامة مسؤوليته، وكذلك قابليته لفعل الخير والشر، والصواب والخطإ، ويتعزز على امتدادها وتنوعها الصراع الأبدي بين إبليس وذريته من جهة، وآدم وذريته من جهة أخرى. مع تأكيد المسؤولية الأساس للنفس البشرية، عن جميع اختياراتها وأعمالها ما صلح منها وما فسد، وأما دور إبليس في الإضلال والإغواء، فيكون دوما بتواطؤ منها وتخاذلها ليس إلا.

إن كل القصص الواردة في سياق السردية الاستخلافية، سواء عن طريق الوحي أو غيره، تسند البطولة فيها للإنسان الخليفة، الذي قد يتصرف بما جبل عليه من صلاح وفساد، ومن استقامة وعوج، وجل القصص المحكية خارج إطار الوحي، إنما تحذو حذوها باعتبار أن الله تعالى قد حسم اتجاه السلوك الاستخلافي، في اختيارين عامين لا ثالث لهما، هما الصلاح والفساد وما يندرج تحتهما من أفعال الهداية والضلال، والتي تنتهي بفاعلها إما إلى سعادتي الدنيا والآخرة أو إلى شقائهما.

وتأكيدا لهيمنة السردية الاستخلافية، فإنها قابلة لتظل حاكمة على فهم معاني وأسرار القصص البشري على اختلاف أنواعه، وبناء عليه يتعين النظر إلى جميع القِصص، من زاوية كونها تجارب متعددة للممارسة الاستخلافية، وأحداثها الابتلائية، التي تتحدد على أساسها الإشكالية الرئيسية أوعقدة الحكاية، وتتوالى تطورات الأحداث والاختيارات السلوكية

لمختلف الفاعلين في أحداثها، إما في اتجاه الصلاح أو الفساد، والصواب أو الخطأ أو الجمع بينهما بنسب مختلفة.

إن كل القصص الحاكية لوقائع حصلت بفعل الإنسان؛ لا تعدو كونها صورا متعددة لممارسات إنسانية معينة، تنضح كلها بحقائق استخلافية، يمكن رصدها واستثمارها إلى أبعد الحدود. وذلك في إطار ممارسة الإنسان للابتلاء بالأمانة المطوقة لأعناق بني آدم، حيث قد ينجحون في حملها تارة وقد يخفقون تارة أخرى.

ويمكن لدراسة متأنية للقصص القرآني، أن تؤكد رجحان القراءة الاستخلافية، المنطلقة من حرية الإنسان ومسؤوليته الابتلائية، على غيرها من القراءات الأخرى، ليس فقط للقصص القرآني بل لكل الأحداث الإنسانية التاريخية، والقصص الواقعية والإبداعات الأدبية المختلفة.

وإن ما ينتظمه القصص القرآني من استفادات نافعة وحكم بليغة، تندرج كلها في إطار ترشيد الممارسة الاستخلافية في الواقع المعيش، عن طريق مدها بما يلزم من عوامل تصحيح الرؤى وتسديد السلوك. سواء كانت قصصا لأهل الإيمان وهديه المبين، أوقصصا لأهل الغي والجحود والعصيان. ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: 111]

ولا ريب أن مقصد القصة في القرآن الكريم، يرتكز على تجلية مدلول الاستخلاف، وتوضيح غوامضه، من خلال وقائع بشرية جرت على ظهر الأرض، وتضمنت أحداثا مثيرة للتأمل والتفكر، وحافزة على التعلم والاتعاظ والاعتبار، والتي من شأنها أن تمد المتفكر فيها بعمق وروية، ببيانات بليغة عما خفي والتبس على الإدراك لحقائق الاستخلاف وأبعاده المختلفة.

ومن المعلوم أن هذا الإدراك يحتاج إلى تعهده، وتجويده ومراجعته باستمرار، للاحتكام إليه واعتماده في فهم كل قضايا البشر، وإشكالات وجوده، وضمان إحراز أكبر نصيب

من النجاح، في تجاوزها وتذليل صعابها، وحسن استيعاب حقيقة الاستخلاف وجميع تبعاته.

ويصح القول بأن محاور القصة القرآنية، لا تنفك تدور كلها حول مواجهة الإنسان للابتلاء بممارسة حرية الاختيار، والاضطلاع بما يترتب عليها من مسؤوليات ثقيلة. وغاية ذلك هي تمكين المكلف من مقاربة فهم مراد الله، من خلق البشر على النحو الذي هو عليه، وفهم خلق الحياة الدنيا على الحال الذي هي عليه، ومقاربة التصور الاستخلافي الكلي، وما يتحقق به من السلوك التفصيلي السديد، على نهج شرع الله القويم، الملزم قطعا لكل من بلغه ووعى خطابه.

إنه يمكن الجزم بأن أسلوب القصة، قد يتفوق أحيانا على الخطاب العادي، في تقريب بعض الدلالات والمعاني، والتي يتضح بها ما خفي واستعصى فهمه، من الحقائق الكلية والتوجهات الفلسفية والفكرية العامة، ولهذا نجد زهاء ربع القرآن قصصا تعليمية وبيانية.

كما أن القصص والحكايات الجارية على الألسن لدى شعب أو أمة، تعكس إلى حد كبير فلسفتها في الحياة، ونظرتها لنفسها وقيمها، ولعلاقتها بما حولها وموقفها من الآخر، ومن هنا نتبين سر عظمة الأمة الإسلامية فكرا وسلوكا، لكون ما يروى من قصص وأدب رفيع، لناشئتها بل ولرجالها ونسائها، يعلي هممهم ويرسخ إيمانهم بريادتهم الاعتقادية والحضارية وأفضليتهم الأخلاقية.

فكل ما تدور حوله القصص في القرآن، يجلي مقاصده الاستخلافية المختلفة، ويعكس خصائص الإنسان وحريته ومسؤوليته، بحيث إن الفوائد والعظات والعبر كلها تعد ثمرة للممارسة الاستخلافية؛ إما في الاتجاه الصواب أو الاتجاه الخطأ.

ومما يساق لأجله القصص القرآني، أنه قد يتضمن حكما شرعيا واجب الالتزام، أو قيما خلقية عليا، أو عبرا وعظات تلبي حاجة الناس إليها، ومثال ذلك قصة تحريم الخمر الذي جاء تدريجيا على مراحل، وعبر آيات متفرقة ومتفاعلة مع وقائع حصلت بين الصحابة، وأبانت بشكل جلي مضار السكر الكبيرة، والمفضية لحكمها الحاسم.

ومثل قصة موسى مع فرعون، التي انتهت بانتصار نبي الله على طاغية متأله.. وكل القصص القرآني يمكن إدراجه في نسق واحد هو تربية الإنسان وتزكية نفسه، وتوعيته بحقيقة الحياة ومسؤولياته المحددة في تدبير أمرها، وذلك بتعليمه ما يلزمه فعله والتحلي به، وما يلزمه تركه والتورع عنه.

ولتأكيد الأبعاد الاستخلافية للقصص القرآني، يلزم دراسة نماذج منه، للوقوف على مدى صحة تأطير الرؤية الاستخلافية، الشاملة لجل أنواعه إن لم نقل كلها، قبل الانتقال إلى تعميم نتائجها على جميع القصص الإنساني، باعتبار الاستخلاف قاسما مشتركا بين جميع بني آدم.

إننا حاولنا أن يكون هذا الكتاب الجماعي، تتويجا لمجهودات تواصلت منذ تأسيس مركز الأمانة سنة 2019، حيث حرصنا أن تظل الأبحاث والدراسات والمقالات والكتب، وكل ما ينشر في موقعنا الإلكتروني مؤطرا قدر الإمكان بالرؤية الكلية للمشروع العلمي، والذي يقتضي أن تكون إنتاجاتنا خاضعة لتأطير الرؤية الفكرية العامة، التي تم اعتمادها منطلقا للإبداع وفقها والاشتغال العلمي في إطارها.

ويمكننا القول بأن الكتاب الذي بين أيدينا، وما اشتمل عليه من مداخلات قيمة دارت كلها حول علاقة القصص القرآني بالاستخلاف، قد حقق نجاحا فوق المتوقع، إذ التزمت كل الأبحاث العشرة بموضوع اليوم الدراسي، واستطاعت مقاربته من زوايا مختلفة، وبطرح عميق للمدلول الشامل للاستخلاف، وبيان لمدى قدرته على تأطير فهمنا لأبعاد القصص القرآني، **وترشيد تدبر القرآن الكريم، واستيعاب مقاصد الوحي عامة، وإدراك غاية الله الأساسية من خلق الإنسان**، وابتلائه بحمل أمانة الاستخلاف في الأرض.

والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل

عبد السلام محمد الأحمر

رئيس مركز الأمانة

القسم الأول:

المدخل الاستخلافي لدراسة القصص القرآني

العرض الافتتاحي:

وقفات مع تأطير قصة الاستخلاف للقصص القرآني والإنساني

ذ. عبد السلام محمد الأحمر

رئيس مركز الأمانة للأبحاث والدراسات العلمية

مقدمة

تعتبر قصة الاستخلاف الواردة في القرآن الكريم، الحجر الأساس لوظيفة الاستخلاف، التي أنيطت بآدم وحواء وذريتهما من بعدهما، وكان الفاعلون في هذه القصة كما هو معلوم هم: الله جل جلاله، وملائكته الأطهار، وآدم وحواء خلفاء الله في الأرض، وإبليس الغوي المبين، بحيث يمكننا أن نفترض بأن هذه القصة اعتبارا لكونها مؤسسة لمهمة استخلاف الآدميين على الأرض، ستظل القصة الأصل التي نتج عنها كل ما وقع بعدها من أحداث في هذه الدنيا، فاندرج في سلكها وانتهج نهجها، وأن المساهمين في قصة الاستخلاف الأم، سيظلون بالفعل مشاركين خالدين في كل ما ستعرفه البشرية من قصص، تتشابه في طبيعاتها وتتقارب في غاياتها، وتتحدد بإطار الممارسة الاستخلافية العامة، ولا تخرج عن دائرتها المرسومة لها.

ومن هذا المنطلق فإن كل قصة وقعت على الأرض، ومهما اختلفت شخوصها وظروفها ونتائجها، فإن آدم وحواء حاضرون فيها من خلال بنيهم المتعاقبين في الحياة الدنيا، وحاضر فيها ضرورة إبليس وذريته، فقد توعد بأن يغوي جميع بني آدم إلا عباد الله المخلصين، وحاضرة فيها أيضا الملائكة الموكول إليها تنفيذ مراد الله من خلقه، ولا يمكن أن يغيب عنها

رب العزة، الذي لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، فهو سبحانه وتعالى حاضر بعلمه وقدرته، وبتدبيره الشامل لما يجري في كونه.

أولا: استمرار الفاعلين الغيبيين إلى جانب المستخلفين الآدميين في جميع القصص الأرضي.

1)الفاعلون الغيبيون

1. الله جل جلاله

تؤكد الأدلة النقلية والعقلية، بأن الله تعالى وإن كان غائبا عن الأنظار، فإنه تعالى لا يتصور غيابه عما يقع في ملكه من أحداث وأفعال، وما تحكيه القصص البشرية وتفصله أخبارها، بل لاحول ولا قوة لبشر إلا من حول الله وقوته، ولا إرادة مستقلة عن إرادة الله أو خارجة عن إطارها، الذي تتحرك داخله إرادة المستخلفين على اختلاف مشاربهم وتنوع اتجاهاتهم ومعتقداتهم. فالله تعالى بعلمه وقدرته وحكمته البالغة مهيمن على الفعل البشري، يُتم منه ما شاء ويُنهي ما شاء كما يشاء، فييسر للطائعين كما للعصاة أعمالهم كل واحد بحسب نيته، ووفق اختياره الذي هو مسؤول عنه أمام خالقه يوم القيامة، ومحاسب عليه حسابا دقيقا. ومن الأدلة على ذلك من القرآن: ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الإنسان: 29 - 31].

ففي قصة موسى وهارون مع فرعون على سبيل المثال، تتجلى معية الله لهما: ﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: 43 - 46]، كما تأكدت معية الله لرسوله وصاحبه أبي بكر الصديق وهما في الغار، ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: 40].

والمؤكد أن معية الله ثابتة لجميع مخلوقاته، لكنها بالنسبة للآدميين تختلف بحسب كل آدمي وما يختاره لنفسه ضمن علاقته الابتلائية بالله تعالى؛ فعندما يكون مؤمنا يحظى بتأييد الله وتوفيقه، وأيضا باختبار قوة إيمانه ومستوى صدقه، وعندما يكون كافرا أو منحرفا لا يتركه الله وشأنه، ولكنه يستدرجه ويملي له فيزين له سوء عمله تارة، ويريه تارة من سوء عواقبه لعله يتوب عن غيه وضلاله.

وعموما يمكن القول بأن تدبير الله تعالى، لا ينفك عما يقع للإنسان فردا أو جماعة من أحداث صغار أو كبار، يبتليه بها فيخرج منها رابحا أو خاسرا على نحو معين، فتتحول في النهاية إلى قصص تروى وعبر تحكى ومواقف وسير تقتفى.

2. الملائكة الأطهار

فالملائكة الكرام مطبوعون على الطاعة والامتثال، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، ينفذون حكمة الله ويؤيدون أولياءه ويعذبون أعداءه، ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: 12]، ويحصون على الإنسان حسناته وسيئاته، ويدونونها في صحائف المكلف التي تعرض عليه يوم القيامة للحساب، ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: 80]. فكل القصص التي تجري لبني آدم وعلى أيديهم فوق الأرض، قد تتدخل فيها بإذن الله أنواع خاصة من الملائكة، من وراء حجاب وبطريقة أو أخرى.

3. الشيطان

والشيطان يرافق الإنسان على امتداد استخلافيته على الأرض، فهو عدو أبدي للإنسان يوسوس له، ويزين له مخالفة هدي الله ومجافاة تعاليم شرعه، لا يفتر عن ذلك أبدا، وهو يتصرف بما يتوافق مع ابتلائية الإنسان، يثبط المحسنين عن الإحسان، ويحرض المسيئين على السوء والمنكر، ويلبس الحق بالباطل في أعين الناس، تنفيذا لما التزم به أمام الله يوم استخلاف آدم عليه السلام، ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا وَاسْتَفْزِزْ

مَن اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الإسراء: 62 - 64]، فإبليس من خلال عداوته لآدم يعد ركنا أساسيا في حقيقة الاستخلاف وشرطا ثابتا لممارسته، فما يجري في إطاره من الابتلاء بفعل الصلاح وترك الفساد، لا يستحق عليه الإنسان الثواب والعقاب، حتى يجاهد وسوسات الشيطان في صدره، الداعية إلى استثقال الصالحات وإهمالها، واستحسان المفاسد والتجرؤ على مواقعتها، وهو ما تتأكد به حرية الاختيار وتثبت به مسؤولية القرار.

2) الفاعلون الآدميون

من المعلوم أن القصص البشري الذي يجري على الأرض، تبدو كل أحداثه في الظاهر من فعل بني آدم، الذين استخلفهم الله ليمارسوا تحمل الأمانة العظمى، حسب ما يختارونه لأنفسهم أفرادا وجماعات من تصورات ومعتقدات وأخلاق، والتي قد تكون صائبة أو خاطئة، وخليطا من هذا وذاك بنسب معينة.

وأما الجوانب الخفية للوقائع والأحداث القصصية، فراجعة إلى فعل الله والملائكة والشيطان والروح/النفس، وكلها تظل في طي الغيب القابل للإيمان أو النفي وللتصديق أو التكذيب، فهي لب الابتلاء بالشرائع السماوية الداعية للاعتقاد بالغيب، واتخاذه أساسا في بناء التصور الكامل للسلوك الاستخلافي على الأرض، سواء اتجه الإنسان للإيمان بالغيب كما بينه الوحي الصحيح، أو اتجه إلى التسليم بغيب متوهم ما أنزل الله به من سلطان، أو إلى جحود الغيبيات أصلا ونفيها نفيا قاطعا، كما هو حال الاتجاهات المادية.

ويمكن اعتبار الكثير من الحقائق حول الله والإنسان والدين والدنيا، مجالا عاما للقصص الديني والدنيوي، وهذه الحقائق جعلها الله جانبا هاما من آياته البينات على وجوده، وعلى كمال صفاته ووجود الملائكة والشياطين، كما أنها إشارات هادية لمعرفة خصائص النفس والدين والدنيا وطبيعة الممارسة الاستخلافية في مختلف أبعادها، وما يرتبط بها من المعاني والمعلومات التي تنضح بها أحداث القصص، التي أبطالها البارزون هم بنو آدم على الدوام، وفي هذا الاتجاه يلزمنا فهم الآية الكريمة: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي

أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: 53]، يعني ما يسر الله عز وجل لرسوله ﷺ وللخلفاء من بعده وأنصار دينه في آفاق الدنيا وبلاد المشرق والمغرب عموماً، وفي باحة العرب خصوصاً: من الفتوح التي لم يتيسر أمثالها لأحد من خلفاء الأرض قبلهم، ومن الإظهار على الجبابرة والأكاسرة، وتغليب قليلهم على كثيرهم، وتسليط ضعافهم على أقويائهم، وإجرائه على أيديهم أموراً خارجة عن المعهود خارقة للعادات؛.. والاستقراء يطلعك في التواريخ والكتب المدوّنة في مشاهد أهله وأيامهم: على عجائب لا ترى وقعة من وقائعهم إلا علما من أعلام الله وآية من آياته، يقوى معها اليقين، ويزداد بها الإيمان(1). ويدعم حمل آيات الآفاق والأنفس على الممارسة البشرية لأمانة الاستخلاف سياق ورودها الواضح، ﴿لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: 49 - 53] فالتفاسير القديمة كلها اتجهت هذا الاتجاه الاستخلافي خلافا للتفاسير الحديثة التي دار جلها حول الدلالات الخِلقية والعلمية الإعجازية فحسب للآيات المنشورة.

إن الآدميين هم الفاعلون المعنيون في القصص، ويشكلون المحور الأساس لأحداثها انسجاما مع طبيعتهم الاستخلافية في الأرض، ومن ثم فإنها تعزز ممارسة الابتلاء الدائم بالأمانة الاستخلافية في مختلف أبعادها، إيمانا وكفرا هداية وضلالا إصلاحا وإفسادا؛ ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: 111].

---

(1) - انظر الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، الزمخشري، دار الكتاب العربي - بيروت الطبعة: الثالثة - 1407 هـ (4/ 207).

ثانيا: الحقائق الأساسية لقصة الاستخلاف وتأطيرها للقصص القرآني والإنساني.

مقدمة:

لا نعدو الحقيقة إذا زعمنا بأن الابتلاء بالأمانة العظمى، لا ينفك عن ممارسة الاستخلاف في الأرض، فمنذ أن تحمّلها آدم عليه السلام غدت ملزمة له ولزوجه وذريته من بعده، وملازمة للفعل الاستخلافي الذي لا يتصور انفصاله عن مسؤولياتها ومقتضياتها على امتداد الوجود الأرضي.

وعلى هذا الأساس فإن قصة الاستخلاف الأولى، كما القصص المتفرعة عنها، والتي توالت أحداثها على الأرض، تجلي لنا الحقائق التالية:

1) ارتباط الاستخلاف بتحمل الأمانة وممارسة الإنسان لها أداء وإخلالا.

يمكننا تسجيل هذا الارتباط خصوصا في سلوك آدم وزوجه، من جهة الإخلال حين سمحا لنفسيهما بتأويل نهي الله لهما عن الأكل من الشجرة، وانجرارهما لاتباع تزيين إبليس، وعدم اعتبار تحذير الله من عداوته المعلنة، ومن جهة الأداء أيضا، حين سارعا للقيام بالتطهر من الذنب، بعد الاعتراف بالخطإ واستعظام مغبته، واعتبار نفسيهما ظالمين مستحقين للعقاب، والمبادرة بإعلان التوبة من مخالفة النهي الإلهي دون تماطل، ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: 23].

أما سلوك إبليس، فكان مثالا صارخا لممارسة الأمانة من جهة الإخلال بها فحسب، عندما رفض السجود لآدم، وأغواه وزوجه بالأكل من الشجرة المحرمة عليهما، وأمعن في خيانة الأمانة، لما سأل الله بأن يتسلط على بني آدم، فيصدهم عن صراط الله المستقيم، ويزين لهم المناكر والفواحش، فلا ينجو منهم من عذاب جهنم إلا عباد الله المخلصين.

ويشهد على حضور الأمانة في السياق القصصي، أنه ما من قصة قرآنية إلا ولها علاقة جلية أو خفية بموضوع الأمانة، دلالة على علو قدرها، وارتفاع قدر المتصف بها، أو تحذيرا

من التفريط فيها، أو مدحا للوفاء بها أو ذما لخيانتها، أو تذكيرا بعاقبة حفظها أو ضياعها، وغير ذلك من صيغ الحديث المتصل بها.

فقد يرد ذكر الأمانة بلفظها الصريح؛ مثل ما جاء في قصة موسى مع ابنتي شعيب، ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَاأَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [القصص: 26]، وقد يرد عبر ألفاظ وسياقات مختلفة كما في قصة يوسف، التي أثبتت أحداثها وابتلاءاتها عظم عفته وأمانته، في حفظ عرض الملك رغم الإغراءات والإغواءات، التي تعرض لها داخل أجواء القصر، وكذا أمانته في تدبير مال الدولة وشؤونها، ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: 54، 55].

وإذا كانت بعض القصص، قد أبرزت بوضوح مركزية الأمانة، إما تحملا لها أو تحللا منها، فلنا ان نتساءل عن باقي القصص، التي يحتاج كشف علاقتها بالأمانة نباهة فكرية وكفاءة منهجية، مثال ذلك قصة أصحاب الأخدود، الذين ثبتوا على إيمانهم إلى أن أسلموا أرواحهم لله تحت التعذيب والتنكيل، ولم يتخلوا عن دينهم رغم غلاء الثمن، ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج: 4 - 8].

فلا ريب أن استعظام المؤمنين لقدر أمانة الإيمان، جعلهم يستصغرون كل التضحيات التي يقدمونها في سبيل الحفاظ عليها، وفي المقابل نجد الملك الطاغية ممارسا لخيانة الأمانة والاستهتار بها، بعدما تبين أن إله الغلام هو الإله الحق، لما قتله أخيرا باسم الله، كما أشار عليه الغلام نفسه.

ومن المعلوم أن القصص الإنساني، لا يبعد أن يمتدح قيمة الأمانة ويعلي من قدرها، وهذا هو الغالب عليه لأن حب الأمانة فطرة بشرية كما أكد الحديث النبوي، "إن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال، ثم علموا من القرآن، ثم علموا من السنة"[1]، وقد تشذ بعد

(1) - أخرجه البخاري كتاب الرقاق، باب: كيف كان بدء الوحي.

القصص عن هذا الاتجاه العام، فتشكل دعوة مباشرة أو غير مباشرة لممارسة الخيانة بصورة أو أخرى، فلا تخرج في هذه الحالة أيضا عن ارتباطها بالأمانة لكن عن طريق الإخلال بها وتضييعها والتنكر لها.

2) ملازمة أمانة الابتلاء للممارسة الاستخلافية.

يتبين من خلال قصة الاستخلاف، تعرض جميع المشاركين فيها إلى ابتلاء شديد، وكانت بداية ذلك بالملائكة، الذين لما أخبرهم الله بأنه جاعل في الأرض خليفة، استغربوا ذلك وبادروا بالقول: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: 30].

ولما امتحنوا بالتعرف على الأسماء، التي علَّمها الله لآدم عجزوا واعتذروا، ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: 31 - 32].

أما إبليس فقد ابتلي بالسجود، حيث بلغ به الاستكبار حد الامتناع عن الامتثال لأمر الله، بدعوى أن آدم أقل مكانة منه، فتذرع بذلك عصيانا وإساءة تقدير لواجب الطاعة غير المشروطة لله تعالى، ففشل في هذا الابتلاء وجر على نفسه عذاب جهنم والطرد من الجنة ولعنة الله الأبدية.

وابتلي آدم وحواء بالأكل من الشجرة، وكذلك بعداوة إبليس وكيده لإخراجهما من الجنة، بعد استغفالهما والإيقاع بهما في مخالفة نهي الله لهما عن الاقتراب منها. ﴿وَقُلْنَا يَاآدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ [البقرة: 35، 36].

ويظهر جليا من مطالعة القصص القرآني، كما هو المفترض أيضا في القصص الإنساني، بأن تحمل الأمانة يتخذ دوما صورا مختلفة لاحتمال الابتلاء العام، الذي يمثل غاية الله من استخلاف الإنسان في الأرض أفرادا وجماعات، كما هو مؤكد في القرآن: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ

وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام: 165]، ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: 128، 129]. وهذا يفيد بأن الاستخلاف هو الأمانة العظمى الواردة في قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: 72] والأمانة بمفهومها الشامل تستغرق جميع أنواع الابتلاء الذي يعظم هو أيضا بعظمها، بحيث إن ما يثير الاهتمام في القصص القرآني وفي القصص الإنساني عامة، ويجعله أكثر تشويقا ومتعة للنفس، هو امتحان أشخاصها بمكابدة تحمل الأمانة ما بين قائم بأدائها على وجهها الكامل، وبين متعثر فاشل فيها على نحو من الأنحاء.

فنجد القرآن الكريم يلمّح أحيانا ويصرح أحيانا أخرى بهدف الابتلاء فيما يسوقه من قصص؛ منها قصة سليمان عليه السلام وملكة سبأ، فبعد تمكن معاونيه من إحضار عرشها بين يديه في لمح البصر، ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: 40]، ويبدو هنا بأن نبي الله سليمان أدرك بأن غاية الله في ابتلائه بهذا الحدث العجيب، تطغى على تمكينه من القوة والغلبة، وتوسيع دائرة ملكه لتحقيق الاستخلاف العمراني، الذي لا يخرج هو كذلك عن دائرة الابتلاء، باعتباره سنة إلهية حاكمة لعموم الفعل البشري.

ولقد وصف الله قصة ذبح إبراهيم ابنه إسماعيل عليهما السلام بأنها بلاء مبين، ﴿وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات: 104 - 107].

ويمكننا دوما تبين البعد الابتلائي، الكامن في باقي القصص القرآني كما في كل القصص الإنساني. فكل مشارك في القصة لا يخلو أن يكون ناجحا في مجابهة ما يعترضه من صعوبات وإشكالات، أو فاشلا في ذلك بدرجة صغيرة أو كبيرة.

3) ارتباط علم المستخلَف بإرادته.

تعلمنا قصة الاستخلاف قيامه على أساس العلم، الذي اختص الله به آدم من خلال تعليمه الأسماء كلها، والتي تجهلها الملائكة، لأن الله تعالى لم يعلمها إياها من قبل. ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: 31، 32]، ولا غرو أن هذا العلم مختص بالتأهيل لممارسة أمانة الاستخلاف، وأنه ابتلاء عظيم لمن أوتي حرية الاختيار وتلزمه تبعاتها ومسؤولياتها، التي يحاسب عليها بين يدي العليم الحكيم يوم عرض الأعمال عليه. فمن خصائص هذا العلم التي كشفت عنها أحداث الاستخلاف، أن إرادة العالم حاكمة على علمه وموجهة لدلالاته ومعانيه، فإن شاء رضي معنى من معانيه، وحكَّم في نفسه حقيقة واحدة من حقائقه، أو معلومة من معلوماته وأسقط غيرها، لا استنادا لمقتضيات العلم نفسه، وإنما اعتمادا على تمنيات النفس وتشهياتها وأهوائها الطاغية، وإن شاء رفضه جملة، أو تأول حقائقه وطوعها على وفق مراده وأغراضه في الحياة.

ونرى هذا الاتجاه واضحا في مواقف إبليس وآدم على حد سواء، حيث إن عصيان إبليس أمر الله بالسجود لآدم، وأكل آدم وحواء من الشجرة الممنوعة، كل ذلك وقع مع توفر العلم اللازم دون نقصان أو غلط، لكن غلبت إرادة معينة لديهما إرادة الانصياع للحجة والامتثال لمقتضى العلم، الذي أضحى خاضعا منساقا مع هوى النفس ورغبتها المستبدة.

وما ذلك إلا انسجاما مع تمام مسؤولية المستخلَف، الذي سخر الله له العلم ضمن مسخرات أخرى ليقوم بمهام الاستخلاف، والتي يوجد على رأسها ممارسة الحرية، وتحمل تبعاتها دون شائبة ضغط تذكر خارج الذات المسؤولة، تحقيقا لاستقلالها عن كل العوامل الخارجية، حتى تقرر الإذعان الطوعي لها.

ولو يخضع الإنسان لمقتضيات العلم وينزل عند أحكامه دون رغبة منه واختيار، لما كان له أي فضل في اتباع العلم، ولانعدمت إرادته وسقطت مسؤوليته، تجاه العلم الذي سيكون

له في هذه الحالة سلطان قاهر وناسف للاختيار، ويكون أعلى شأنا وأولى بالتقدير والتقديم على الإنسان الخليفة عن الله تعالى المسخر له كل شيء.

فمشمول العلم كلما احتمل تبرم النفس، ومماراتها وجحودها ولو بقدر ضئيل، فإنه يعجز عن إخضاعها لمضامينه، إلا بناء على اختيارها وتبعا لقوة إرادة الامتثال لديها أو ضعفها، ولذلك فإن موقف الإنسان في مجال العلم الاعتقادي تحكمه الإرادة الموجِّهة أكثر من الدليل والحجة، فيحتمل التصديق والتكذيب واليقين والشك.

4) احتمال الطبيعة الاستخلافية للصواب والخطإ وللصلاح والفساد.

إن ما ورد في قول الملائكة عن الخليفة الآدمي، يؤكد ثبات نزوع النفس نحو الفساد وسفك الدماء، الذي يرمز إلى قابلية الخطإ والخروج عن حد السواء، وخرق الأنظمة والقوانين، الموقع في مجافاة الحق وطمس الحقيقة، وتعدي الصواب أحيانا أو غالبا، وهو ما يرسخ الطبيعة الاستخلافية، المتأرجحة دوما بين الهداية والضلال والصلاح والفساد. ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: 30].

فالقصص القرآني كما غيره، مجال رحب للصراع المحتدم بين الحق والباطل والصلاح والفساد، ابتداء من النفس الأمارة بالسوء على مستوى الفرد وداخل المجتمع الواحد، وانتهاء بين الدول والحضارات المختلفة، وهو ما يعطي لتلك القصص معنى مستغربا، ويشد النفس إليها شدا قويا، ويجعلها واقعا مشاهدا ومؤثرا، تحتار العقول وتختلف في فهمه وتحليله، والاعتبار به على قدر حالها وبحسب توجهها في خضم الحياة وتحدياتها.

5) التدبير الإلهي لأحداث قصة الاستخلاف.

مما لاريب فيه أن قصة الاستخلاف، قد صيغت وقائعها وفق إرادات المخلوقين المشاركين فيها، والمتوائمة قطعا مع إرادة الله المدبر الحكيم، وذلك انسجاما مع المشيئة الربانية، القاضية بأن تكون فاعلية الإنسان الخليفة مقيدة بقدرة الله المستخلِف وإرادته الحاكمة وقدَره الغالب.

فقصة الاستخلاف لا يتصور انفتاحها على تطورات غير مضبوطة بحكمة الله، الموجهة دوما للمستخلفين مع حفظ حرياتهم وترسيخ مسؤولياتهم في نطاقها. وكذلك الشأن في كل القصص القرآني، والذي لا يخرج عن كونه تجسيدا واقعيا لمراد الخالق وتدبيره الحكيم، ليظل وسائل هداية وآيات بينات وتبصرة لأولي الألباب.

فقصة يوسف في القرآن ابتدأت برؤياه وهو طفل والتي حكاها لأبيه، فجاءت أحداثها موافقة لتأويلها كما أوضح القرآن في نهايتها، ﴿وَقَالَ يَاأَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ [يوسف: 100]. أي جعلها الله حقيقة واقعية معيشة، بعد أن كانت حلما مناميا لا يُعلم تأويله.

وهذا عين ما يحصل في جميع القصص البشري الواقعي على الأرض، حيث يصح الجزم بأنه ما من فعل يمارسه البشر، إلا وهو داخل تحت الهيمنة الإلهية الكاملة، والتي لا تلغي أبدا حرية الإنسان ومسؤوليته، اللتين تظلان مرتبطتين بإرادة الله وتدبيره المحكم لشؤون خلقه، مع اعتبار مراداتهم ووسعهم واختلاف أحوالهم.

ثالثا: خصائص قصة الاستخلاف الممتدة عبر القصص الدنيوي إلى يوم الدين.

شاء الله تعالى أن تكون قصة الاستخلاف مجلية للطبيعة الابتلائية للإنسان ولحياته على الأرض، والتي رسمت لها العناية الإلهية آفاقا بعيدة في اتجاه الصلاح والإصلاح، أو في اتجاه الفساد والإفساد كما ورد في تساؤل الملائكة، ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: 30]، فهذه الطبيعة الابتلائية تظل هي الأساس المتين الدائم، في داخل الجبلة الإنسانية، وهو ما أكده الله الخالق المدبر في كتابه، ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: 30]. ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس: 7 - 10]، ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: 2، 3]كما أكد سبحانه امتدادها في الممارسة الحياتية عبر آي القرآن الكريم؛ ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ

وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [الملك: 1، 2]، ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: 7].

واعتبارا لهذه الحقيقة فإن أفعال الناس وتصرفاتهم وأحوالهم وقضاياهم، مهما بدا اللاحق منها مخالفا للسابق، فإنها لا تخرج أبدا عن المسار الابتلائي، الذي انطلق مع أحداث قصة الاستخلاف وتوجهاتها الخالدة، الحاكمة على ما بعدها من سلوك البشر على الأرض وقصصهم المتداولة، وما تمثله وتحكيه وترصده من عجائب وغرائب ومصالح ومفاسد، كلها تندرج في ابتلاء الإنسان، تمحيصا لنفسه واختبارا لإرادته.

ومن السمات الكبرى التي طبعت قصة الاستخلاف الأولى، والتي تطبع ما جاء بعدها من القصص الإنساني، الذي عرفته الأرض على امتداد الزمان والمكان، نذكر أهمها فيما يلي:

1) غلبة الصراع بين الحق والباطل في المحتوى القصصي.

فقد شاء العلي الحكيم أن يجعل الكون الأرضي والإنسان المستخلف فيه، ثنائي القطب وكيانا مناسبا للابتلاء بالصراع بين الحق والباطل، والذي يتجلى في كل مظاهر الوجود وعبر مكوناته المادية والمعنوية، فالنور يبدد الظلام، والموت يقضي على الحياة وهي تكافحه، والهداية تنفي الضلال وهو ينهيها والغلبة للأقوى، والحق يصارع الباطل في النفس والمجتمع والعالم الأرضي برمته، والمعركة بينهما سجال لا تخبو إلا لتشتعل من جديد، مرة يعلو الحق على الباطل، ومرات يعلو الباطل على الحق تبعا لكسب الإنسان واجتهاده.

لكن العاقبة دوما للحق والنصر والتمكين لأهله طال الزمان أم قصر، عندما يتأهلون ليحيوا على الحق وينعموا بحكمه عليهم. والاستخلاف في حقيقته لا يعدو كونه ابتلاء الإنسان بممارسة إدارة الصراع بين الحق والباطل، بدءا بداخل النفس الأمارة بالسوء، والتي لا تزكو إلا بالمجاهدة المتجددة لصور الباطل، وانتهاء في خارجها داخل مجالات الحياة، في الأسرة والمجتمع والعالم كله، من خلال ممارسة واجب النصيحة والتواصي بالحق والصبر.

ففي المجتمع المسلم تتواصل فاعلية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، انتصارا لمظاهر الإيمان والفضيلة، ودحرا للمناكر والانحرافات والرذيلة، لتأمين صلاح المجتمع

وإصلاح أوضاعه وأحواله، وتطهيرها المتاح من شوائب الباطل بجميع أشكاله التصورية والسلوكية.

وإذا عدنا للنظر في قصة الاستخلاف، ألفيناها تعرض لنا هذا الابتلاء بالصراع بين الحق والباطل في أقصى مداه، إذ يمثل الحق فيها الله تعالى الذي هو الحق المبين، ويأتي بعده في تمثيل الحق الملائكة الذين لا يمكنهم اختيار غير الطاعة والامتثال لأمر الله، ويمثل الباطل إبليس الذي انحاز له ولم يبغ عنه حولا، وجافى الحق بعناد وإصرار عز نظيره، فرفض الامتثال لأمر الله له بالسجود، وأمعن في عداوة آدم وذريته من غير سبب وجيه، وأعلن اندفاعه المستميت لإغواء بني آدم وإدخال معظمهم إلى جهنم.

في حين نجد الابتلاء بالصراع بين الحق والباطل قد اتخذ مجاله كذلك في كيان آدم وحواء، حيث مارسا الباطل لما خالفا نهي الله لهما عن الأكل من الشجرة، وأيضا لما تجاوبا مع غواية إبليس وتزيينه، لكنهما بادرا بالأوبة إلى الحق على عجل لما ندما على فعلهما، وأقرا بظلمهما لنفسيهما، فتابا إلى الله بصدق دون تراخ أو تسويف.

وهذه القصة أكدت تأبيد الصراع بين الحق والباطل على الأرض، ليكون ابتلاء مقترنا أبدا بممارسة الاستخلاف الآدمي في الدنيا، والذي ختامه الحساب في الآخرة، ثم استحقاق نعيم الجنة أو عذاب الجحيم، ﴿يَابَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: 27]، ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: 38].

كما أن الصراع قد يحتدم بين أهل الحق أنفسهم، عند ما يستبد بينهما الخلاف في فهمه ابتلاء لهم وتمحيصا للنوايا والإرادات، ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: 213]، فقد يؤدي البغي في تصور الحق أو في تنزيله، من إحدى الطائفتين المتنازعتين، إلى تأجيج الصراع بين المؤمنين، كما حصل في الفتنة الكبرى على سبيل المثال بين أتباع كل من علي ومعاوية رضي

الله عنهما، ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: 9].

وكثيرا ما يشتد الصراع كذلك بين أهل الباطل، الذي يتجه بطبيعته إلى إشاعة أسباب الفرقة والتناحر، ومن ثم فلا يستغرب أبدا أن ينتهي بأصحابه إلى الاختلاف والعداوة والبغضاء، وكل ما يُشيع سفك الدماء والفساد في الأرض بين البشر.

2) إثارة الاستغراب وإتاحة الاندهاش والإعجاب.

تعتبر الغرابة التي تلف أحداث القصة عادة، أقوى حافز على متابعتها بشوق والسعي لروايتها بحماس، والانتشاء بحكايتها لمن لايعرفها. ومن جهة أخرى يرتبط الإقبال على رواية القصص في واقع البشر بما تضيفه من معارف وإدراكات جديدة على أساس ما تضمه من مثيرات الإعجاب والطرافة والاستغراب. ويبدو أن هذا أهم أسباب إكثار القرآن من استخدامها في التعريف بحقائقه وعظاته وبيناته.

وهذا ما نجده متحققا في قصة الاستخلاف الأولى:

1. تقديم خليفة الله بكونه ممارسا للإفساد في الأرض وسفك الدماء.

وهو وصف يبدو نشازا في علم الملائكة، الذي لم يكن معهودا فيه أن يخلق الله من يخالف أوامره ويتعدى حدوده، سيما إذا كان يتبوأ مكانة سامية من قبيل الخلافة عن الله، التي رفعت قدره فوق قدر الملائكة أنفسهم، والذين أمروا بالسجود لآدم تكريما له وتعظيما لشأنه بين الخلائق كلها.﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 30].

2. معاداة إبليس لآدم دون مسوغ معلوم.

تطالعنا مواقف إبليس تجاه آدم على امتداد أحداث القصة، بأنها كانت ابتلاء واضحا لآدم بما أبانه من عدوانية شديدة، ومفتقرة لأي مسوغات منطقية على الإطلاق، بل تتعدى

آدم لزوجه حواء ثم لذريتهما قبل أن يخلقوا، مما يؤكد بأنها موقف ظالم لا يستند إلى أساس منطقي، سوى التكبر والحسد والعدوان الذي لاحد له، ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: 39، 40]، ونجد آدم في مقابل هذا التسلط السافر، يواصل التعامل المتساهل مع إبليس، حين يزين له الأكل من الشجرة الممنوعة، ويحلف كاذبا على ما يدعيه، فيصدقه متجاهلا تحذير الله له من شر عداوته وخطورة كيده،﴿فَقُلْنَا يَاآدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ [طه: 117]. فهذا الحدث كان بمثابة الحجر الأساس للدور الابتلائي، الذي سوف يضطلع به إبليس في نظام الاستخلاف.

3) الخروج عن المألوف وتجاوز المعهود.

ويتجلى ذلك في الأحوال التالية:

1. تساؤل الملائكة بين يدي الله.

فرد فعل الملائكة في صورة سؤال استفساري، على إخبار الله تعالى لهم بجعل خليفة له في الأرض، جاء خارج السياق المعلوم لديهم، الذي يقضي بأن تسمع الملائكة ما أراده الله وحكم به في خلقه، بلا أدنى اعتراض ولو تعلق الأمر بتساؤل أو استيضاح: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: 30]. فلا غرو أن هذا الموقف المستغرب من الملائكة، قد أسهم في تعزيز الطابع الابتلائي لهذه القصة الأم، بحيث ما تزال طائفة من الناس إلى يومنا هذا، لم يستوعبوا تماما موقف الملائكة المثير غالبا للدهشة، وشيء غير قليل من الحيرة.

2. رفض إبليس امتثال أمر الله مع العلم بسوء العاقبة.

كان أمر الله لإبليس بالسجود لآدم، نموذجا لابتلاء الله عباده بامتثال الأوامر واجتناب المنهيات، ممارسة للحرية والمسؤوليات التكليفية، فاختار الامتناع بدعوى أفضليته على آدم، والتي بناها على أدلة واهية، لا يقام لها أي وزن أو اعتبار لا شرعا ولا عقلا، وقد مضى في مغالطته لنفسه، غير عابئ بما يترتب على ذلك من العذاب في جهنم، وهو مآل لم يغب

عن علمه أو يخفى على فطنته، وهذا موقف خارج عن حكم العقل والوجدان، القاضي باحتمال أي عمل لاجتناب الألم واستحقاق التنعم، فكيف إذا كان عصيان أمر الله جالبا للعذاب الأبدي في الجحيم، ومفوتا للتنعم الدائم في جنات الخلد. لقد كان إبليس مستعدا ليعرِّض نفسه لكل هذا الخسران العظيم، مقابل أن يُرضي كبرياءه وغروره العجيب، ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف:11،12]. وما أكثر القصص الواقعة على الأرض، التي تحكي نفس العماية والاستكبار والسقوط في الفتنة، وتندرج في مسار الشيطان وتقتفي أثره.

3. تمسك إبليس بموقفه الخاطئ والاستماتة فيه.

إن من النتائج المباشرة لإخفاق إبليس في الابتلاء بأمر السجود، عدم تراجعه عن عصيانه، بل أكثر من ذلك اعتداده بسلوكه الأرعن وصموده في التمسك به، ومغامرته الجريئة بتعريض نفسه للعقاب في نار جهنم، والاستكبار عن طلب التوبة والمغفرة من الله. بل وتماديه في الغي بإظهار الرغبة والاستعداد لإغواء الكثير من بني آدم، الذين لديهم قابلية التجاوب مع وساوسه وتزييناته. ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: 79 - 83].

والمثير حقا للعجب هو قدرة إبليس الفائقة، على إدراك موقع الابتلاء في نظام الاستخلاف في الأرض ومدى ملاءمته لطبيعة النفس البشرية، ونقاط قوتها وضعفها، وغلبة وقوعها في الزلل وسرعة استجابتها للأهواء والإغراءات، بحيث إن إبليس كان يُصدر في جميع مواقفه عن استشراف صحيح لمهمة الاستخلاف وشروطها ومقتضياتها، وعن وعي دقيق بدوره الأساسي في كشف حقيقتها، التي لا تنفك عن حرية الإنسان ومسؤوليته وقابلية ابتلائه بالصلاح والفساد في الأرض.

4) حضور واسع لعنصر المفاجأة

ومن ذلك تصديق آدم وحواء لإبليس، رغم إخبار الله بعداوته الشديدة لهما، وحرصه على تخطئتهما لإخراجهما من الجنة كما طُرد هو منها. ﴿فَقُلْنَا يَاآدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَاآدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى﴾ [طه: 117 - 120]، ﴿وَيَاآدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: 19 - 21].

وإذا عمقنا النظر في عنصر المفاجأة، فسنهتدي إلى كونه نتيجة طبيعية لتعرض الكائن الحر والمسؤول للابتلاء، الذي يتمخض عنه موقفه المخالف غالبا لانتظاراتنا، والمعاكس للحق والواجب والمنطق.

5) إثارة الإشكالات.

من خصائص القصص والحكايا، ومثلها الروايات المتداولة بين البشر، أن تعرض أحداثها غالبا في صورة ابتلائية وفي نسق استشكالي مستفز للتفكير، ومشوق للنفس للاطلاع والمتابعة لمعرفة النهاية والمخرج، وما هو حل الإشكالية المطروحة، والتي قد تتضح في خاتمة الحكاية، وقد تظل معلقة دون جواب حاسم، فتتعدد إزاءها التفاسير والتأويلات وتتقاطع الاستنتاجات، وهذه الخاصية هي ما يجعل النفس تُقبل على رواية القصص، وتتتبع قراءتها وسماعها بشوق واهتمام، قل نظيره بين باقي الأجناس الأدبية الأخرى.

ومعلوم أن الاستشكال أيا كان، إنما يستمد مسوغ وجوده في حياة الإنسان من طبيعتها الابتلائية، التي تستدعي ممارسة الحرية والمسؤولية إلى أبعد مدى، مستغرقة جميع مناشط الإنسان، وانشغالاته بتدبير قضايا الحياة ومعضلاتها، التي لا تكاد تختفي إلا لتعود أعوص مما كانت، فلا تنفك عن مختلف أحواله وأوضاعه، وتمتد في كل مشاعره وأنماط تفكيره؛

ومنها على سبيل المثال التفكر في آيات الله في الأنفس والآفاق، والتأمل الفلسفي وأنواع البحث العلمي، كما الإبداع الفني والأدبي وضمنه القصة والرواية.

ولا شك أن القصة الناجحة هي التي إذا كانت واقعية، كان محورها ابتلاء في صورة إشكال طبيعي محير، وإذا كانت إبداعا خياليا، برعت في توظيف أسلوب الاستشكال، لتقريب بعض المفاهيم العويصة، والقضايا الشائكة والأسرار الخفية، التي لا يتأتى التعبير عنها بالخطاب النثري المعتاد.

ولعل هذا هو السبب الكامن وراء توسع القرآن الكريم في توظيف القصص، الذي تتيسر عن طريقه أعلى درجات الإرشاد والتعليم والبيان، كما أننا نجد بعض الفلاسفة والمفكرين، يعولون على مقاربة فلسفاتهم وأفكارهم من خلال ما يبدعونه من قصص أو شعر، يطلق من خلاله العنان للخيال، ويجعل القراءة شيقة ومفيدة، ويشحنون المضامين بالمعاني المقصودة والإيحاءات الملهمة، والمشاعر الموجهة إلى قيم وأخلاق ومواقف بعينها.

ولنا أن نتساءل عن حظ قصة الاستخلاف، من توظيف نهج الابتلاء الإشكالي في تقديم مضامينها وقضاياها، وهي المؤسِّسة بطبيعة سبقها لمختلف الممارسات الاستخلافية، بحيث تدور حولها العديد من القصص، التي ستعرفها الأرض إلى قيام الساعة؟.

فيمكننا تعيين أهم الإشكاليات المطروحة في قصة الاستخلاف على الرغم من وجازتها كما يلي:

ينشأ الابتلاء الإشكالي الكبير لقصة الاستخلاف، من إشكالات تلف أحداثها المثيرة، نتوقف عندها في المحورين التاليين:

أولهما: ما تثيره أحداث القصة من تساؤلات تلقائية، سبق ان تعرضنا لها في سياقات مختلفة، مثل لماذا خالفت الملائكة طبيعتها الانقيادية لأمر الله، دون أدنى اعتراض أو تساؤل وتحولت إلى طبيعة شبه انتقادية؟

وما حقيقة مدلول تعليم الله آدم الأسماء كلها، ولماذا عجزت الملائكة عن العلم بها؟ ولماذا أقدم إبليس على عصيان أمر الله، وهو عالم بأن مآل العصاة هو نار الجحيم؟

وكيف تمكن إبليس من مخادعة آدم وحواء في الجنة، وإغوائهما بمخالفة نهي الله لهما بالأكل من الشجرة، مع أن محاولة الشيطان تزيين ذلك الفعل الآثم، تضمن تذكيرهما بأن الله نهاهما عن الاقتراب منها؟ ﴿وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: 20، 21].

وهل كان الأكل من الشجرة مجرد زلة من آدم وحواء؟ أم هو في حقيقة الأمر حصل تنفيذا لمشيئة الله المهيمنة، أم الصواب أنه هذا وذاك وإن صعب تصور الجمع بينهما، وأن من حكمة الله في ذلك أن يهبطا من الجنة ويمارسا وذريتهما من بعدهما الاستخلاف في الأرض.

ثانيهما: وهو إشكال ابتلائي أكبر وأعقد، ويتمثل في التساؤل التالي؛ هل كانت مختلف التفاعلات البارزة في قصة الاستخلاف نتيجة التصرف الحر لأصحابها؟ أم أنها كلها نتيجة اختيارهم المسؤولون عنه، في إطار مراد الله السابق ومقتضى حكمته، وذلك بحال لا يبلغه إدراك العقول مهما فكرت وقدرت؟

ونجد حضورا دائما لمدلول الإشكال الابتلائي في القصص البشري، والذي يسمى في الأدب القصصي الحديث، بالحبكة التي تعتبر أساس التشويق في القصة والرواية وأهم عنصر فيهما، حيث يتم من خلالها ترتيب الأحداث وتصاعدها، حتى تصل إلى مرحلة التأزم، كما أنها هي أكثر ما يثير فضول القاريء والمتابع، وتمثل العقدة مركز الحبكة وهي بؤرة الإشكال والأزمة، أو الصراع داخل القصة والرواية والمسرحية.

وهذا ما يؤكد أن الممارسة الاستخلافية تخضع لنسق ابتلائي عام، يمتد من القصة الأصل في الملإ الأعلى، إلى كل القصص التي عرفتها الأرض كما التي ستعرفها إلى قيام الساعة.

خاتمة:

إن أهم ما يمكن استخلاصه من دراسة القصص البشري في ضوء قصة الاستخلاف يتحدد في الأمور التالية:

1. لقد تبينا مدى ارتفاع مستوى تأطير قصة الاستخلاف لغيرها من القصص البشري الواقعي، الذي يجرى على الأرض، وتوفير إضاءات هامة لتدليل صعوبات تفسيره وتحليله، وتفكيك ألغازه ومعضلاته.
2. يحق لنا القول بأن جميع القصص البشري، تتكامل مضامينه واتجاهاته وقضاياه، لتقديم عناصر أساسية لمقاربة حقيقة الاستخلاف البشري على الأرض، راسما صورة واضحة لمرتكزاته وأهم مساراته، في اتجاهات يتنازعها الحق والباطل والصلاح والفساد والرشد والغي.
3. يمكن استنتاج بأن خضوع الممارسة البشرية الاستخلافية على الأرض، لتأطير القصة الأم من خلال القصص الدنيوية، يدل بما لا يدع مجالا للاعتراض على أن جميع الوقائع والأحداث التاريخية الجارية على امتداد الزمان والمكان، إنما تندرج هي كذلك في سلك الممارسة الاستخلافية، والتي لا تفهم فهما سليما إلا في إطار قانون الابتلاء بالأمانة، الناظم لسلوك الإنسان الفردي والجماعي ولحياته الدنيوية برمتها.

القصة القرآنية

خصائصها ووظائفها

د. عبد الرحيم خياري

أستاذ باحث في العلوم الشرعية واللغة العربية

وأستاذ زائر بمعهد الفقيه الرهوني للتعليم العتيق - القنيطرة

مقدمة:

تحتل القصة مقاما عاليا في الوحي المنزل على النبي ﷺ، حيث اشتمل القرآن الكريم على كثير من قصص الصالحين والطالحين على حد سواء.. كقصة آدم وحواء، وقصة ابني آدم، وقصة نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم من الأنبياء مع أقوامهم، وقصة ذي القرنين والخضر وعُزير وأصحاب الكهف وأصحاب الأخدود وغيرهم من الصالحين، وقصةِ إبليس وفرعون وقارون والنمرود وأصحاب الجنة والسامري وسبأٍ وقصةِ الذي أخلد إلى الأرض وغيرهم من الطالحين.. وذلك لأخذ العبرة من النوعين معاً في مجال التعبد ومجال العمران ومجال الاستخلاف، ومن هنا وقع الاهتمام بالقصة القرآنية من طرف المفسرين واللغويين منذ القديم.. كما نالت إلى حد ما اهتمام الباحثين في الدراسات القرآنية واللغوية في العصر الحاضر، وهي مع ذلك لا تزال مجالا رحبا للمدارسة والمباحثة الجادة، إذ يمكن البحث فيها أكاديميا من جوانب متعددة: جوانب كلامية عقدية، وأخرى فقهية تشريعية، وثالثة منطقية حجاجية، ورابعة فنية أدبية، وخامسة استخلافية وعمرانية إلخ.

وكل نوع من تلك الجوانب يستغرق تتبعُه واستيفاؤه دراساتٍ مستفيضةً مُسهَبةً، غيرَ أنني في هذا البحث المختصر سأتناول أربعَ نِقَاطٍ رئيسية موجزة جدا حسب ما يسمح به المجال، وهي:

1. مفهوم القصة القرآنية، والفرق بينها وبين الحديث والمثَل.
2. خصائص القصة القرآنية التي تميزها عن القصة البشرية.
3. المقاصد الوظيفية للقصة القرآنية.
4. هدي النبي ﷺ في توظيف القصة القرآنية وغيرها من القصص.

أولا: مفهوم القصة القرآنية، والفرق بينها وبين الحديث والمَثَل.

1) مفهوم القصة لغة

القصة مشتقة من مادة (ق ص ص)، وهي ترجع إلى أصل جامع هو "تَتَبُّعُ الشيء" كما قال الأزهري وابن فارس وأبو هلال العسكري وغيرهم من أئمة اللغة.

تقول العرب: قصَّ الشعرَ يقصُّه قصًّا، لأنه يتتبعه عند قصه؛ وقصَّ الأثرَ يقصُّه قصًّا وقَصَصاً. بالإدغام وبفكه. أي: تَتَبَّعَه، ومنه قولُه تعالى في قصة موسى وأمه وأخته: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ [الْقَصَص: 11] أَي: اتبعِي أَثَرَه. وَقَولُه سبحانه في قصة موسى وفتاه: ﴿فَارْتَدَّا عَلَى ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ [الْكَهْف: 64]، أَي: رَجعا مِنَ الطَّرِيق الَّذِي سَلَكاه يقصّان الْأَثرَ ليجدا الخَضِرَ.

وتقول العرب أيضا: قصَّ الخبرَ والقِصّةَ يقصُّها قصًّا وقصَصاً أيضا، فالقَصصُ بفتح القاف مصدرٌ في الأصل قاله الجوهري، ثم استعمل في اسم المصدر حتى غلب عليه، وليس هو جمعَ قِصّةٍ كما يتوهّمُ بعض الناس، إنما جمعها قِصص بكسر القاف كما هي قاعدة اللغة القياسية المعروفة.

والقصّةُ يتجلى فيها تتبعُ الأحداث في سرْدها من أشخاص في سياق زماني ومكاني لذا سميتْ قصةً، واسم حَكْيها على المصدرية القَصصُ بفتح القاف، وهو الوارد في قوله تعالى:

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ [يُوسُف: 3]، وبه سميت سورة القَصص، وجمع القِصّة قِصص بكسر القاف ولم يرد هذا الجمع في القرآن قط[1].

2) . مفهوم القصة القرآنية

وبناء على ذلك يمكن تعريف القصة القرآنية بأنها: كلامٌ رباني مسوقٌ بأسلوب سردي عن أحداث وأشخاص في زمان ومكان، من أجل العبرة بها في الابتلاء بثلاثية الفعل البشري: استخلافا وعمرانا وتعبدا لله تعالى.

3) الفرق بين القصة وبين الحديث والمثَل

والفرقُ بين (القصة والحديث) أن القصة تتميز بثلاثة عناصر: أنها خاصة بمن مضوا، وتكون طويلة، ومتتابعة الأحداث، قال تعالى: ﴿كذلك نقصُّ عليك من آنباءِ ما قدْ سبق﴾ [طه: 99]، بخلاف الحديث فيكون عن مَنْ مضوا وعن مَنْ ما زالوا على قيد الحياة، ويكون طويلا وقصيرا، متتابعا وغير متتابع، فهو إذنْ أعمُّ مطلقا والقصةُ أخص مطلقا، وبناء عليه فكل قصةٍ حديثٌ وليس كلُّ حديثٍ قصةً.

وفي هذا يقول أبو هلال العسكري: "الْفرق بَين الْقَصَص والْحَدِيث، أَن الْقَصَص مَا كَانَ طَويلا من الْأَحَادِيث متحدثا بِهِ عَن سلف وَمِنْه قَوْله تَعَالَى ﴿نَحن نقص عَلَيْك أحسن الْقَصَص﴾ [يوسف: 3]، وَقَالَ: ﴿وكُلاًّ نقصُّ عَلَيْك من أنباء الرُّسُل﴾ [هود: 120] (...)؛ والْحَدِيث يكون عَمَّن سلف وَعَمن حضر، وَيكون طَويلا وقصيرا، وَيجوز أَن يُقَال الْقَصَص هُوَ الْخَبَر عَن الْأُمُور الَّتِي يَتْلُو بَعْضهَا بَعْضًا، والْحَدِيث يكون عَن ذَلِك وَعَن غَيره"[2].

ولم أقف على من بيَّنَ العلاقةَ بيْنَ القصة والمثَل، وبالتأمل المبني على الدليل أقول: إن بينهما عموما وخصوصا مطلقاً، وبيانه: أنه يصح أن يُضرب المثلُ بالقصة كما في قصة أهل مكة لما كفروا ودعا عليهم النبي ﷺ بالسنين: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً

---

(1) التهذيب مادة (ق ص ص) (8/210 - 211)؛ ومعجم ديوان الأدب لأبي إبراهيم الفارابي خال الجوهري (3/41)؛ والصحاح مادة (ق ص ص) (3/1051 - 1052)؛ والمقاييس (5/11)؛ انظر: تاج العروس (18/98 و100).

(2) - الفروق اللغوية ص (42).

مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: 112]، فهو ضربُ مثَلٍ بقصة حقيقية[1].

وأيضا قصة صاحب الجنتين في قوله تعالى: ﴿واضربْ لهم مَثَلا رجُلين جعلنا لأحدهما جنتيْنِ﴾ [الكهف: 32] فهي قصة حقيقية ضُربَ بها المثل في رأي كثير من المفسرين[2]، فهذا يدل على أن كل قصة يصح ضربُ المثَل بها؛ ولكنْ ليس كلُّ ما ضُرِبَ به المثَلُ يصح أن يكون قصةً في الواقع كما في قوله تعالى على سبيل المثال: ﴿ضربَ الله مثلا عبدا مملوكا لا يَقْدِر على شيء﴾ [النحل: 75] فهو لا يشير إلى قصة بعينها وإنما إلى حقيقة واقعية كان يعرفها الناس وقتئذ، وكثير من أمْثَال القرآن ليستْ من القَصَصِ بدليل التتبع والاستقراء، وبهذا نستنتج أنَّ كل قصة يصح أن تكون مثَلا وليس كلُّ مثَلٍ يصح أن يكون قصةً، فالقصة أعم مطلقا والمثل أخص مطلقا، عكسُ ما سبق في علاقة القصة بالحديث.

ثانيا: خصائص القصة القرآنية

للقصة القرآنية خصائص تميزها عن القصة البشرية التي يُعبِّر عنها البشر، نجملها في ثلاث خصائص كبرى:

1) أنها وحيٌ من الله تعالى تكلم به المولى جل جلاله لأنها بعض القرآن وهو كلامه. حتى نقل بدر الدين الزركشي (ت794هـ) عن أبي المعالي عزيزيِّ بنِ عبد الملك (ت 494هـ): أنَّ قوله تعالى: ﴿أحْسَنَ القَّصَصِ﴾ [يوسف: 3] اسمٌ من أسماء القرآن الكريم[3].

فالقصةُ لما تكلَّم بها الله عز وجل تجردتْ من تاريخانيتها الزمكانية والحدثانية من حيث صيرورتُها إلى وجودٍ كلاميٍّ وحْيِيٍّ، وإن كانت تحكمها النسبيةُ من حيث هي وجودُ عيني أو خارجي زمكاني، (فلا بد من التفريق هنا بين وجود الأعيان ووجود اللسان أي الكلام القرآني للقصة) كما هو عند الفلاسفة الإسلاميين وعلى رأسهم الغزالي[4]. فالأول نسبي ماض مضى

(1)) انظر: تفسير الطبري (309/17).

(2)) انظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية (515/3).

(3) - انظر: البرهان في علوم القرآن للزركشي (276/1)، ومثله في: الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (181/1).

(4) - انظر: المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، لحجة الإسلام أبي حامد الغزالي ص (25).

وسبق، ولذلك قال فيه تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ [طه: 99]، وأما الثاني المتعلق بالكلام المعبَّرِ به عنه الذي هو كلام الله جل وعلا فقد جَعَلَ القصة مطلقة ممتدة لم تمض ولم تنقطع أبدا، بل هي باقيةٌ في وجودها القرآني الخاصِّ، وكذلك باقيةٌ في تأثيرها، وهو ما جعلها تتميز بالخصائص التالية والوظائف المذكورة بعدها عن القصة ذات المصدر البشري.

2) أنها حقٌّ تتسمُ بالصّدق التّامِّ، والموثوقيةِ المطلقة المطابقة للواقع، كما تدل عليه آياتٌ عدة منها: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ﴾ [الكهف: 13]، ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ﴾ [المائدة: 27]، ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [يوسف: 111]، لأنها من كلام الله الموصوفِ بقوله: ﴿وتمتْ كلماتُ ربِّكَ صدْقاً وعدْلا﴾ [الأنعام: 115].

3) أنها تتسم بجمالية الأسلوب والعرض بما يشمل كل الخصائص الفنية والبلاغيةِ لبناء القصة في صورة منقطعة النظير (ابتداءً بالتمهيد للقصة الذي يثير تشويق القارئ، إلى التركيز على أهم الأحداث الأساسية الملهمة للعبرة، والتخلي عن الأحداث الثانوية، مرورا بحسن السرد وانسيابية الحكْي بحبكة بديعة معجزة، إلى أن تصل لذروة العقدة المشكلة، ثم تختتم بحل لها مما يكشف النقابَ أخيرا عن الغرض الكلي منها ترشيدا للابتلاء بثلاثية الفعل البشري: استخلافا وعمرانا وتعبدا لله تعالى)؛ إضافة إلى تكرار القصة الواحدة في القرآن. ما عدا سورة يوسف التي جاءت في مساق واحد بأساليب مختلفة متفاوتة حسب ما يقتضيه المقام، وذلك أبلغ في البلاغة والقدرة على التصرف في الكلام، وإفحام العرب بله العجم أن يأتوا بمثل القرآن أو بعشر سور منه مفتريات، أو بسورة من مثله، أو حديث منه على ذلك النمط العالي المعجز الفريد المتفرّد في البلاغة والفصاحة في تقديم القصة.

ويشهد لهذا أقوى شهادةٍ واقعُ القصة القرآنية في القرآن لمن تأملَ حُسنها بحس أدبي فني راقٍ، وتملَّى جمالها بذوق لغوي عالٍ في الشكل والمضمون سواءً، ومما يشير إلى تميز القصة القرآنية بالصدقِ وجمالية الأسلوب على القصص البشريِّ الذي يعتريه الكذب بالزيادة والنقصِ وركاكة الأسلوب . قولُه تعالى تمهيدا لقصة يوسف: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ

الْقَصَصِ﴾ [يوسف: 3]، هكذا باسم التفضيل (أحسن القصص) والأصل في كلام العرب أن اسم التفضيل مثلَ هذا يحتاج إلى تمييز منصوبٍ يُفسِّر وجه الأحسنية ويحددها، لكنه حذف هنا والله أعلم، لقصد العموم الشامل لأوجه عدة نالت القصةُ القرآنية فيها الأحسنيةَ على غيرها: كالصدق وجمالية الأسلوب، وما تفيده من مقاصد سامية تتمثل في وظائفها المتعددة والمتفردة.

ثالثا: المقاصد الوظيفية للقصة القرآنية

للقصة في القرآن الكريم مقاصد سامية كلية مشتركة بين جميع قصصه، تُدرَك بإنْعَامِ التدبر وإمْعَان التأمل مع إتقان لسان العرب؛ وسموُّ هذه المقاصد إنما هو بما للقصة القرآنية من وظائف تربوية فريدة تصب في هداية الإنسان ومنفعته من خلال تجارب بشرية سابقة إيجابية وسلبية، وكل قصة لها أيضا مقاصد جزئية خاصة بها إلى جانب تلك المقاصد الكلية المشتركة، ولأجل سموِّ مقاصد القصة القرآنية ودَّ النبي ﷺ وتمنَّى أنْ لو صبر موسى مع الخضر فطالت قصته لتكثر فوائدها ومقاصدُها، فقال بعدما ذكرها مفصلةً إلى أن فارق الخضر موسى لعدم صبره على السؤال: (يَرحَمُ اللهُ مُوسَى لوَدِدْتُ أَنَّه كَانَ صَبَرَ حتى يَقُصَّ اللَّهُ عَلَيْنَا مِنْ أَخَبَارِهِمَا)[1].

ويجب التنبيه إلى أن تلك المقاصد في جزئياتها وكلياتها ترجع جميعا إلى المقصد العام الشامل؛ وهو الاعتبار الإيجابي والاستفادة من تجارب بشرية سابقة في قانون (الابتلاء بثلاثية الفعل البشري)، وهي: الاستخلاف السلطوي، والعمران المادي، وتأطيرهما بالتعبد لله تعالى[2]؛ ففي القصص القرآني يظهر الناجحون والخاسرون في هذا الابتلاء بثلاثية الفعل

---

(1) صحيح البخاري، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: حديث الخضر مع موسى عليهما السلام رقم: (3401). وصحيح مسلم، كتاب: الفضائل، باب: فضائل الخضر عليه السلام، رقم: (2380).

(2) - وقد أشار إليها العلامة اللغوي الحكيم الراغب الأصفهاني (ت 502 هـ) في كتابه (الذريعة إلى مكارم الشريعة) ص (82 - 83): "ما لأجله أوجد الإنسان. (...)الفعل المختص بالإنسان ثلاثة أشياء: 1 -عمارة الأرض المذكورة في قوله تعالى: (وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا)، وذلك تحصيل ما به تزجية المعاش لنفسه ولغيره.2 - وعبادته المذكورة في قوله تعالى: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) وذلك هو الامتثال للباري - عز وجل - في أوامره ونواهيه، 3 - وخلافته المذكورة في قوله تعالى:

البشري، مقروناً كل فريق بجزائه المناسب لطبيعة فعله ثوابا أو عقابا، مما يشكل مثالا للاقتداء والاحتذاء، أو نموذجا للتحذير والتنبيه.

ومن مقاصد القصة القرآنية ما يلي:

1) تثبيت الصالحين والدعاة المصلحين على طريق الدعوة مهما وقع في سبيلها من الأذى، هذه الدعوة التي أساسها بيان قانون الابتلاء بثلاثية الفعل البشري: استخلافا وعمرانا وتعبدا لله، قال تعالى: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [هود: 120]. وتثبيت الفؤاد للداعي إلى الله تعالى والربْطُ على قلبه هو أساس قدرته على بيان ذلك القانون للناس وترشيد أفعالهم في التعاطي معه بُغيةَ نجاحهم فيه وعدمِ خسرانهم.

2) تقوية الفكر في مآلات أفعال النفس والمجتمع تاريخيا وآنيا، مما يوفر إنذارا مبكرا للفشل المتوقع قبل وقوعه، والاحتياط باتخاذ أسباب تفاديه قبل نزوله، قال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: 175 و 176]، فهذا التفكر يُسهم في إعداد الناس لتحمُّلِ أعباء الابتلاء بثلاثية الفعل البشري: استخلافا وعمرانا وتعبدا لله تعالى، لإحراز النجاح فيه باتباع التوجيه الرباني، وتفادي الإخفاق والخسرانِ بمخالفة الهوى والنَّزْغِ الشيطاني.

3) الشهادة بصدق نبوة سيدنا محمد ﷺ بطريق منطقي حاسِمٍ، ولذلك كثيرا ما يعقبُ الله تعالى القَصصَ ويُذَيِّلُها بما يفيد أنه ﷺ لم يكن حاضرا أحداثَ ذلك القصص وأنّ هذا القصص بالنسبة إليه من الغيب، ومن ذلك قولُه تعالى بعد قصة مريم: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: 44]، وقولُه سبحانه بعد قصة نوح وقومه: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ

(وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ) وغيرها من الآيات، وذلك هو الاقتداء بالباري سبحانه على قدر طاقة البشر في السياسة باستعمال مكارم الشريعة" اهـ.

نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: 49]، وتعقيبُه جل وعلا قصةَ يوسف بقوله: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وما كنتَ لديهم إذ أجمعوا أمرَهم وهم يمكرون﴾ [يوسف: 102]، وتذييلُه سبحانه وتعالى قصةَ موسى وفرعونَ بقوله: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.[القصص: 44-45].

فكيف يقصُّها إذنْ من عندية نفسه وهو أميٌّ، ولم يعش في أزمنة أصحاب ذلك القصص، ولم يحضر أحداثَهم؟ إذن فلم يبق إلا طريقُ الوحي الإلهي، وهو استدلالٌ منطقي يستخدمه القرآن هنا وهو المسمى بالسبر والتقسيم المنحصر عند الأصوليين، وبالقياس الاستثنائي المنفصل عن الفلاسفة والمنطقيين؛ ونظمُه الصِّناعي هو: إما أن يكون القرآن من عند محمد، وإما أن يكون وحيا من الله، ولا يصح أن يكون من عند محمد لأنه تحدثَ عن الغيب كما في قصص الغابرين وغيره، والإنسان لا يدري الغيب، إذن فالقرآن وحي من الله ومحمد رسول الله ﷺ. وفي هذا التصديق بالرسول ﷺ من خلال القصص فرصةٌ ثمينةٌ لاتباعه، ومن ثم النجاحُ في الابتلاء بثلاثية الفعل البشري: تعبدا واستخلافا وعُمرانا.

4) الاعتبار بالسابقين وقياسُ حال النفس والمجتمع على حالهم بالتشابهِ في النتائج إن تشابهت المقدمات، وتباينِها إن تباينتْ، كقوله تعالى عقب قصة بني النضير: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر: 2]، وقولِه في نهاية سورة يوسف: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: 111]، فهو أمرٌ بالعبور الذهني التأمُّلي من الغير الماضي إلى الأنا الحاضرة على سبيل المقايسة، ومن هنا استدل الأصوليون بالآية الأولى على حُجيّة القياس الفقهي[1]، واستدل بها أيضا ابن رشد الفيلسوف على حُجِّيَّة القياس المنطقي[2].

---

(1) انظر: تقويم الأدلة في أصول الفقه للدبوسي ص (263)؛ والمعتمد لأبي الحسين البصري (224/2)؛ والمستصفى للغزالي ص (293)؛ وميزان الأصول للسمرقندي (561/1).

(2) انظر: فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال ص (36).

ولأجل ذلك سمى الله تعالى العقوباتِ التي أنزلها بالأقوام المكذبة الفاسقة ﴿بالمثُلاتِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ﴾ [الرعد: 6]. لأنها مثالٌ دالٌ على أنَّ مَن فعَلَ مثْلَ الفعلِ الذي استوجبها لحقَه مثلُها، كما أنها زاجرةٌ للعقلاء المعتبِرِين عن مثل الفعل الذي استوجبها[1].

ففي هذا إذنْ دعوةٌ للاعتبار التأملي بأنواع من الممارسات السابقة لثلاثية الفعل البشري الابتلائي: استخلافا وعمرانا وتعبّدا لله تعالى، وذلك باتخاذ الصالح منها قدوةً وبشارةً بالمثوبات، والطالحِ منها تحذيرا ونِذارةً بالعقوبات والمثُلَات.

5) الاتعاظُ وكفُّ النفس عن الرعونات والمعاصي التي عوقبت بسببها الأمم السابقة، والتزامُ حدود الشريعة بعدم اعتدائها، قال تعالى عقب قصة بني إسرائيل: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: 65 ـ 66]، وفي هذا الاتعاظِ رُقيٌّ بالنفسِ إلى مقامِ التحمُّل الحقِّ لأمانة الحدودِ بعدم انتهاكها في سياق محاولة النجاح في الابتلاءِ بثلاثية الفعل البشري: استخلافا وعُمرانا وتعبدا لله تعالى.

6) تطويرُ الحسِّ الفني والذوق الأدبي الرفيع، وتعزيز الملكة القصصية في تصوير الأحداث وإعادة إنتاجها إنتاجا متميزا بالصدق والموثوقية، وبجمالية العرض الساحرة وفنية الأسلوب الآسرة، لتمرير ما يرقى بالفكر والوجدان والسلوك؛ وتطويرُ ذلك الحس الفني ليمتد إلى ضروب من الفن الهادف كالمسرح والمسلسلات والأفلام بشروطها الشرعية ومن جهاتها المرعية، بغيةَ تسخير هذه الإمكانيات الفنية لخدمة المعاني الاستخلافية والعمرانية والتعبدية بما يحقق المستوى العالي من النجاح في الابتلاء بها وتجنب الإخفاق والفشل

(1) ـ قال ابن فارس: "وقولهم: مثَّلَ به، إذا نكَّل، لأن المعنى فيه أنه إذا نكل به جعل ذلك مثالا لكل من صنع ذلك الصنيع أو أراد صنعه (...)، والمثُلاتُ من هذا أيضا، قال الله تعالى: {وقد خلت من قبلهم المثلات} [الرعد: 6]، أي العقوبات التي تزجر عن مثل ما وقعت لأجله، وواحدها مثلة كسمرة وصدقة. ويحتمل أنها التي تنزل بالإنسان فتجعل مثالا ينزجر به ويرتدع غيره" مقاييس اللغة مادة (م ث ل) (296/5 - 297).

فيها، بدلا من اتخاذها وسائل إلهائية تهدم القيم وتحارب الايمان كما هو يشهد به الواقع الفني المعاصر مع الأسف.

7) اتخاذُها مصدرا للتشريع واستنباط الأحكام، قال تعالى عقب قصة بني النضير ﴿فَاعْتَبِرُوا يَاأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر: 2]، وهو أن يعبُرَ الفقيهُ المجتهدُ منها إلينا بالاستنباط للأحكام الشرعية بناء على أنَّ شرْعَ مَن قبلنا شرعٌ لنا ما لم يُنسخ، وقال سبحانه وتعالى عقِبَ سرْدِ قصة إبراهيم وذكْرِ ثلة من الأنبياء بعده عليهم الصلاة والسلام: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: 90]، وبهذه الآية استدل ابن عباس رضي الله عنهما على إثبات مشروعية سجدة التلاوة في سورة (ص) من قصة داود عند قوله تعالى: ﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [ص: 24][1]،

وبهذه الآية أيضا وأضرابها استدل جمهورُ الأصوليين ومنهم المالكيةُ على حُجِّيَّةِ شرْع من قلبنا وأنه شرعٌ لنا ما لم ينسخْهُ ناسخ[2]؛ وبناء على كل ذلك وغيرِه جاء الإمامُ عز الدين ابن عبد السلام الفقيهُ الشافعي (ت660هـ) بكتابه الفريد في بابه المسمى (الإمام في بيان أدلة الأحكام) وبيَّن بإسهابٍ أن القرآن كلَّه آياتُ أحكامٍ، بما فيها آياتُ القصص والعقيدة والأمثال، وأيده على ذلك الأئمة النُّظَّار مثلُ: القرافيِّ وابنِ العربي والشاطبي والزركشي والشوكاني وغيرِهم[3]؛ فكل فِعْل في القصة القرآنية جاء في سياق المدح فهو مشروع بدرجة من درجات المشروعية الثلاثة: إما واجب أو مندوب أو مباح وذلك حسب درجة

---

(1) عن مُجَاهِدٍ أَخْبَرَهُ، أَنَّهُ سَأَلَ ابْنَ عَبَّاسٍ: أَفِي ص سَجْدَةٌ؟ فَقَالَ: «نَعَمْ»، ثُمَّ تَلاَ: {وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ} [الأنعام: 84] إِلَى قَوْلِهِ {فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ} [الأنعام: 90]، ثُمَّ قَالَ: «هُوَ مِنْهُمْ»، زَادَ يَزِيدُ بْنُ هَارُونَ، وَمُحَمَّدُ بْنُ عُبَيْدٍ، وَسَهْلُ بْنُ يُوسُفَ، عَنِ العَوَّامِ، عَنْ مُجَاهِدٍ، قُلْتُ لِابْنِ عَبَّاسٍ، فَقَالَ: «نَبِيُّكُمْ ﷺمِمَّنْ أُمِرَ أَنْ يَقْتَدِيَ بِهِمْ». صحيح البخاري، ك: تفسير القرآن، ب: أوليك الذين هدى الله فبهداهم اقتده، ر: (4632).

(2) انظر: الفصول في الأصول للجصاص الحنفي (22/3)؛ والعدة في أصول الفقه للقاضي أبي يعلى (757/3)؛ والإشارة في أصول الفقه للباجي ص (42)؛ وإيضاح المحصول من برهان الأصول للإمام المازري ص (372).

(3) انظر: شرح تنقيح الفصول ص (437). وانظر له كلاما أوسع من هذا اقتبس فيه كلاما لشيخه لابن عبد السلام في نفائس الأصول في شرح المحصول (9331/9 - 9332)؛ وانظر: شرح مختصر الروضة للطوفي (577/3 - 578)؛ والبحر المحيط في أصول الفقه للزركشي (490/4). وإجابة السائل شرح بغية الآمل للصنعاني ص (384)؛ وإرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول (716/2 - 717).

المصلحة المترتبة عليه؛ وكل فعل جاء في سياق الذم فهو ممنوع بدرجة من درجات الممنوعية الثلاثة: إما محرم أو مكروه أو خلاف الأولى وذلك حسب المفسدة التي يفضي إليها[1].

8) اتخاذُها مصدرا للفقه السُّنَني، وهو بيان سنة الله تعالى الكونية القدرية في الواقع الاستخلافي والعمراني حسب الفعل التعبدي البشري استقامة وانحرافا، وذلك من خلال القصص، وهي سنن ماضية لا تتبدل ولا تتحول، قال تعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ [الأحزاب: 38]، وقال جل وعلا: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: 62] ومن تلك السنن:

1. سُنّة حتمية تغيير ما بالواقع الاستخلافي والعمراني انتصارا أو انكسارا بسبب تغيير ما بالنفس طاعة أو معصية: قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: 11]، وقال سبحانه: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: 53]، وقال تعالى في مثال قصة سبأ: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾ [سبأ: 15 . 17]، وقال في قصة أهل مكة لما كفروا ودعا عليهم النبيﷺ بالسنين والقحط[2]: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: 112].

2. سُنّة الاستبدال أي استبدال من يستطيعون القيام بهذه الفريضة حماية لمكتسبات الأمة في الاستخلاف والعمران والتعبّد لله من غزو الأعداء، بالمتخلفين عن الجهاد والإنفاق عليه، قال تعالى في قصة بني إسرائيل: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى

---

(1) انظر: الإمام في بيان أدلة الأحكام ص (87 - 125).

(2) انظر: تفسير الطبري (309/17).

الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [البقرة: 59]، هؤلاء الذين حكى عنهم القرآن قولَهم: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: 24. 25].

وقال تعالى لهذه الأمة المحمدية زيادةً على استلهامها سنةَ الاستبدال من قصص السابقين: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ [محمد: 35 . 38]، وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التوبة: 38 . 39]، فلا يسع من تدبر تلك القصص وهذه الآيات الموجهة للأمة إلا أن يقول صادقا: اللهم استعمِلْنا ولا تستبدلْنا!

3. سُنّة التدمير الاستخلافي والعمراني بسبب الانهيار الإيماني والسلوكي، قال جل وعلا: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾ [الإسراء: 16]. فالترفُ دالٌّ على عمرانهم، وقراءة ﴿أمَّرْنا﴾ بتشديد الميم من الإمارة والسلطة دالةٌ على استخلافهم[1]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا﴾ [الفرقان/35 و36].

---

(1) انظر: المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات لابن جني (17/2)، والسبعة في القراءات لابن مجاهد ص (379)، والحجة في القراءات السبع لابن خالويه ص (214)، ومفاتيح الأغاني في القراءات والمعاني لأبي العلاء الحنفي ص (246).

4. سنة التكوين قبل التمكين أي: الابتلاء بالفعل التعبدي قبل الابتلاء بالفعلين: الاستخلافي والعمراني، يظهر ذلك جليا في قصة يوسف عليه الصلاة والسلام، بل في قصص جميع الأنبياء تظهر السُّنة الربانيةُ نفسُها.

5. سنة الإهلاك بسبب الكفر والفسق العام مع انعدام المصلحين، قال تعالى: ﴿وما كان ربُّك ليهلك القُرَى بظلمٍ وأهلها مصلحون﴾ [هود: 117].

6. أن الاستخلاف داخل في دائرة ثلاثية الفعل البشري الذي هو محل للابتلاء الرباني، وهي: الاستخلاف والعمران والتعبد لله، قال تعالى حكاية عن بني إسرائيل وتوجيه موسى عليه السلام لهم: ﴿قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: 129].

7. في القصص القرآني بيانٌ لشروط الاستخلافِ الرشيدِ، والتحكُّمِ في العمرانِ العتيدِ، والانتصار فيهما على الأعداء بإحراز زمام القيادة، وهي شروط على تفصيلها ترجع إلى التعبد لله تعالى الجامعِ بين فرعِ الصلاح وأصلِ التوحيد، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: 105]، وقال سبحانه: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [النور: 55]، وقال تعالى في مثال لقصة طالوت وداود مع جالوت: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ

عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: 249 . 251]فالنصر على الأعداء من قِبل المؤمنين في الاستخلاف والعمران يتحقق ولو كانوا قلة طالما حققوا شرط التعبد لله تعالى. وفي القصص القرآني أيضا بيانٌ لشروط الاستخلاف الجزئي في الوظائف وهي: الأمانة والعلم والقدرة، ففي قصة يوسف واستحقاقه للاستخلاف على بيت المال قال تعالى: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: 55]،

وفي قصة ابنة الرجل الصالح متحدثة عن استحقاق موسى للاستخلاف في الإجارة قال تعالى: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [القصص: 26]، وفي قصة طالوت واستحقاقه للاستخلاف على قيادة الجند قال سبحانه: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 247]، فكلها قصص توضح شروط الاستخلاف الجزئي: علماً وأمانةً وقوةً.

8. وفي القصص القرآني بيانٌ لموانع الاستخلاف الرشيد والعمران العتيد، وتنصيصٌ على هوادمِهما الراجعة أساسا إلى الإخلال بشرط التعبد لله تعالى؛ ومن تلك الهوادم المدمرة للاستخلاف والعمران: الظلمُ والتَّرفُ. قال تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ﴾ [الأنبياء: 15.11]، ومنها: البَطَرُ والأشَرُ أي: الطغيان بالنعمة، قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: 58]، ومنها الفسْقُ، قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾ [الإسراء: 16] فالتدمير بسبب فسقهم مُنْصَبٌّ على عُمرانهم المترف،

واستخلافهم التأميري السلطوي الجائر، بناء على قراءة (أمَّرْنا) بتشديد الميم من الإمارة[1]، كما دُمِّرَ قوم لوط بفسق الشذوذ الجنسي وتكذيبِ لوط، وقومُ صالح بعقْر الناقة وتكذيبِ صالح، وقوم شعيبٍ بالفسق الاقتصادي مع الشرك، وغيرُهم من الأمم المدمَّرة في التاريخ بسبب الفسق، قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: 40].

هذا وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم، وهو أفضل التالين والمتدبرين والفاقهين للقرآن الكريم، يوظف القصة القرآنية وغيرَها من القصص في مجالات عدة، لتتحقق مقاصدُها الكلية والجزئية التي تخدم كلُّها ترشيدَ الابتلاء بثلاثية الفعل البشري: استخلافا وعمرانا وتعبدا لله تعالى، بغيةَ اقتداء أمته به لتحافظ على مكانتها الابتلائية المرموقة في ثلاثية فعلها المذكور آنفا، حتى تظل عزيزة كريمة لها القيادة والسيادة والريادة بدلا من التدمير الداخلي والانكسار والاستخذاء أمام الاعداء كما هو الحال اليوم.

---

(1) انظر: المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات لابن جني (17/2)، والسبعة في القراءات لابن مجاهد ص (379)، والحجة في القراءات السبع لابن خالويه ص (214)، ومفاتيح الأغاني في القراءات والمعاني لأبي العلاء الحنفي ص (246).

رابعا: هدْي النبي ﷺ في توظيف القصة القرآنية وغيرها

لقد وظف النبي ﷺ القصةَ القرآنيةَ وغيرَها من القصص في مقاصد متعددة: إيمانية وتعبدية وقضائية واجتماعية ودعوية وغيرها من المقاصد التي تندرج في دائرة ثلاثية الفعل البشري الابتلائي.

1) توظيفه ﷺ للقصة في الأحوال الإيمانية

ومن الشواهد على ذلك ما رواه ابن ماجة عن عبد الله بن السائب رضي الله عنه قال: (قرأ رسول الله ﷺ في صلاة الصبح بـ "المؤمنون"، [أي بسورة المؤمنون] فلما أتى على ذكْرِ عيسى، أصابتْه شَرْقةٌ فركعَ)[1].

قال الإمام قاسم السرقسطي (ت 302هـ) تعليقاً على هذا الحديث: "الشَّرَقُ: كَالْغَصَصِ، وَكَأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَنَقَتْهُ الْعَبْرَةُ عِنْدَمَا قَصَّ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مِنْ ذِكْرِ عِيسَى وَأُمِّهِ، وَالْمُسْتَعْبِرُ أَحْيَانًا مُنْقَطِعٌ بِهِ عَنِ الْكَلَامِ كَانْقَطَاعِ الْخَنْقِ، وَقَالَ ذُو الرِّمَّةِ: لَعَمْرُكَ إِنِّي يَوْمَ جَرْعَاءِ مَالِكٍ... لَذُو عَبْرَةٍ كُلاًّ تَفِيضُ وتَخْنُقُ"[2]. فبناء على هذا التفسير يكون قد وظف الاعتبارَ بالقصة لزيادة الإيمان بدلالة البكاء خشوعا لله.

2) توظيفه ﷺ القصةَ في الأمور التعبدية المحضة

ومن ذلك ما رواه عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ العَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لَهُ: (أَحَبُّ الصَّلاَةِ إِلَى اللَّهِ صَلاَةُ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ، وَأَحَبُّ الصِّيَامِ إِلَى اللَّهِ صِيَامُ دَاوُدَ، وَكَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ وَيَقُومُ ثُلُثَهُ، وَيَنَامُ سُدُسَهُ، وَيَصُومُ يَوْمًا، وَيُفْطِرُ يَوْمًا)[3]. فقد قص قصة

---

(1) أخرجه ابن ماجه في سننه أبواب إقامة الصلوات، ب: القراءة في صلاة الفجر، ر: (820)، وأخرجه الحميدي في مسنده ر(821)، وأخرجه مسلم في صحيحه، ك: الصلاة ب: القراءة في الصبح ر: (455)، والبخاري في صحيحه تعليقا، ك: مواقيت الصلاة، ب: الجمع بين السورتين في الركعة ؛ وأبو داود في سننه، ك، الصلاة، ب: الصلاة في النعل، ر: (649).وهو أيضا في "مسند أحمد" (15394)، و"صحيح ابن حبان" (1815) وهؤلاء جميعا ما عدا ابن ما جه بلفظ فأخذته (سعلة) وأيضا في أكثرها تردد الراوي ابن عباد في كون القصة هي قصة موسى وهارون أو قصة عيسى.

(2) الدلائل في غريب الحديث للسرقسطي (150/1). وذكر السرقسطي في معنى كلامه مع تصرف في التفصيل: أن (كلا) في بيت ذي الرمة مفعول به منصوب بفعل محذوف تقديره: لذو عبرة تفعلُ كلاً: ثم فسر هذا الكلَّ بقوله: تفيض وتخنق.

(3) صحيح البخاري، ك: التهجد، ب: من نام عند السحر، ر: (1131).

داود في جانبها التعبدي، ووظفها للاقتداء بها استجابةً لأمر الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: 90].

3) توظيفه ﷺ القصةَ في العدالة القضائية.

ومن أمثلة ذلك ما رواه ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَسَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قِسْمَةً، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ: وَاللَّهِ مَا أَرَادَ مُحَمَّدٌ بِهَذَا وَجْهَ اللَّهِ، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبَرْتُهُ، فَتَمَعَّرَ وَجْهُهُ، وَقَالَ: (رَحِمَ اللَّهُ مُوسَى، لَقَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ)[1]. وفي لفظ آخر للبخاري أيضا فَقَالَ: (فَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ يَعْدِلِ اللَّهُ وَرَسُولُهُ؟ رَحِمَ اللَّهُ مُوسَى قَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ). فقد عالج النبي ﷺ فهما خاطئا لمسألة قضائية بقصة موسى عليه السلام في جانب الإيذاء والصبر عليه.

ومن ذلك أيضا حديث المخزومية التي سرقت، وأراد أسامة بن زيد أن يشفع لها عند رسول الله ﷺ، عسى ألا يقيم عليها حد السرقة لأنها شريفة في قومها، فغضب النبي ﷺ حتى احمرت وجنتاه، وقص عليهم قصة في عواقب ترْك العدل في تطبيق قوانين القضاء، فعن عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّ قُرَيْشًا أَهَمَّهُمْ شَأْنُ المَرْأَةِ المَخْزُومِيَّةِ الَّتِي سَرَقَتْ، فَقَالُوا: وَمَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ؟ فَقَالُوا: وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلَّا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ، حِبُّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:(أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ، ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ، أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الحَدَّ، وَايْمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا)[2].

---

(1) صحيح البخاري، ك: الأدب، ب: من أخبر صاحبه بما يقال فيه، ر: (6059).

(2) صحيح البخاري، ك أحاديث الأنبياء، ب حديث الغار، ر (3475)؛ ومسلم في صحيحه، ك: الحدود، ب: قطع يد السارق الشريف وغيره، ر: (1688).

4)توظيفه ﷺ القصةَ أسريا واجتماعيا.

ومن شواهد ذلك وأمثلته عندما قصَّ النبي ﷺ على عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قصص النساء الإحدى عشْرَةَ، وكان أفضلُها قصةَ آل زرع فقال لعائشة: (كنتُ لكِ كأبي زرْعٍ لأم زرْعٍ)[1].

وفي هذا الحديث من الفقه حسن المعاشرة مع الزوجة، والاستعانة بالقصة على ملاطفتها، قال أبو القاسم الرافعي: "قَالَ الإمام أبو سليمان الخطابي: (وفيه من العلم حسن العشرة مع الأهل، واستحباب محادثتهن بما لا إثم فيه). (...)وزاد تاج الإسلام أبو بكر السمعاني، فقال: (فيه دلالة على جواز ذكر أمور الجاهلية واقتصاص أحوالهم؛ وعلى فضل عائشة رضي الله عنها ومحبته لها بملاطفته إياها؛ وعلى أن السمر بما يحل جائز).

ولمعنى حسن العشرة مع الأهل ونحوه أورد البخاري الحديث في (كتاب النكاح)، ولإشعاره بفضل عائشة أورده مسلم في (الفضائل)، ولمعنى السمر أورده أبو عيسى الترمذي في (أخلاق النبيﷺ) في باب ترجمة ب: كلام رسول الله ﷺ في السمر؛ وليس في اللفظ ما يدل على أن ذلك كان في السمر، لكن القصة تشبه الأسمار وربما ورد نقل"[2].

وعلى حال ففي الحديث دلالة على مشروعية توظيف القصة في استقرار البنية الأسرية.

5)توظيفه ﷺ القصةَ دعويا.

وذلك في قصص كثير كقصة جريج الصالح، وقصة صاحب المسحاة الواردة في صحيح مسلم، وقصة من كانوا يؤاخذون الضعيف دون الشريف في سياق الشفاعة للمخزومية الشريفة لما سرقت؛ وقصة صاحب وصية حرق جثته عند وفاته، وقصة من قتل تسعة وتسعين نفسا إلخ وكلها قصص صِحاح مِلاحٌ وظّفها النبي ﷺ في تهذيب السلوك

---

(1) صحيح البخاري، ك: النكاح، ب: حسن المعاشرة مع الأهل، ر: (5189).

(2)درة الضرع لحديث أم زرع للرافعي ص (73 - 74)؛ وقارنه بما كتبه القاضي عياض في: بغية الرائد لما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد ص (171 - 185).

وتربية الجمهور على مسلك التقوى، وحملَهم بها على ترك المعصية والهوى باعتبار أنَّ هذا هو شرط النجاح في الابتلاء بثلاثية الفعل البشري الذي من أجله أوجده الله تعالى.

وفي الختام أقول: إنه من أجل أن يستفيد الناس من مقاصد القصة القرآنية في التعبد والاستخلاف والعمران، ويُحرزوا هذه الوظائف منها تنظيرا وتنزيلا ومدارسة وممارسة، فلا بد لهم من واجبٍ يقومون به وهو: تلاوة هذا القصص وتدبره، بعد تحصيل الحد الضروري من لسان العرب، لأن ذلك هو المدخل الوحيد فقط لاستثمار مقاصده الكلية والجزئية في ترشيد الابتلاء بثلاثية الفعل البشري المتجلي في: الاستخلاف السياسي، والعمران المادي، والتعبد العمودي والأفقي[1] عسى أن يعود للأمة مجدها وتستأنف حركةَ الإقلاع من جديد، ولذا قال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ﴾ [يونس: 71]، ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الشعراء: 69]، ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ﴾ [المائدة: 27]، ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا﴾ [الأعراف: 175]إلخ، والأمر بالتلاوة للقصة أمرٌ مطلقٌ، فيفيد الوجوبَ الكفائيَّ في الدعوة، والعينيَّ في الاتباع. لأن التلاوة فيها معنى البلاغ ومعنى الاتباع، هذا وبالرغم من واقعنا اليوم فإننا لعلى يقين أن المستقبل لهذا الدين، ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: 140]، ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: 21].

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

---

(1) التعبد العمودي هو المتعلق بتنظيم العلاقة بين العبد وربه ويسمى عند الفقهاء بالتعبد المحض أو حق الله تعالى المحض؛ ويقابله التعبد الأفقي المتعلق بنظيم العلاقة بين الإنسان وأخيه الإنسان وبينه وبين الكون كله ويسمى عند الفقهاء بالمعاملات أو حقوق العباد المحضة.

لائحة المصادر والمراجع:

1 . **القرآن الكريم** برواية ورش عن نافع من طريق الأزرق.

2 . **صحيح الإمام البخاري**، لمحمد بن إسماعيل أبي عبد الله البخاري، المحقق: محمد زهير بن ناصر، الناشر: دار طوق النجاة، ط1، 1422هـ

3 . **صحيح الإمام مسلم**، لمسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت 261هـ)، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، دون ط ودون تاريخ.

4 . **الدلائل في غريب الحديث**، لقاسم بن ثابت بن حزم السرقسطي (ت 302هـ)، تحقيق: د. محمد بن عبد الله القناص، الناشر: مكتبة العبيكان، الرياض، ط1، 1422 هـ - 2001 م.

5 . **المسند**، لأبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني (ت 241هـ)، المحقق: أحمد محمد شاكر، الناشر: دار الحديث – القاهرة، ط1، 1416 هـ - 1995 م.

6 . **المسند**، لأبي بكر عبد الله بن الزبير الحميدي (ت 219هـ)، تحقيق حسن سليم الدَّارَانيّ، الناشر: دار السقا، دمشق، ط1، 1996 م.

7 . **السنن**، لأبي داود سليمان بن الأشعث السِّجِسْتاني (ت 275هـ)، المحقق: شعَيب الأرنؤوط - محَمَّد كامِل قره بللي، الناشر: دار الرسالة العالمية، ط1، 1430 هـ - 2009 م.

8 . **السنن**، لأبي عبد الله محمد بن يزيد ماجه القزويني (ت 273هـ)، المحقق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، الناشر: دار الرسالة العالمية، ط1، 1430 هـ - 2009 م.

9 . **المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات**، لأبي الفتح عثمان بن جني (ت 392هـ)، الناشر: وزارة الأوقاف-المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ط 1420هـ- 1999م

11 . **السبعة في القراءات**، لأبي بكر بن مجاهد البغدادي (ت 324هـ)، المحقق: شوقي ضيف، الناشر: دار المعارف – مصر، ط2، 1400هـ.

12 . **الحجة في القراءات السبع**، لحسين بن أحمد بن خالويه (ت 370هـ)، المحقق: د. عبد العال سالم، الناشر: دار الشروق – بيروت، ط4، 1401 هـ.

13 . **مفاتيح الأغاني في القراءات والمعاني**، لمحمد بن محمود أبي العلاء الحنفي (ت بعد 563هـ)، تحقيق: عبد الكريم مصطفى مدلج، الناشر: دار ابن حزم، بيروت، ط1، 1422هـ - 2001م.

14 ـ **تقويم الأدلة في أصول الفقه**، لأبي زيد الدّبوسيّ الحنفي (ت 430هـ)، المحقق: خليل الميس، الناشر: دار الكتب العلمية، ط1، 1421هـ - 2001م.

15 ـ **المعتمد**، لأبي الحسين البَصْري المعتزلي (ت 436هـ)، المحقق: خليل الميس، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، ط1، 1403هـ.

16 ـ **المستصفى من علم الأصول**، لأبي حامد محمد الغزالي الطوسي (ت 505هـ)، تحقيق: محمد عبد السلام عبد الشافي، الناشر: دار الكتب العلمية، ط1، 1413هـ - 1993م.

17 ـ **ميزان الأصول في نتائج العقول**، لعلاء الدين محمد بن أحمد السمرقندي (ت 539 هـ)،

حققه د محمد زكي عبد البر، الناشر: مطابع الدوحة الحديثة، قطر، ط1، 1404 هـ - 1984 م.

18 ـ **فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال**، لأبي الوليد بن رشد الحفيد (ت 595هـ)، تحقيق: محمد عمارة، الناشر: دار المعارف، ط2 دون تاريخ.

19 ـ **الإمام في بيان أدلة الأحكام**، لعز الدين بن عبد السلام (ت 660هـ)، المحقق: رضوان مختار بن غربية، الناشر: دار البشائر الإسلامية – بيروت، ط1، 1407هـ - 1987م.

20 ـ **جامع البيان في تأويل القرآن**، لمحمد بن جرير الطبري (ت 310هـ)، المحقق: أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة، ط1، 1420 هـ - 2000 م.

21 ـ **الفصول في الأصول**، لأبي بكر الرازي الجصاص الحنفي (ت 370هـ)، الناشر: وزارة الأوقاف الكويتية، ط2، 1414هـ - 1994م.

22 ـ **العدة في أصول الفقه**، للقاضي أبي يعلى (ت 458هـ)، حققه: د أحمد بن علي المباركي، دون ناشر، ط2، 1410 هـ - 1990 م.

23 ـ **الإشارة في أصول الفقه**، لأبي الوليد سليمان بن خلف الباجي (ت 474 هـ)، المحقق: محمد حسن إسماعيل، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1424 هـ - 2003 م.

24 ـ **إيضاح المحصول من برهان الأصول**، لأبي عبد الله محمد بن علي المازري (536 هـ)، المحقق: د. عمار الطالبي، الناشر: دار الغرب الإسلامي، ط1، دون تاريخ.

25 ـ **شرح تنقيح الفصول**، لشهاب الدين أحمد بن إدريس لقرافي (ت 684هـ)، المحقق: طه عبد الرؤوف سعد، الناشر: شركة الطباعة الفنية المتحدة، ط1، 1393 هـ - 1973 م.

26. **نفائس الأصول في شرح المحصول**، لشهاب الدين أحمد بن إدريس القرافي (ت 684هـ)، المحقق: عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معوض، الناشر: مكتبة نزار الباز، ط1، 1416هـ - 1995م.

27. **شرح مختصر الروضة**، سليمان بن عبد القوي الطوفي (ت 716هـ)، المحقق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة، ط1 الأولى، 1407 هـ / 1987 م.

28. **مقاييس اللغة**، لأحمد بن فارس (ت 395هـ)، المحقق: عبد السلام هارون، الناشر: دار الفكر 1399هـ - 1979م.

القَصص القَرآني وبناء المفاهيم القَرآنية
مفهوم الاستخلاف نموذجا

د. محمد بن عبد القادر الفيلة

أستاذ باحث في التربية والعلوم الشرعية

مشرف تربوي في التربية الإسلامية بالتعليم الثانوي

مقدمة:

يحتل القصص حيزا كبيرا في القرآن الكريم، وذلك منبئ عن المكانة الكبرى التي أولاها التنزيل الحكيم للقصة، قصد تحقيق مقاصده السامية بما هو كتاب إصلاح ودعوة وتربية، ومنبئ من جهة أخرى عن الأهمية الخاصة التي ينبغي أن يحظى بها موضوع القصة في القرآن الكريم بحثا وتجلية.

ولعل مما يؤكد ذلك ما عرفه تاريخ الأمة من صنوف التأليف في القصص القرآني؛ فقد تعددت طرقه وأساليبه، وتشعبت المقاربات المنهجية في التعامل معه؛ فمن مقارب له من ناحية أدبية تروم بيان جمالية التصوير الفني في القصة، ومن مقارب له من ناحية توثيقية تروم تتبع الأحداث التاريخية، سواء تعلقت بالأمم الماضية أم بخصوص هذه الأمة، أم بأحداث السيرة النبوية خاصة، وآخرون قاربوه من ناحية تربوية إما بوجه كلي يروم استخلاص القواعد، أو بوجه جزئي ذي طابع وعظي... وغير ذلك كثير كثرة تعدد الأغراض التي سيق من أجلها القصص في القرآن الكريم؛ ولعل من أبرز الجوانب التي ينبغي التطرق

إليها في القصة القرآنية هو جانب المفاهيم.

وإذ لا شك أن القرآن الكريم مجموعة من المفاهيم، قد صيغت في قالب عربي مبين، فإن فهم القرآن الكريم متوقف على الإحاطة بحقائق تلك المفاهيم عبر تجميع دلالات ما يحيل عليه من مصطلحات سماها بها الذكر الحكيم، وأحاطها بما يحفظ دلالتها ويقيها من التحريف والتبديل، وهو ما يستلزم من العلماء تدبرا عميقا للنص القرآني سعيا لاستجلاء الخصوصيات الدلالية للمفردات القرآنية بما هي مصطلحات تسمي مفاهيم عميقة الدلالة عظيمة الأثر في النفس والواقع.

وقد تولى القصص القرآني دورا كبيرا في بناء المفاهيم القرآنية، وغرسها في النفوس، وإحلالها في الواقع، من خلال عرض نماذج بشرية وبيان كيف تعاملت مع التكليف الإلهي؛ سواء أكانت تلك النماذج خيرة متمثلة في الأنبياء والصالحين المصلحين، أم تمثلت في النماذج السيئة للفاسدين المفسدين ممن تنكبوا الصراط المستقيم. وعبر كلا النوعين من النماذج، سعى القرآن الكريم إلى إعطاء المثال و(اللامثال) الذي عبر تدبر سماته يبنى المفهوم المراد، وتَرسُخ معالمه في الوعي الإنساني فرديا كان أم جمعيا، ناهيك عن العبر والدروس العميقة جدا، التي يستشفها كل من أراد معرفة طريق الحق والهروب من طرق الضلالة، ولذلك قال تعالى: ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [سورة يوسف:111].

ولأن بناء المفاهيم في القصص القرآني لم يكن في قالب فلسفي مجرد، ولم يكن في إطار من القصص الأسطوري المختلق، وإنما كان عبر تفاعل الإنسان، بما هو مستخلف، مع مراد رب العالمين تفاعلا حقيقيا مع الوجود، فإنه يلزم أن يُتعامل مع القصص القرآني في معرض تأسيسه للمفاهيم بمنطق الواقعية، التي تفرض عرض النفس البشرية على مقررات تلك القِصص بما هي نماذج حية قصد استخلاص العبر، وصولا لتمثل النماذج الإيجابية والفرار من النماذج السلبية...

ولا شك أن تلك المفاهيم التي من شأنها أن تضبط التصور ثم السلوك، إذا تم التعامل معها بما تستلزمه من النظر الكلي المفضي- إلى استخلاص الهدى المنهاجي، كفيلة بصياغة

الوجدان وصونه وكفيلة بتقويم السلوك وتصحيحه.

ولأن مفاهيم القرآن ليست كلها على نفس الوزان من الأهمية والمركزية، إذ ثمة **مفاهيم مفتاحية**، ينبغي للمسلم أن يستحضرها وهو يتعامل مع القرآن الكريم عامة ومع قصصه خاصة، نظرا لمركزيتها في التصور الإسلامي أولا، ونظرا لوقعها على النفس ثانيا، فإن امتلاك النظر الموازن الذي يضع كل مفهوم في موضعه وبمقداره، لا يمكن أن يتأتى إلا بإدمان النظر في القرآن الكريم تدبرا وتفقها، كما لا يمكن أن يتأتى بالقراءات الاجتزائية التي تُغيب النظر الكلي المبني على التجميع والاستقراء والتتبع.

وإذا كانت المفاهيم المستعملة في القصص القرآني كثيرة جدا، فإنني أحسب أن مفهوم الاستخلاف يعد أحد أبرزها لأنه يكتنز دلالات عميقة جدا تكاد تستحوذ على الرؤية القرآنية لعلة الوجود الإنساني ورسالته في الحياة؛ لذلك ارتأيت أن يكون هو النموذج الذي نقدمه بين يدي هذه الدراسة قصد استجلاء دلالاته وأبعاده، واستشفاف سماته وعلاقاته، تبينا لحقيقته أولا، وإدراكا لموقعه ضمن الرؤية القرآنية، التي يشكل بها الذكر الحكيم رؤية المؤمن للعالم من حوله أولا، ولوظيفته فيه ثانيا، ثم بيان ما قد يسببه النظر التجزيئي في معاني القرآن من الغفلة عن أمهات من المعاني الكلية، التي يمكن أن تؤسس لنموذج حضاري تقارع به الأمة أعداءها من الأمم المناوئة.

ولأن مفهوم الاستخلاف، قد أسس له في النص القرآني، في معرض قصة آدم بما هي أم القصص القرآني، فإن ذلك منبئ عن مركزية هذا المفهوم ضمن القصص القرآني أولا، وضمن الشبكة المفهومية للقرآن الكريم ثانيا، كما أن حجم ورود مصطلح الاستخلاف وما أحاطه به النص القرآني من الأوضاع والمقامات والسياقات، منبئ أيضا عن تلك المركزية. وعلى ضوء ذلك فإن غاية هذا البحث الإجابة عن التساؤلات التالية؟

- **ما المقصود بالمفهوم القرآني وما أهميته؟**
- **ما أهمية القصص القرآني وما مسلكه في بناء المفاهيم القرآنية؟**
- **ما حقيقة مفهوم الاستخلاف؟ وما موقعه ضمن القصص القرآني؟ وإلى أي حد يمكن اعتباره مفهوما مفتاحيا؟**

وجوابا على تلك الأسئلة فإننا نقترح أن نقسم هذا البحث إلى مقدمة وثلاثة مباحث، أما المقدمة فما نحن بصدده **وأما المبحث الأول** فنخصصه لمطالب تمهيدية يحيل عليها عنوان البحث من قبيل **بيان أهمية القصص القرآني ولزوم تدبره وبيان حقيقة المفهوم القرآني وبيان مركزيته في الفهم والتدبر.**

وأما المبحث الثاني فلتبين مسالك القصص القرآني في بناء المفاهيم القرآنية.

وأما المبحث الثالث فنخصصه لتقديم المثال الذي ارتأينا أن يكون نموذجا بين يدي هذه الدراسة وهو متعلق بمفهوم الاستخلاف. ومهمته أن يقدم بين يدي ما سبق نموذجا ملموسا لأثر تدبر القصص القرآني، في تبين حقائق المفاهيم القرآنية وكشف ما اعترى تعامل فئام عريض من علماء الأمة مع هذا المفهوم، رغم مركزيته، من النظرة الجزئية التي أسقطت في كثير من التفريع البعيد عن خدمة أغراض القصص القرآني أولا، وأسهمت في إغفال مركزية مفهوم الاستخلاف في بناء تصور المسلم لدوره ومهمته في الوجود ثانيا.

والله نسأل أن يلهمنا الإخلاص والصواب وأن يجنبنا مواقع الزلل في القول والعمل.

المبحث الأول: مطالب تمهيدية

المطلب الأول: في أهمية القصص القرآني ولزوم تدبره

يحتل القصص القرآني حيزا مهما جدا في القرآن الكريم يكاد يقارب الثلث، ولم تكد تخلو سورة من سور القرآن الكريم من سوق قصة أو قصص، بل إن سورا بعينها قد خلصت أو كادت تخلص لسوق قصة معينة أو مجموعة قصص، كما هو الشأن في سورة يوسف، وفي سورة البقرة وآل عمران وهود، وطه والنمل وغيرها كثير، ومن احتفاء القرآن بالقصص أن سمى إحدى سوره بالقصص تنبيها على مكانته وتلميحا إلى عظيم أثره.

ولئن دل ذلك على شيء فإنما يدل على أهمية القصة ومركزيتها في القرآن، من حيث هي وسيلة لبلوغ المقاصد الكبرى التي أنزل من أجلها. فإذا كان القرآن الكريم كتاب دعوة وإصلاح وتربية، فإن القصة «إحدى وسائله لإبلاغ هذه الدعوة وتثبيتها، شأنها في ذلك شأن الصور التي يرسمها للقيامة وللنعيم والعذاب، وشأن الأدلة التي يسوقها على البعث

وعلى قدرة الله، وشــأن الشرــائع التي يفصــلها والأمثال التي يضرــبها... إلى آخر ما جاء في القرآن من موضوعات» [1].

ومما يؤكد أهمية القصص في القرآن الكريم أن الله سبحانه امتن على رسوله ﷺ بقوله: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [سورة يوسف: 3]. وسماه الله سبحانه بالقصص الحق في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [سورة آل عمران: 62]. فعلمنا من ذلك كله أن «القصص القرآنية لم تسق مساق الإحماض وتجديد النشاط، وما يحصل من استغراب مبلغ تلك الحوادث من خير أو شر، لأن غرض القرآن أسمى وأعلى من هذا، ولو كان من هذا لساوى كثيرا من قصص الأخبار الحسنة الصادقة؛ فما كان جديرا بالتفضيل على كل جنس القصص» [2].

ولأن تدبر القرآن الكريم مستويان، مستوى متاح للعموم بمقتضى تيسير الذكر للمدكر ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [سورة القمر: 17]. ومستوى لا يمكَّن منه إلا من امتلك أدواته، من جهة كون أصحابه موقعين عن رب العالمين، وهم الطائفة التي نفرت لذلك: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةًۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [سورة التوبة: 122]، فإن القصص القرآني أيضا لا يخرج عن ذلك.

أما المستوى الأول: فإن المسلَّم به أن القصص في القرآن الكريم ليس مسوقا للترف، ولا للتفكه وتمضية الوقت، وليس هو من قبيل الأساطير، بل هو قصص حقيقي واقعي، حكاه الله سبحانه، ضربا للمثل، ودفعا للناس للنظر في آثار الغابرين، لأن من شأن ذلك أن يهز قلوب من يتأمله ويتدبره. ذلك أن لحظات الاسترجاع الخيالي لحركاتهم وسكناتهم وخلجاتهم وتصورهم أحياء يروحون في هذه الأمكنة ويجيئون، يخافون ويرجون، يطمعون

---

(1) التصوير الفني في القرآن الكريم لسيد قطب ص 143

(2) التحرير والتنوير للشيخ محمد الطاهر بن عاشور (64/1)

ويتطلعون.. ثم إذا هم ساكنون، لا حس ولا حركة. آثارهم خاوية، طواهم الفناء وانطوت معهم مشاعرهم وعوالمهم وأفكارهم وحركاتهم وسكناتهم، ودنياهم الماثلة للعيان والمستكنة في الضمائر والمشاعر.. إن هذه التأملات لتهز القلب البشري هزاً مهما يكن قاسياً غافلاً. ومن ثم يأخذ القرآن بيد القوم ليوقفهم على مصارع الغابرين بين الحين والحين، ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا﴾ [سورة محمد: 10]، فيدركوا أن مصيرهم كمصيرهم وأن سنة الله الواضحة الآثار في آثار الغابرين ستنالهم وأن عاقبتهم في هذه الأرض إلى ذهاب: ﴿وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [سورة يوسف: 109]» [1].

إن تدبر القصص القرآني مهم جدا، لمن أراد تهذيب نفسه، وأطرها على الحق، من جهة أنه يوقف قارئه حقيقة على نماذج بشرية وإن بعدت في الزمان والمكان، إلا أن السلوك هو ذات السلوك، والخلجات هي ذاتها، ودوافع الخير والشر هي نفسها. نعم تتغير الظروف والأحوال والحيثيات، ولكن السلوك واحد في خصوص العلاقة برب العباد، فهو إما طاعة، وإما عصيان، إما خضوع وإما تمرد.

إن القصص فضاء رحب للتربية، وتأثيره في النفس عظيم جدا، لذلك أمر الله نبيه أن يتلو على الناس ما تضمنه القرآن من قصص رجاء حصول التفكر قال سبحانه مخاطبا نبيه، ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [سورة الأعراف: 176]، وقال أيضا: ﴿فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [سورة الأعراف: 176]. ولقد أثبتت التجارب والمشاهدات عظم تأثير القصة في النفوس، من جهة تقريبها للمشاهد، وتصويرها للمواقف، وتلخيصها للأحداث، وبيانها للمآلات.

وأما المستوى الثاني من مستويات التدبر، فهو مرتكز على وجوب التنبه أن القصص القرآني، إضافة إلى ما فيه من قصد الاعتبار بمن مضى من حيث كونهم نماذج وتجارب،

---

(1) في ظلال القرآن لسيد قطب (2035/4)

سيقت مثالا للتعامل مع التكليف الإلهي من جهة كونه استخلافا، مصداقا لقوله تعالى: ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [سورة يوسف: 111]، **فإن ثمة قصدا آخر لعله يتجاوز كون سوق القصص القرآني قاصرا على حصول العبرة والموعظة الفردية، وهوكونه فضاء للاعتبار الجمعي، حملا لعموم الأمة على الاستفادة من تجارب من سبقها من الأمم.** وفي ذلك يقول الشيخ محمد الطاهر بن عاشور: «أبصر أهل العلم أن ليس الغرض من سوقها قاصرا على حصول العبرة والموعظة مما تضمنته القصة من عواقب الخير أو الشر، ولا على حصول التنويه بأصحاب تلك القصص، في عناية الله بهم أو التشويه بأصحابها فيما لقوه من غضب الله عليهم، كما تقف عنده أفهام القانعين بظواهر الأشياء وأوائلها، بل الغرض من ذلك أسمى وأجل. **إن في تلك القصص لعبرا جمة وفوائد للأمة** ولذلك نرى القرآن يأخذ من كل قصة أشرف مواضيعها ويعرض عما عداه ليكون تعرضه للقصص منزها عن قصد التفكه بها، من أجل ذلك كله لم تأت القصص في القرآن متتالية متعاقبة في سورة أو سور كما يكون كتاب تاريخ، بل كانت مفرقة موزعة على مقامات تناسبها» [(1)].

وبناء على ذلك فإن القصص القرآني، فضاء واسع أمام العلماء والباحثين والمفكرين، لتقليب النظر قصد استجلاء المقاصد الكبرى للقرآن، ومجال فسيح للتدبر قصد الوصول إلى السبل الكفيلة بتحقيق غايات القرآن ومراميه العالية بأيسر الطرق وأضمنها.

وتأمل معي قول الشيخ محمد الطاهر بن عاشور «إن في تلك القصص لعبرا جمة **وفوائد للأمة»، فإنه دال على مقدار ما ينبغي أن توليه الأمة لذلك القصص من الأهمية،** بما هي الأمة الشاهدة على غيرها من الأمم، وبما هي الأمة الوسط الحائزة على كل أوجه الخيرية، التي ينبغي أن تجعلها في منظر يغري غيرها من الأمم بالدخول فيما هي فيه.

إن القصص القرآني فضاء رحب للتفكر، مثله مثل آيات الله المبثوثة في الأنفس والآفاق، فلئن كانت الآيات الكونية شاهدة على إبداع الصنعة، وداعية الإنسان لتسخير

---

(1) التحرير والتنوير للشيخ محمد الطاهر بن عاشور (64/1)

القوانين الكونية، فإن ما تضمنه قصص الأمم السابقة من الحكمة، معين خصب للعلوم الإنسانية نفسية كانت أو اجتماعية أو غيرها، تحث المسلمين على حسن استثمارها وتلح عليهم إلحاحا في ضرورة توظيفها؛ ولو أن المسلمين أدركوا ذلك وأحسنوا التعامل معه لكانوا قادة العلوم اليوم، كونيها وإنسيها، ولكنهم تنكبوا عن ذلك فهم عالة على غيرهم.

ولقد تضمنت تلك القصص ثروة مفاهيمية ومصطلحية، من شأنها أن تغني الأمة عن الارتهان إلى ما يفد عليها من المفاهيم، والنظريات، حتى لقد غدا كل علم يراد استنباته في الأمة، لا يمكن أن تمنح له شهادة الميلاد، ولا أن يعترف بجدواه ما لم تشهد له مقذوفات الحضارة الغربية، بل قد صار العلم كل العلم هو ما يفد علينا من هناك.

المطلب الثاني: في حقيقة المفهوم القرآني ومركزيته.

1) في حقيقة المفهوم القرآني

1. في مفهوم المفهوم

أول ما يستوقف الباحث عن معنى المفهوم في اللغة وهو يجوب المعاجم العربية القديمة، ذلك الاقتضاب البين الذي طبع تناول تلك المعاجم للجذر الثلاثي (فهم)، إذ معظم المعاجم إما اكتفت بالقول بأن الفهم معروف، أو فسرت فَهِمَ ب عرف وعلم. أما المشتق (مفهوم) فلم يتطرقوا إليه إطلاقا.

ففي العين: فهمت الشيء فهْما وفهَما: عرفته وعقلته، وفهَّمت فلانا وأفهمته: عرَّفته،...، ورجل فهِم: سريع الفهم[1]. وفي الجمهرة الفهم والفهَم: معروفان ورجل فهم من قوم فهماء[2]. وفي تهذيب اللغة: تفهمت المعنى: إذا تكلفت فهمه. وفي المحيط الفهم المعرفة بالشيء، فهم ذاك عقله[3]. خلا الراغب الأصبهاني الذي حاول بيان حقيقة الفهم بقوله "**هيئة للإنسان بها يتحقّق معاني ما يحسن،...، وأَفْهَمْتُهُ: إذا قلت له حتى**

---

(1) العين لخليل بن أحمد الفراهيدي (4/ 61)

(2) جمهرة اللغة لأبي بكر بن الحسن ابن دريد (2/ 972)

(3) المحيط في اللغة للصاحب بن عباد (4/ 10)

تصـــوّره[1]، وهو قريب مما نجده في معاجم الاصـــطلاحات، التي عرفت الفهم بكونه "تصـــور المعنى من لفظ المخاطب"[2]. وبعضـــها زاد تعريف **التفهيم أو الإفهام بكونه إيصَال الْمَعْنى إِلَى ذهن السَّامع بِوَاسِطَة اللَّفْظ[3]**

وأما التهانوي فقال: **هو عند المنطقيين ما حصل في العقل**... سواء حصل بالفعل أو بالقوة... وقال: المفهوم والمعنى متحدان بالذات؛ فإنّ كلّا منهما هو الصـــورة الحاصـــلة في العقل... مختلفان باعتبار القصـد والحصـول. فمن حيث إنّها تقصـد باللفظ سـمّيت معنى ومن حيث إنّها تحصل في العقل سمّيت بالمفهوم[4].

وعرف المفهوم بتعريفات كثيرة في المعاجم الحديثة، يســتحيل اســتقصــاء جميعها، ولكن نختار منها ثلاثة تعريفات كل واحد منها ناظر إلى المفهوم من زاوية معينة، تعكس في الحقيقة مســتوى من مســتويات وجود المفهوم، وبعض ما ســنذكره مشــار إليه في ما ذكره الراغب والتهانوي وغيرهما.

أما التعريف الأول: فالمفهوم هو مجموع معلومات منظمة عن خصــائص أشــياء أو حوادث أو عمليات تجعل أي شيء خاص أو صــنف من أشــياء خاصــة يرتبط بالشيــء أو الصــنف نفســه ويختلف عن أشــياء أو أصــناف أخرى[5]. وهو تعريف ناظر إلى المفهوم من جهة كونه ذاتا حقيقية موجودة في الواقع إما في شكل مادي أو في شكل مجرد.

وأما التعريف الثاني: فالمفهوم فكرة أو صـــورة ذهنية يكونها الفرد عن أشـــياء أو حوادث في البيئة[6]. وهو تعريف ناظر إلى المفهوم من جهة كونه تصورا لدى المتلقي.

---

(1) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ص 646

(2) التعريفات لعلي بن علي الشريف الجرجاني ص169

(3) مقاليد العلوم في الحدود والرسوم عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي ص 76

(4) كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم لمحمد بن علي التهانوي (2/ 1617)

(5) - William cood win and Herbert, J Klausmeier faciliting, student learning an intvoduction to educational psychology, Harper and row pulishers, 2004

(6) الأنشطة الصفية والمفاهيم العلمية على ربيع حسين الهاشمي ص44.

التعريف الثالث: فالمفهوم هو مجموع الصـــفات والخصـــائص الموضـــحة لمعنى كلي[1]، وهو تعريف ناظر إلى المفهوم من جهة وجوده اللغوي، أي من جهة كون المفهوم تعريفا واصفا لما ارتسم في الذهن محاولا التقريب بين الصورة الذهنية المرتسمة في عقل المتلقي وبين الوجود الحقيقي للمفهوم.

2. في حقيقة المفهوم القرآني

بناء على ما تم تقريره في بيان مفهوم المفهوم، من خلال التمييز بين أنماطه الوجودية: وهي الوجود الحقيقي والوجود الذهني والوجود اللغوي، فإننا نقرر ههنا أن المفهوم القرآني هو ذلك **المعنى الكلي الذي يحدده القرآن، عبر تحديد ســـماته وخصـــائصـــه، ثم عبر تســـميته،** فيكون المفهوم القرآني معنى موجودا وجودا حقيقيا في القرآن، دل عليه أولا المصـــطلح الذي ســـماه به القرآن الكريم ودلت عليه ثانيا مجموع الســـمات والأوصـــاف المحددة لماهيته، والمبثوثة في القرآن كله، على أن نســـلم أن ليســـت كل المفاهيم القرآنية قد وضع بإزائها المصطلح الصريح، ولكن يمكن أن يستخلص لها اسم من تقليبات الجذر الدال عليها.

ولنا أن نضرب مثالا عسى أن يتضح به المقال، فنقول: إن العفة مثلا مفهوم قرآني، مبثوث في القرآن الكريم في آيات عديدة منها قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًاۗ﴾ [سورة البقرة:273]، وقوله سبحانه: ﴿وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْۖ﴾ [سورة النساء: 6]، وقوله عز من قائل: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [سورة النور: 33]، وكذا قوله تعالى: ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتِۭ بِزِينَةٍۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة النور: 60].

إذ الجامع بين هذه الآيات، أنها تتحدث جميعا عن معنى كلي يجمعه جذر (ع ف ف)،

---

(1) المعجم الفلسفي، مجمع اللغة العربية، الهيئة العامة لشؤون المطابع ص 189.

لنا أن نسميه عفة أو استعفافا أو تعففا؛ ثم إن ذلك المعنى الكلي قد حدد سماته وخصائصه ضمن هذه الآيات، وضمن غيرها من الآيات القرآنية الأخرى، التي يمكن أن نعثر عليها ضمن القرآن، وإن لم تتضمن مادة (ع ف ف)، ولكنها تتضمن معناه.

وبناء عليه، فإن (العفة) من حيث كونها مفهوما، له وجود حقيقي في القرآن، من خلال السمات والخصائص الدالة عليه والمبثوثة في الآيات القرآنية، وله وجود لغوي في شكل المصطلح الدال عليه.

ووظيفة الباحث أن يصوغ تعريف العفة عبر تجميع تلك السمات والخصائص، ويكون التعريف دقيقا بقدر استجماعه لتك السمات والخصائص المميزة للمفهوم.

2) مركزية المفاهيم القرآنية

لا شـــك أن التدبر العميق من حيث كونه ســـبيلا للفهم الســـليم لكلام رب العالمين، مهمة العلماء الراســخين من جهتي فهم مقاصــد الكلام أولا، ثم فهم مقاصــد الأحكام ثانيا، ولا شك أن الجهتين معا مؤسستان على ضبط دلالات المفاهيم القرآنية، من حيث كونها مصـــطلحات لا تقبل التغيير ولا التبديل، في ذاتها مواقع وأحجاما، وفي نســـقيتها بُنًى وعلاقات[1].

ذلك أن المفاهيم القرآنية «ليست معزولة عن بعضها بعضا، وليست منثورة كيفما اتفق، وإنما هي فصوص في العقد الفريد للإسلام منظومة نظما بديعا رائعا في نسق؛ إذا نظر إليها، وقد انتظمت أفقيا، تجلى نسقها التصوري الشامل الكامل: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [سورة هود:1]، ﴿مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ﴾ [سورة الأنعام:38]، ﴿وَكُلَّ شَيۡءٖ فَصَّلۡنَٰهُ تَفۡصِيلٗا﴾ [سورة الإسراء: 12]، وإذا نظر إليها وقد تتابعت تاريخيا في التنزل تجلى نسقها المنهاجي التنزيلي المتكامل: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا﴾ [سورة الفرقان: 32-33]، وهي في الحالين معا لا تقبل المس بما يخل بنسقيتها: لا

(1) يراجع لمزيد من التوسع محاضرات في مقاصد الشريعة لأحمد الريسوني، ص (9-22)

تقبل زحزحة في المواقع أو تغيرا في الترتيب، ولا تقبل تغييرا للأحجام أو الألوان، وإلا صار الأمر إلى شيء آخر غير الإسلام. وقد دخل من هذا الباب على المسلمين عبر التاريخ الطويل العريض شر طويل عريض من التصور والتنزيل معا. ولإعادة الأمور إلى نصابها، لا بد من إعادة مفاهيم الوحي بعد تحصيلها إلى مواقعها وأحجامها، وإلا تشوه الدين، وازداد فساد المسلمين"[1].

والتدبر بما هو ربط للعلاقات، واستحضار للتشابكات، ونظر في الصلات بين القضايا المتفرقة قصد تحصيل الاعتبار من مجموعها، **هو في حقيقته عملية لتركيب المفاهيم من خلال تجميع حقائقها الجزئية.**

ولأن القرآن الكريم «مجموعة من المفاهيم إذا حصلت، حصلت كليات الدين، وإذا لم تفقه لم يفقه الدين» [2]، فإن على المفسر لكلام رب العلمين أن يساير ذلك، وإلا كان آتيا بشيء آخر غير التفسير وكان متكلما في شيء آخر غير القرآن. ذلك «إنه يجب أن يفسر كلام المتكلم بعضه ببعض ويؤخذ كلامه هاهنا وهاهنا، وتُعرف ما عادته يعنيه ويريده بذلك اللفظ إذا تكلم به، وتعرف المعاني التي عرف أنه أرادها في موضع آخر، فإذا عُرف عُرفُه وعادته في معانيه وألفاظه، كان هذا مما يستعان به على معرفة مراده. وأما إذا استعمل لفظه في معنى لم تجر عادته باستعماله فيه، وتُرك استعماله في المعنى الذي جرت عادته باستعماله فيه، وحمل كلامه على خلاف المعنى، الذي قد عرف أنه يريده بذلك اللفظ بجعل كلامه متناقضا، وترك حملِه على ما يناسب سائر كلامه، كان ذلك تحريفا لكلامه عن موضعه وتبديلا لمقاصده وكذبا عليه، فهذا أصل من ضل في تأويل كلام الأنبياء على غير مرادهم» [3].

وبناء على ذلك فإن **"فهم القرآن لا يكون صحيحا، إلا بالجمع بين الآيات المتقابلة**

---

(1) دراسات مصطلحية الشاهد البوشيخي ص (99-100)

(2) المرجع نفسه، ص99.

(3) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لتقي الدين أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية ت728هـ (390/4).

في الموضـــوع الواحـد، الـذي يختلف التعبير فيهـا باختلاف الوجوه والاعتبارات، التي ضـــلت الفِرق بنظر كل منها إلى إحداها دون الأخرى مطلقا، أو جعلها ما وافق مذهبها أصلا يرد غيره إليه بالتأويل قريبا كان أو بعيدا [1].

إن معرفة حقائق المصطلحات الشرعية، هو من معرفة حدود الله؛ «لأن المعاني التي تتضمنها الألفاظ هي حدود، فحينما يستعمل الشرع لفظا معينا بمعنى معين، فمعناه أن القصور عن هذا المعنى هو قصور أو تقصير عن حدود الله، وتجاوزه بالزيادة فيه، هو أيضا تجاوز وتعد لحدود الله. ولذلك قال الله تعالى: ﴿ٱلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا وَأَجۡدَرُ أَلَّا يَعۡلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ [سورة التوبة: 97]، فإذا لا بد من معرفة الدلالات الشرعية والمعاني الشرعية، المقصودة وليست الملفوظة، فكثيرا ما يكون المعنى المقصود على خلاف الظاهر الملفوظ. فتدبر الملفوظ بحثا عن المقصود، إنما هو تعرف على حدود الله تعالى، ووقوف على حدود الله» [2]

فـإذا كـانـت «المعرفـة بـالألفـاظ المفردة هي الخطوة الأولى في فهم الكلام. وبعض الجهل بالجزء يفضي- إلى زيادة جهل بالمجموع. وإنما يسـلم المرء عن الخطأ إذا سـدّ جميع أبوابه، فمن لم يتبين معنى الألفاظ المفردة من القرآن، أغلق عليه باب التدبر وأشـكل عليه فهم الجملة، وخفي عنه نظم الآيات والسـورة... ثم سـوء فهم الكلمة ليس بأمر هين، فإنه يتجاوز إلى إســاءة فهم الكلام وكل ما يدل عليه من العلوم والحكم، فإن أجزاء الكلام يبين بعضـها بعضـاً للزوم التوافق بينها»[3]. ذلك أن «تحصـيل معاني مفردات ألفاظ القرآن في كونه من أوائل المعاون لمن يريد أن يدرك معانيه، كتحصيل اللِّبن في كونه من أول المعاون في بناء ما يريد أن يبنيه»[4].

وبناء على ذلك فإن إدراك معاني القرآن الكريم لا يكون على الوجه الأكمل إلا «**بمراعاة**

---

(1) تفسير المنار للشيخ محمد رشيد رضا (10/ 179)

(2) محاضرات في مقاصد الشريعة، احمد الريسوني، ص 11

(3) مفردات القرآن. عبد الحميد الفراهي، ص 4-5.

(4) المفردات في غريب القرآن لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (ت: 502هـ) ص: 54.

مقاصد القرآن الكريم مما جاء لأجله، ومعرفة اصطلاحه في إطلاق الألفاظ» [1].

إنه لا سبيل للفهم الصحيح للوحي، إلا عبر فهم حقائق الألفاظ المفردة، التي تضمنها القرآن بما هي مصطلحات ثابتة المفاهيم، تُستدعى في كل حين لتجلية المراد، ولا يُتعسف في فهمها بالإسقاطات الناجمة عن معتقد سابق، أو عن التزام مذهبي مقيد، أو عبر حملها على أول ما يتبادر إلى الذهن من مدلولات اللغة العامة.

فقد ثبت أن مثار الغلط في فهم القرآن الكريم راجع لنقيصتين:

(إحداهما): حمل ألفاظ القرآن على معان اعتقدوها لتأييدها به - أقول: كجميع مقلدة الفرق والمذاهب في الأصول والفروع المتعصبين لها، فإنهم قد جعلوا مذاهبهم أصولا والقرآن فرعا لها يحمل عليها، وهذا شر أنواع البدع وتفسير القرآن بالرأي المذموم في الحديث.

(ثانيتهما): التفسير بمجرد دلالة اللغة العربية من غير مراعاة المتكلم بالقرآن، وهو الله - عز وجل -، والمنزل عليه والمخاطب به"[2].

ولقد كان «سوء الفهم عن الله ورسوله أصل كل بدعة وضلالة نشأت في الإسلام، بل هو أصل كل خطأ في الأصول والفروع(...)؛ وهل أوقع القدرية والمرجئة والخوارج والمعتزلة والجهمية والرافضة، وسائر طوائف أهل البدع، إلا سوء الفهم عن الله ورسوله» [3]. ذلك أن الدين في حقيقة أمره إنما هو نسقٌ مرصوص من المفاهيم المكتنزة في مصطلحات «أصلها في كتاب الله وبيانها في السنة، من تمكن من تلك المفاهيم ومن نسقها العام تمكن من الصورة الصحيحة للدين ومن تشوه لديه شيء منها أو منه تشوهت لديه الصورة العامة لهذا الدين» [4].

وفقه النسق ليس كفهم الكلام الجاري لأنه يحتاج إلى تدبر وأخذ قرائن وسياقات

---

(1) التحرير والتنوير للشيخ محمد الطاهر بن عاشور (42/1).

(2) تفسير المنار لمحمد رشيد رضا (1/23-24).

(3) الروح في الكلام على أرواح الأموات والأحياء بالدلائل من الكتاب والسنة لابن قيم الجوزية، ص 63.

(4) دراسات مصطلحية للشاهد البوشيخي، ص 102.

ولوازم، حتى يفهم المعنى ولا يُنقص منه شيء ولا يُزاد فيه شيء.

المبحث الثاني: مسالك القصص القرآني في بناء المفاهيم القرآنية.

تعددت أغراض القصـــص القرآني وتنوعت مقاصـــده، وإذ ليس بنا في هذا المقام أن نفصـــل في جزئيات مقاصـــد القصـــص القرآني، لأن ذلك عمل قد قام به فئام عريض ممن تكلموا فيه، فلنلو العنان إلى مقصد عام نراه ملاك تلك المقاصد كلها وعنه تفرعت أفنانها، وإلى موئله ترجع فروعها.

إن ملاك مقاصد القصص القرآني فيما نعتقد، إنما هو بناء التصورات الصحيحة، التي عليها مدار الفهم الصحيح للوجود الإنساني وغايته. إنه إعادة تشكيل لرؤية الإنسان للكون وفق معايير الوحي، وهو مقصـــد مطابق للمقصـــد العام من القرآن الكريم من جهة كونه كتاب دعوة وإصلاح وتربية التي يجمعها جميعا وصف (الهدى).

ولأن رؤية الإنســـان للكون إنما تتأســـس على بنية مفاهيمية يكتســـبها الإنســـان من مجتمعه نتيجة التعلم، ونتيجة التفاعل مع موجودات البيئة المحيطة، فإن المدخل لأي تغيير في تلك الرؤية ينبغي أن يتجه رأسا لتلك البنية المفاهيمية.

ولقد يبدو، لصاحب النظر العَجِل، أن الكشـف عن سـبل ذلك التغيير وسـيرورته أمر سـهل ميسـور، **بيد أن التدبر العميق في النسـق المفاهيمي القرآني وإدراك مدى التعقيد الذي تنطوي عليه النفس الإنسانية يوقف على أن الأمر في غاية التعقيد والتركيب.**

وليس الأمر مقصـورا على تعقد النسـق المفاهيمي للمصـطلحات القرآنية، من جهة كونه كلا مجموعا، بل هو راجع أيضـــا إلى مقدار النقلة التي أحدثتها لغة القرآن الكريم، في مدلولات الكلمات العربية الدارجة على لســـان العربي، بأن نقلتها من حدود ما تكتنزه من المعارف البشـــية القاصرة إلى المعرفة المطلقة الضـــاربة في عمق الغيب، فانتقلت من الكلمات النافدة إلى الكلمات التي لا تنفد أبدا.

ثمة إذا ثلاثة مســـتويات على الأقل، ينبغي أن تخضـــع للكشـــف والتجلية، لإظهار أثر القصـــص القرآني في بناء المفاهيم القرآنية، وإحداث النقلة النوعية في مدلولات المفردات

العربية، من حيث هي كلمات محدودة الدلالة محدودة الأثر، إلى كونها مصطلحات مكتنزة لمفاهيم عالية الدقة، بليغة الأثر.

- **أولها: تأسيس حقيقة المفهوم،**
- **ثانيها: تثبيت الطبيعة الامتثالية للمفهوم القرآني.**
- **وثالثها: بناء النسق المفاهيمي القرآني**

هي إذا ثلاثة مستويات ظاهريا، غير أنها ليست مستويات منفصلة، إذ فصل الطبيعة الامتثالية للمصطلح القرآني عن بنائه المفهومي، غير ممكنة من جهة أن الحمولة الدلالية للمفهوم القرآني، إنما تقصد تأسيس العمل بمقتضاها، كما أن بناء النسق المفاهيمي أيضا غير منفصل أبدا عن بناء المفهوم، بل هما متداخلان تداخلا شديدا، بالنظر إلى أن بناء أي مفهوم لا يتم البتة بمعزل عما يتعالق معه، ولا يمكن تصور ذاته تصورا حقيقيا بمعزل عن ما يحيط به من المفاهيم، التي تتكامل معه في تشكيل النسق العام، ونحن إذ نفصل بينها، إنما نفعل ذلك إجرائيا قصد تبين كل مسلك على حدة، تسهيلا للتناول، وتيسيرا للتبين. لأجل ذلك سنفرض لكل مسلك مطلبا خاصا.

ولأن ما نرومه واسع عريض، يحتاج لكثير من البسط والتمثيل قصد الإقناع، والمقام لا يتسع لذلك، فإننا سنكتفي بإيراد لمع يحصل منها المقصود على وجه فيه كثير من الإجمال، وسنترك مجال التفصيل لمناسبة قادمة بحول الله عسى أن تكون قريبة.

المطلب الأول: القصص القرآني وتأسيس حقائق المفاهيم القرآنية.

إن مفاهيم القرآن من جهة كونها كلمات، قد تبدو في ظاهرها مجرد مفردات عربية تداولها العربي في كلامه شعرا ونثرا وخطابة، ولكن عند سبر أغوارها، وعند ملاحظة عظيم أثرها، تبدو وكأنها كلمات منبتة الصلة عن جنس ما كان يروجه العربي من كلام.

لقد انتقلت فجأة تلك الكلمات المحكومة بأنطولوجيا سكونية، إلى فضاء رحب يعج بالحركة والفعل، بعد أن صارت تلك الكلمات قنوات لنقل العلم إلى الإنسان. "**ولأن العلم علم الله أولا، والكلمات - بغض النظر عن أصلها - كلمات الإنسان من حيث هي عرف**

واستعمال قبل نزول القرآن، فقد ضاقت عن مضمون قصد الشارع، من حيث هي كذلك، فما كان عليها إلا أن ترجع إلى ربها طوعا أو كرها، فترقى دلالتها من مقام كلمات الإنسان النافدة، إلى مقام (كلمات الله) التي لا تنفد أبدا!» [1]

لقد خضعت بمقتضى ــ ذلك كلمات العربية ذات الأفق المحدود في الزمان والمكان تبعا لمحدودية مدارك أصحابها، إلى كلمات سامية، تختزن في طياتها مفاهيم عظيمة جدا، تجاوزت حدود الزمان والمكان والإنسان. ولم يكن ذلك الانتقال بقطيعة تامة بين الدلالة الأصلية والدلالات التي جاء بها، حتى إن العرب أنفسهم وقد استشعروا تلك الدقة في تصوير المعاني، وهم أرباب البلاغة والفصاحة، لم يملكوا إلا أن يسلموا بهذا الانتقال المعجز، إذ لو لم يكن كذلك لغمزوه من جهة كونه قد خرج عن حد عربيتهم، فلما لم يدَّعوا ذلك علمنا أن انتقال دلالة المفردات العربية، لم يكن انتقالا منبتا، بل انتقالا إلى أفق أسمى تتيحه العربية، غير إنه لا يستطيعه بشر.

ولقد تولى القصص القرآني دورا كبيرا في ذلك الانتقال، من خلال ما رسمه من مشاهد وحوارات، كان من أبرز مقاصدها مساءلة التمثلات، وتصحيح التصورات، وإعادة بناء مفاهيم الكلمات.

ولنضرب لذلك مثالا أول بكلمة (الله) يقول توشيهيكو إيزوتسو، Toshihiko Izutsu "إن اسم الله على سبيل المثال لم يكن مجهولا بتاتاً لدى العرب الجاهليين، وذلك ما تؤكده حقيقة أن هذا الاسم لا يظهر في الشعر الجاهلي وفي أسماء الأعلام المركبة فحسب، بل في النقوش القديمة أيضاً. وإن بعض الناس أو بعض القبائل في الجزيرة العربية على الأقل كانت تؤمن بإله يُدعى «الله»، حتى إنهم كانوا كما يبدو يذهبون إلى حد الاعتراف بكونه خالق السماء والأرض، كما يظهر ذلك بسهولة من بعض الآيات القرآنية. وفي أوساط أناس من هذا النوع فإن «الله» قد منح المرتبة العليا في التراتبية الإشراكية، أعني الأهلية ليكون رب البيت، أي الكعبة في مكة، بينما نظر إلى الآلهة الأخرى كعدد كبير من الوسطاء بين هذا الإله الأسمى

---

(1) المصطلح الأصولي لفريد الأنصاري ص 12.

وبين البشر. وينعكس هذا التصور للتراتبية الإلهية بوضوح في القرآن. ففي سورة الزمر يقول بعض المشركين في ما يحكيه عنهم القرآن: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [سورة الزمر: 3]" (1). ولكن هذا التصور العربي لذات الله سبحانه البعيد كليا عن وحدانيته ومطلق ربوبيته وألوهيته، سرعان ما تعرض لاهتزاز عنيف أصاب مشركي العرب بالذهول، ودفعهم إلى مجابهة ذلك بكل ما أوتوا من قوة، مستشعرين خطورة ما يقارعهم به القرآن من زيف تلك الآلهة المدعاة، ولقد نقل القرآن الكريم ما كان يدور في نواديهم من التداول في الأمر والتواصي بالمصابرة، ومحاولة بناء الحجة المضادة كما في قوله تعالى:﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّن ذِكۡرِيۚ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾ [سورة ص: 2-8].

ولقد تولى القصص القرآني مهمة تزييف تلك الادعاءات وتلك الحجج الواهية، عن طريق نقل ما دار بين أنبياء الله وبين أقوامهم من المناظرات في ذات الموضوع، من ذلك مثلا مناظرة إبراهيم الخليل مع قومه في شأن أحقية آلهتهم بالعبادة كما في قوله تعالى ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ مِن قَبۡلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ قَالُواْ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ قَالَ لَقَدۡ كُنتُمۡ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ قَالَ بَل رَّبُّكُمۡ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ مُدۡبِرِينَ فَجَعَلَهُمۡ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرٗا لَّهُمۡ لَعَلَّهُمۡ إِلَيۡهِ يَرۡجِعُونَ قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا فَتٗى يَذۡكُرُهُمۡ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبۡرَٰهِيمُ قَالُواْ فَأۡتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعۡيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡهَدُونَ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلۡتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [سورة الأنبياء: 51-67].. وهو حوار طويل سقته ههنا للتنبيه على الكيفية التي تولى بها القصص القرآني بناء المفاهيم والإقناع بها، ولقد كان الحوار حيا ينقل المشهد بدقة متناهية، يصور

---

(1) الله والإنسان في القرآن-علم دلالة الرؤية القرآنية للعالم، توشيهيكو إيزوتسو، ص (35-36)

للعربي يومئذ حال قوم يدعون مثل ما يدعون ويعتقدون من الزيف مثل ما يعتقدون ويحتجون بنفس الحجج التي بها يحتجون. ولك أن تتصور وقع مثل هذه الحوارات على العرب يومئذ، كيف تلزمهم الحجة، وتقرّعهم تقريعا لا يملكون معه إلا المكابرة، والتواصي بالإعراض عن القرآن خوف الهزيمة كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾ [سورة فصلت: 26].

ولنلق نظرة على مفهوم آخر تردد كثيرا في ثنايا القصص القرآني؛ ألا **وهو مصطلح التمكين،** الذي يحيل في معناه اللغوي العام على المكان، وعلى التمكن منه، وعلى ما يقرب منه من الموضع المرموق في المجتمع. وقد كان التمكن والمكانة محور الصراع بين سادة العرب، يتوارثه الناس كما يتوارثون الأموال، وتبذل فيه المقدرات والمهج، وقد تنشب من أجله الحروب الطاحنة المستمرة. لقد كانت النواة المنطقية لمفهوم التمكن والتمكين دائرة على امتلاك أسبابه، وليست أسبابه في عرف العرب يومئذ سوى القوة بمختلف أنواعها، قوة العشيرة والعصبة وقوة المال، ولكنه في القرآن الكريم قد سحبت منه كل تلك السمات وصار التمكين عطاء ربانيا لا يناله إلا من حقق أسبابه بغض النظر عن موقعه في السلم الاجتماعي وفق المعايير المادية. وجاء دور القصص القرآني ليعرض نماذج من أشكال التمكين التي من الله بها على من شاء من عباده اصطفاء منه واختيارا لينصّبهم قدوات صالحة لكل من أراد أن يكون ذا مكانة عند الله، ووفق ميزانه، مبينا السمات التي تحلوا بها ليكون ذلك التمكين وساما يأخذونه بعد أن حققوا أسبابه، وليعرض أيضا نماذج من سلب التمكين من أناس وأمم بعد أن تنكبوا الصراط المستقيم، وحصلوا من صفات السلب ما استحقوا به أن يرفع عنهم الله ذلك التمكين، والقرآن إذ يعرض تلك النماذج عبر القصص القرآني، فإنه لا يفتأ ينوه بما حيّز التمكين أو بما ضيّع، تأمل معي على سبيل المثال قول الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [سورة يوسف: 56]، وقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰهُمۡ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمۡ فِيهِ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ سَمۡعٗا وَأَبۡصَٰرٗا وَأَفۡـِٔدَةٗ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم مِّن شَيۡءٍ إِذۡ كَانُواْ يَجۡحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ [سورة الأحقاف: 26]، **بل إنه يدعو قارئه إلى أن يعرض نفسه على تلك**

النماذج، ليرى موقعه من الله قربا وبعدا، وليدرك من خلال ذلك ما هو ممكَّن فيه هل حقق أسباب الاحتفاظ به أم يوشك أن يرفعه الله عنه كما في قوله سبحانه: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَا لَمۡ نُمَكِّن لَّكُمۡ وَأَرۡسَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡهِم مِّدۡرَارٗا وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَنۡهَٰرَ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمۡ فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ وَأَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ﴾ [سورة الأنعام: 6]. قال سيد قطب في معرض التأسيس للدرس المستفاد من القصة في فواتح الأعراف "يحتوي هذا الدرس على استعراض ميثاق الله مع قوم موسى، عند إنقاذهم من الذل في مصر ثم نقضهم لهذا الميثاق وما حاق بهم نتيجة نقضهم له وما أصابهم من اللعنة والطرد من مجال الهدى والنعمة.. وعلى استعراض ميثاق الله مع الذين قالوا: إنا نصارى. ونتيجة نقضهم له من إغراء العداوة بين فرقهم المختلفة إلى يوم القيامة. ثم على استعراض موقف اليهود أمام الأرض المقدسة، التي أعطاهم الله ميثاقه أن يدخلوها، فنكصوا على أعقابهم وجبنوا عن تكاليف ميثاق الله معهم. وقالوا لموسى «فاذهب أنت وربك فقاتلا، إنا هاهنا قاعدون»... ويتخلل هذا الاستعراض للمواثيق ومواقف أهل الكتاب منها، كشف لما وقع في عقائد اليهود والنصارى من انحراف نتيجة نقضهم لهذه المواثيق التي عاهدهم الله فيها على توحيده والإسلام له في مقابل ما أعطاهم من النعم، وما ضمن لهم من التمكين فأبوا ذلك كله على أنفسهم فباءوا باللعنة والفرقة والتشريد.."[1]

المطلب الثاني: القصص القرآني وتأسيس الطبيعة الامتثالية للمفاهيم القرآنية.

لا شك أن كلمات الله عز وجل ليست ككلمات غيره سبحانه، من جهة كون كلمات الله قضاء وقدرا ضاربة في أعماق الغيب، ومن حيث كونها أوامر وابتلاءات؛ أما الأولى فمن جنس قوله تعالى ﴿إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ﴾ [سورة النساء: 171]؛ فعيسى عليه السلام ذو الميلاد المعجز إنما هو كلمة من كلمات الله، وكذلك أفعال الله كلها أساسها الكلمات.

وأما الثانية، والتي عليها المدار فيما نحن فيه فمن جنس قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ

(1) في ظلال القرآن لسيد قطب (2/ 856)

رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ﴾ [سورة البقرة: 124].

إذ صـــارت كلمات الله ابتلاء أي تكليفا يوجب الامتثال، اســـتحق به إبراهيم عليه السلام أن يكون أمة وحده، وأن ينصب مثالا للعبد الصالح الذي تتردد قصته في كل أرجاء القرآن من حيث إنه نجح في القيام بكلمات الله على ما يحبه الله ويرضاه.

وعلى ذات الوزان ينبغي التعامل مع كلمات الله في القرآن الكريم، إذ ينبغي اليقين أن معانيها في الحقيقة تكليفات ابتلائية، يجب على المسلم أن يكابدها وأن يمتثل لها. ذلك أن إقامة معنى اللفظ في كلام الناس، قد يكفي فيه الإتيان على جميع مكوناته الدلالية، صفات وعلاقات وضمائم وغير ذلك، ولكن اللفظ القرآني من حيث كونه كلمات الله مختزنة لأمره ونهيه، واجب على المتعامل معها أن يستحضر أنه أول المخاطبين بذلك، فوجب عليه أن يكون أول الممتثلين.

ولعل استحضار هذه الخاصية، من شأنه أن يلقي بظلاله على الباحث في المصطلح القرآني، من حيث إن فعله تدين، يجب أن يراعي مقاماته، وأن يحذر أن يناله الذم الوارد في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [سورة الجمعة: 5].

لقد أحدثت كلمات القرآن من حيث هي مفاهيم تصوغ التصور وتضبط الرؤية أولا، ومن حيث هي تكليفات عملية ينبغي أن يُصاغ الوجدان وفقها، وأن يُضبط السلوك وفق مقتضياتها ثانيا، نقلة لا مثيل لها على الإطلاق في شعور المسلم، الذي لم يكن سوى ذلك العربي البسيط الذي لا يهمه من أمر معاشه أكثر مما كان يطلب يومئذ، فصار بها كائنا آخر ذا رسالة وجودية، يقيمها في ذاته أولا، ويسعى لنشرها في العالمين ثانيا. وإنه لم يكن للنبي ﷺ من وسيلة يربي بها هؤلاء سوى ما بين يديه من كلمات الله، كما يبين ذلك القرآن نفسه في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَۖ﴾ [سورة النمل: 91-92]. وقوله سبحانه: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي

ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ [سورة آل عمران: 164]، إذ انحصرت مهمة النبي ﷺ في الدعوة للقرآن والتزكية به، وإنما كان السر في ذلك كل السر أن يصل الإنسان إلى تمام الامتثال تحقيقا لكمال العبدية، لذلك نجد احتفاء كبيرا جدا بمفهوم العبدية في القصص القرآني.

ذلك أن مفهوم العبد، الذي كان في العربية عنوانا على الاستكانة والمذلة، وعلى فقدان كل ما له صلة بالكرامة، انتقل في دلالات القرآن عامة والقصص القرآني خاصة إلى أعز ما يطلب، في استكانة الإنسان لربه، وخضوعه لإرادته المطلقة، وذوبان ذاته في مراد الله سبحانه، وتأمل كيف عرض القرآن الكريم لنماذج من البشر حققوا تمام العبدية، فسيقت قصصهم في القرآن كله وحُلوا بالعبدية كأسمى وسام يتقلدونه، كما قوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٍۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا﴾ [سورة الإسراء: 3]، وفي قوله سبحانه: ﴿فَوَجَدَا عَبۡدٗا مِّنۡ عِبَادِنَآ ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا﴾ [سورة الكهف: 65]، وقوله تعالى: ﴿كٓهيعٓصٓ ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ [سورة مريم: 1-2]، وقوله: ﴿قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا﴾ [سورة مريم: 30]، وقوله عز وجل: ﴿وَوَهَبۡنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيۡمَٰنَۚ نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [سورة ص: 30]، وقوله سبحانه: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ﴾ [سورة ص: 41]، وقوله أيضا: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا عَبۡدٌ أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ وَجَعَلۡنَٰهُ مَثَلٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [سورة الزخرف: 59]...

ويزداد مفهوم العبدية رونقا حينما يصبح عنوانا على تساوق الكون وانسجام المؤمن مع موجوداته، وعدم انبتاته؛ ذلك أن «موكب الإيمان الذي يسير في مقدمته رسل الله الكرام، مسبوق في السياق بموكب الإيمان في الكون كله. وإن الدينونة لهذا الإله، الذي خلق السماوات والأرض، والذي استوى على العرش، والذي يحرك الليل ليطلب النهار، والذي تجري الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره، والذي له الخلق والأمر. إن الدينونة لهذا الإله وحده هي التي يدعو إليها الرسل كافة.. والمنهج القرآني يكثر من الربط بين عبودية هذا الكون لله، ودعوة البشر إلى الاتساق مع الكون الذي يعيشون فيه، والإسلام لله الذي أسلم له الكون كله، والذي يتحرك مسخراً بأمره. ذلك أن هذا الإيقاع بهذه الحقيقة الكونية كفيل بأن يهز القلب البشري هزاً، وأن يستحثه من داخله على أن ينخرط في سلك العبادة

المستسلمة فلا يكون هو وحده نشازاً في نظام الوجود كله! إن الرسل الكرام لا يدعون البشرية لأمر شاذ إنما يدعونها إلى الأصل الذي يقوم عليه الوجود كله، وإلى الحقيقة المركوزة في ضمير هذا الوجود.. وهي ذاتها الحقيقة المركوزة في فطرة البشر. والتي تهتف بها فطرتهم حين لا تلوي بها الشهوات، ولا يقودها الشيطان بعيداً عن حقيقتها الأصيلة»(1)... إنه معنى عظيم قد تولى القصص القرآني بيانه وتأكيده عبر تجسيد نماذج منه، إما عبر المجادلات التي حدثت بين الأنبياء وأقوامهم، أو عبر تأكيده من خلل بيان كون عامة المخلوقات مربوبة لله، سارٍ عليها حكمه، لا تملك من أمر نفسها شيئا، ولا يسعها إلا أن تخضع لأمر الله الكوني (كن فيكون)، ومن ذلك مثلا بعض ما ورد في مقاطع من قصة إبراهيم عليه السلام من محاورته لقومه، في شأن ما يعبدون من دون الله، وما حدث لإبراهيم مع النار التي أمرت أن تكون بردا وسلاما على إبراهيم، فما كان منها إلا أن تستجيب لأمر ربها، وما كان من مجادلة إبراهيم للنمرود وإفحامه بسريان سلطان الله على الشمس، إذ يأتي بها من المشرق فلا تملك إلا أن تطيع... وغير ذلك كثير مما هو مبثوث بين ثنايا كل القصص الوارد في القرآن الكريم.

المطلب الثالث: القصص القرآني وبناء النسق المفاهيمي للقرآن الكريم.

سبق البيان أن القرآن الكريم نسق من المفاهيم، تُشكِّل في صورتها المركبة الصورة الكاملة للدين، كما تشكل في سيرورة تشكلها، التنزيل العضوي للدين في واقع المسلمين، ذلك أن المفاهيم القرآنية: «ليست معزولة عن بعضها بعضا، وليست منثورة كيفما اتفق وإنما هي فصوص في العقد الفريد للإسلام، منظومة نظما بديعا رائعا في نسق؛ إذا نظر إليها، وقد انتظمت أفقيا، تجلى نسقها التصوري الشامل الكامل: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [سورة هود:1]، ﴿مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ﴾ [سورة الأنعام: 38]، ﴿وَكُلَّ شَيۡءٖ فَصَّلۡنَٰهُ تَفۡصِيلٗا﴾ [سورة الإسراء: 12]، وإذا نظر إليها وقد تتابعت تاريخيا في التنزل تجلى نسقها المنهاجي التنزيلي المتكامل: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ

---

(1) في ظلال القرآن لسيد قطب (1307/3)

ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا﴾ [سورة الفرقان: 32-33]، وهي في الحالين معا لا تقبل المس بما يخل بنسقيتها: لا تقبل زحزحة في المواقع أو تغيرا في الترتيب، ولا تقبل تغييرا للأحجام أو الألوان، وإلا صار الأمر إلى شيء آخر غير الإسلام. وقد دخل من هذا الباب على المسلمين عبر التاريخ الطويل العريض شر طويل عريض من التصور والتنزيل معا» [1].

ذلك أمر بين واضح في القرآن كله، لكن السؤال ههنا كيف أسهم القصص القرآني في تشكيل هذا النسق، وما الذي يلزم متدبر ذلك القصص مراعاته أثناء التعامل معه؟

وقبل أن نسوق ما عنّ لنا في هذه المسألة من الإلماعات، التي قد تبدو أنها خواطر يغلب عليها الانطباع إلى حد كبير، في غياب الاستفاضة في البيان، والتفريع الذي لا يسمح به المقام، فإننا ملزمون بالاتفاق أولا على بعض المنطلقات، التي من شأن تأملها أن يقود حقا إلى التسليم بها على الأقل كأطر عامة موجهة للتعامل معها.

فلنتفق أولا على أن القصص القرآني **يشكل بنية عضوية في حد ذاته (أي نسقا)**، تحتاج تدبرا عميقا قصد الكشف عن الرؤية الكامنة وراءه، والتي تحكم إيراده في مواضعه من جهة وبالقدر الذي يورد به، تفصيلا أو إجمالا، من جهة ثانية، وبالجانب الذي يذكر من أحداث القصة من جهة ثالثة.

ولنتفق ثانيا على أن تكرار ورود القصة في مواضع مختلفة، لم يكن عبثا، وإنما حكمته مقاصد عدة لعل من أبرزها، مناسبة ما يورد منها للسياق الذي وردت فيه، وفي ذلك قال ابن عاشور: «**وفوائد القصص تجتلبها المناسبات، فتذكر القصة كالبرهان على الغرض المسوقة هي معه، فلا يعد ذكرها مع غرضها تكريرا لها لأن سبق ذكرها إنما كان في مناسبات أخرى**» [2]

ولعل أحد المداخل الممكنة للكشف عن الرؤية القرآنية، التي تحكم إيراد القصص في

---

(1) دراسات مصطلحية، للشاهد البوشيخي ص 99-100

(2) التحرير والتنوير للشيخ محمد الطاهر بن عاشور (1/ 68)

محاله، والتي تحكم تكرار أجزاء من القصة في محال ورودها، وعلى ما يورد من تلك القصة **يمر عبر الكشف عن النسق المفاهيمي الذي يروجه،...**، ذلك أن المفاهيم من حيث هي كليات ناظمة للفكر، تشكل بالضرورة في تفاعلها تكاملا وتداخلا، أو تمايزا مكتنزا لمعالم الرؤية التي ينطلق منها، في تصحيح التصور ثم تصحيح السلوك.

إن مصطلحات كالاستخلاف والاصطفاء والابتلاء والعبرة، والاهتداء والتوحيد، والاستجابة والإنابة والتقوى، والفجور والكفر والاستكبار والعلو والجهل، وسنة الله والعمران، والاستدراج،.... وهلم جرا من المصطلحات القرآنية الرائجة في القصص القرآني، والمكتنزة لمفاهيم كبيرة شديدة التعقيد، والمتضمنة لكثير من القضايا المتشابكة، لا يمكن بحال أن تشكل جزرا معزولة، بل هي نسق منتظم، لا يمكن أن تتصور التصور التام المثمر للرؤية الصحيحة إلا عبر فك تشابكها، وإدراك الصلات بينها وبناء شبكاتها العلائقية.

والمقطوع به أن من أبرز مقاصد القصص بناء تلك الشبكات المفهومية بما هي أنساق، لا يمكن تصور بعضها إلا ضمن موقعه، وانظر كيف استقر هذا المعنى العميق في نفوس من علت مرتبتهم في الفهم فصاروا ناطقين بمدلولات القرآن على البديهة، من غير حاجة إلى كثير بيان، فقد سأل رجل الشافعي فقال يا أبا عبد الله **"أيما أفضل للرجل أن يمكن أو يبتلى فقال الشافعي لا يمكن حتى يبتلى"** قال ابن القيم معلقا: فإن الله ابتلى نوحا وإبراهيم وموسى وعيسى- ومحمدا صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فلما صبروا مكنهم فلا يظن أحد أنه يخلص من الألم البتة! وهذا أصل عظيم فينبغي للعاقل أن يعرفه»[1].

يقول الدكتور عبد العزيز البطيوي في معرض بناء متتالية فقه السنن، بعد كلام طويل بين فيه الصلات بين مفاهيم تلك المتتالية: «ويمكن صياغة المتتالية الآتية: لا توحيد بلا تكليف، ولا تكليف بلا استخلاف، ولا استخلاف بلا عمران، ولا عمران بلا سنن وبقدر ما يمثل التوحيد أساس الاستخلاف ومنهجه الذي يحققه، يمثل هذا الأخير الأثر العملي

---

(1) الفوائد لابن القيم (ص: 208)

والبعد الإنسـاني للتوحيد. فالاسـتخلاف والتوحيد حقيقتان متكاملتان متوازيتان لا يفهم أحدهما في غياب الآخر»[1].

نعم تلك حقيقة لا جدال فيها، وهي في القرآن كله واضـحة بينة، ولكنها في خصـوص القصص تحتاج إلى مزيد جهد، وفضل بيان. ووجه تخصيص القصص بالذكر ههنا، أن كل تلك المصـطلحات راجت ضـمن القصـص القرآني وبكثرة ملفتة، مما ينبئ عن أسرار كامنة وراء تلك الكثرة، ومنبئ عن مسلك من مسالك تناول القصص القرآني قد يكون مغفولا عنه رغم وجاهته.

والذي من شانه أن يغري بذلك إضافة إلى قضية الورود، هو مسلك القصص نفسه، في بناء مفاهيم تلك المصـطلحات كما تم التنبيه على بعض جزئياته في المطلب الأول من هذا البحث، ولا شك أن ذلك المسلك في بناء ذات المفهوم، منبئ عما يمكن أن يقدمه من المرشدات في علاقات المفهوم بغيره.

إن قصـة كقصـة يوسـف مثلا، إذا ما تنوولت من مدخل مصـطلحاتها وما تكتنزه من مفاهيم، سـتعزز القناعة بتلك المتتالية التي قدمها الدكتور البطيوي آنفا، وغيرها من المتتاليات التي يمكن بقليل من التدبر الكشـف عنها، وعبر تلك الكشـوف يمكن الوصـول إلى بناء النسق المفاهيمي العام.

وللنسق المفاهيمي تجليان أحدهما خاص والآخر عام، وكل واحد من التجليين يفرض شكلا من أشكال التناول الممكنة.

أما التجلي الخاص فأقصد به الدراسـة المصـطلحية لقصـة بعينها، من خلال تجميع مواردها في القرآن كله، والنظر في بنيتها المصـطلحية من خلال إحصـاء المصـطلحات، التي تروج ضـمن كل فصـولها، وتصـنيفها بناء على معيار محدد، كأن يكون مثلا هو حجم الورود أو مركزية المفهوم... ثم ينظر ثانيا في العلاقات التي تحكم تلك المفاهيم، سـعيا لبناء الشبكة المفهومية للقصة ككل.

---

(1) سنن العمران البشري في السيرة النبوية، لعبد العزيز البطيوي، ص206.

وأما التجلي العام فأقصد به الدراسة المصطلحية للقصص القرآني كاملا من حيث هو كل مجموع، عبر إحصاء المصطلحات الرائجة في مجموعه، وتصنيفها أيضا بحسب المعيارين السابقين، سعيا لبناء الشبكة المفاهيمية المتحكمة في القصص القرآني كله.

المبحث الثالث: مفهوم الاستخلاف من خلال القصص القرآني

تمهيد: لمحة عن تناول مفهوم الاستخلاف في كتب التراث

القضية ههنا متجهة صوب تتبع مفهوم الاستخلاف، كما تناوله علماء من تخصصات شتى جامعها المشترك الاهتمام بالمفاهيم القرآنية تفسيرا وبيانا. ولأن الإتيان على كل ما قيل من شأنه أن يطول، فإني سأقتصر في هذا المقام على كتب التفسير وبعض علوم القرآن، لصلتهما المباشرة بالمفاهيم القرآنية، ثم بشروح الحديث من حيث كون السنة بيانا للقرآن.

1) في كتب التفسير [1]:

تناول المفسرون مفهوم الاستخلاف، عامة في معرض قصة استخلاف آدم، وكذا في معرض قصة داود عليهما السلام، وفي مواطن أخرى بشيء من الاقتضاب، وقد وقف بعضهم كثيرا مع حقيقة الاستخلاف، لكنهم اختلفوا في المراد به، ويمكن تجميع ما ذهبوا إليه في ثلاثة أقوال رئيسة هي:

الأول: أن الاستخلاف مقصود به خلافة بني آدم بعضهم لبعض.

الثاني: أن آدم ليس أول من وجد على الأرض، بل وجوده مسبوق بوجود غيره من الأجناس، (كالحن والبن، وكالرم والطم). فكون آدم خليفة يعني أن آدم خلف جنسا آخر كان قبله.

الثالث: أن الاستخلاف مقصود به أن آدم خليفة لله في الأرض قائم بأمره فيها.

والذين قالوا بالقولين الأولين ذهبوا إلى إنكار القول الثالث من منطلقين.

---

(1) يراجع في ذلك تفسير الطبري وتفسير البغوي، وتفسير ابن كثير عند قوله تعالى قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗ﴾ [سورة البقرة: 30].

الأول: أن الله لم يكن حالا في الأرض ولا عاملا فيها العمل الذي أودعه في الإنســـان، وهو السلطنة على موجودات الأرض، حتى يصح اعتبار آدم خليفة له.

والثاني: أن سياق الآية يأباه وذلك أن الملائكة إذ قال لها ربها: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [سورة البقرة: 30] لم تضف الإفساد وسفك الدماء في جوابها ربَّها إلى خليفته في أرضه، بل قالت: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [سورة البقرة: 30]، وغير منكر أن يكون ربها أعلمها أن له ذرية تخلفه، يكون منهم الإفساد وسفك الدماء.

وأما من قال بالقول الثالث، وهو أن المراد بالاستخلاف تصيير آدم خليفة عن الله، يحكم في الأرض بأمره، فقد اختلفوا في حقيقة المراد بذلك الاستخلاف، **هل هو مقصور على آدم وحده، أم على آدم وبعض ذريته أم هو عام في جنس ابن آدم.**

فذهب بعضهم إلى أن ذلك خاص بآدم عليه السلام، وأن استفسار الملائكة وتعجبهم مرده إلى ما أخبرهم به الله سبحانه من أمر ذرية آدم، وأنهم سيفسدون في الأرض، فالإفساد معني به ذرية آدم، والخلافة مقصود بها آدم.

وذهب آخرون إلى أن من يصح أن يوصف بخليفة الله في الأرض هما آدم وداود عليهما السلام لورود النص بهما فقط وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [سورة البقر ة: 30]، وفي قوله تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [سورة ص: 26]. واحتج بعضهم بأن الخلفاء الراشدين كانوا يتحرجون من وصفهم بخليفة الله، قال البغوي في شرح السنة "ولا يسمّى أحدٌ خليفة الله بعد آدم وداود عليهما السّلام، أخذا من صريح قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [سورة البقرة: 30]، وفي قوله تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [سورة ص: 26]. ونقل تحرج بعض الخلفاء الراشدين من أن يوصفوا بكونهم خلفاء لله. فقد روي عن ابن أبي مليكة، أنّ رجلا قال لأبي بكرٍ: «يا خليفة الله، قال: أنا خليفة محمّدٍ ﷺ وأنا راضٍ بذلك. وعن إبراهيم، عن همّامٍ، قال رجلٌ من أهل الكتاب لعمر: يا ملك، فقال عمر: أكذاك تجدونه في كتابكم؟ أليس

تجدون النّبيّ، ثمّ الخليفة، ثمّ أمير المؤمنين، ثمّ الملوك بعد؟ قال: بلى. وقال رجلٌ لعمر بن عبد العزيز: يا خليفة الله، فقال: ويحك لقد تناولت متناولا بعيدًا إنّ أمّي سمّتني عمر، فلو دعوتني بهذا الاسم قبلت، ثمّ كبرت، فتكنّيت أبا حفصٍ، فلو دعوتني به، قبلت، ثمّ ولّيتموني أموركم، فسمّيتموني أمير المؤمنين، فلو دعوتني بذلك، كفاك» [1].

وذهب آخرون إلى أن المقصود بالخليفة هو آدم ومن قام مقامه من ذريته في طاعة الله والحكم بالعدل بين خلقه. وأما الإفساد وسفك الدماء بغير حقها فمن غير خلفائه، ومن غير آدم ومن قام مقامه في عبادة الله، ومعنى ذلك أن كل قائم بالقسط يصح أن يحوز وصف الخليفة وعلى رأس هؤلاء الأنبياء المصطفون ومن تبعهم بإحسان، وأما المفسدون فلا ينالون هذا الشرف.

وذهب غيرهم إلى أن المقصود بالاستخلاف آدم ومجموع ذريته[2]. وأن المقصود بالخليفة في الأصـــل الذي يخلف غيره أو يكون بدلا عنه في عمل يعمله، فهو فعيل بمعنى فاعل والتاء فيه للمبالغة في الوصـــف كالعلامة. والمراد منه المعنى المجازي وهو الذي يتولى عملا يريده المســـتخلف مثل الوكيل والوصي، أي جاعل في الأرض مدبرا يعمل ما نريده في الأرض فهو استعارة أو مجاز مرسل؛ فالإنسان هو الموجود الوحيد الذي استطاع بما أودع الله في خلقته أن يتصرف في مخلوقات الأرض بوجوه عظيمة لا تنتهي خلاف غيره من الحيوان [3].

2) في كتب الغريب والمشكل واللطائف والتعريفات.

ذهب الراغب إلى أن الخلافة النيابة عن الغير، إما لغيبة المنوب عنه وإما لموته وإما لعجزه، وإما لتشريف المستخلف، وعلى هذا الوجه الأخير استخلف الله أولياءه في الأرض، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [سورة فاطر: 39]. ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ

(1) شرح السنة لأبي محمد الحسين بن مسعود البغوي (14/75-76)

(2) تفسير المنار لمحمد رشيد رضا (1/ 215)

(3) التحرير والتنوير للشيخ محمد الطاهر بن عاشور (1/ 399)

ﭐلۡأَرۡضِ﴾ [سورة الأنعام: 165]. وقال: ﴿وَيَسۡتَخۡلِفُ رَبِّي قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ﴾ [سورة هود: 57]" [1]

وذهب صــاحب باهر البرهان في معاني مشــكلات القرآن، إلى أن المراد بالخلفاء أولو الأمر من عهد آدم إلى انقضــاء العالم، فكلهم خلفاء الله في الحكم بين الخلق وتدبير ما على الأرض [2]

وفي بصــائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز أن الخليفة: السّــلطان الأَعظم. وقد يؤنَّث [3]. وفي موطن آخر أن "الخَلِيفَـة" و"الخَلِيف" مَن يخلف مَنْ تقدّمَـه. وكان آدمُ خَلَفَ قوماً من الخَلْق يسمَّوْن الجانَ بن الجان، ولكونه ناب مَناب ملائكة السّماء [4].

3) في شروح الحديث

لم أعثر في حدود ما اسـتقريت على ما يدل أن النبي ﷺ قد اسـتعمل لفظ الاسـتخلاف بمعناه القرآني إلا في رواية لحديث المحاجة بين موسى وآدم عليهما الســلام، وجدتها في مســند عبد بن حميد عَنْ أبي ســعيد الخدري قال: قال رســول الله ﷺ: احتج آدم وموسى عليهما الســلام، فقال موسى: أنت خليفة الله، بيده أســكنك جنته وأســجد لك ملائكته، فأخرجت ذريتك من الجنة وأشقيتهم، فقال آدم عليه السلام: أنت موسى الذي اصطفاك الله بكلامه ورســالته تلومني في شيء وجدته قد قدر علي قبل أن أخلق، قال: فحج آدم موسى " [5]

وهو حديث مشــهور غير أن هذا اللفظ انفرد به عبد بن حميد، أما لفظ الاســتخلاف فكثير وروده في كتب الحديث، بل هو عنوان لباب معقود في الصـحيحين وغيرهما، غير أن المقصـود بهما بعيد عما نحن فيه، إذ يرد في معرض الحديث عن اسـتخلاف أبي بكر رضي

(1) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ص 294 مادة (خلف)

(2) باهر البرهان في معاني مشكلات القرآن لبيان الحق محمود بن أبى الحسن النيسابورى الغزنوي (1/ 58)

(3) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز لمجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى (2/ 562)

(4) المرجع نفسه (22/6)

(5) المنتخب من مسند عبد بن حميد أبو محمد عبد الحميد بن حميد بن نصر الكسي، (ص: 295) ح ر 949

الله عنه في حياة النبي ﷺ وغيرها مما يشهد لأحقيته بخلافة النبي، ويرد في معرض الحديث عن امتناع عمر ابن الخطاب عن استخلاف غيره لما طعن، وله موارد أخرى لكنها لا تمت بصلة لمعنى الاستخلاف في القرآن.

خلاصة عامة

إن أهم ما يلاحظ على ما دوناه ههنا بعد هذا التطواف في كثير من كتب التفسير وما دار في فلكها من كتب المعاني، وكذا بعض كتب الحديث وشروحه، أن معظم من تحدثوا عن مفهوم الاستخلاف، لم يولوه أهمية كبيرة باعتباره مفهوما مفتاحيا، تتيح الإحاطة به نظرة كلية تبين كثيرا مما قد يستشكل من معانيه أولا، وتنير بعض المداخل المهمة في استيعاب مفاهيم أخرى شديدة الاتصال به.

والسبب في ذلك في نظري غلبة المنحى التجزيئي في التفسير، وهو تفسير القرآن آية فآية وسورة فسورة، على حسب ترتيب سور القرآن وآياتها، وضمور استحضار نسقية المفاهيم القرآنية.

وأما المفسرون الذين نبذوا ذلك، وتعاملوا مع المفاهيم القرآنية باعتبارها نسقا محكم البناء، وفي إطار من الوحدة الموضوعية العامة للقرآن، أو الخاصة بالسورة، فقد اهتدوا إلى معاني عظيمة جدا؛ ويمكن أن نذكر ههنا نموذجين من المفسرين الذين يمكن اعتبار منهجهم في تناول المفاهيم القرآنية متفردا، هما الشيخ محمد رشيد رضا صاحب تفسير المنار، والشيخ محمد الطاهر بن عاشور صاحب التحرير والتنوير.

والذي طبع منهج الرجلين، وهما ينتميان لنفس المدرسة تقريبا، أنهما يحرصان على فهم ألفاظ القرآن من القرآن، وذلك بدراسة اللفظ في القرآن دراسة تقوم على جمع المتكرر والنظر فيه، مع مراعاة السياق الخاص والعام للفظ في القرآن كله.

وأما أصحاب كتب الغريب والمشكل فلم يخرجوا في حديثهم عن الخلافة والاستخلاف والخليفة عما سطره المفسرون، وحتى الراغب الذي عودنا في مواطن أخرى أن يتتبع دلالات المفردات القرآنية ويحاول تجميع جزئياتها، مما حدا بالبعض أن يعده

أحد الرواد المؤسسين لدراسة المصطلح القرآني، لم نره ههنا قد سلك ذات المسلك.

وأما أصحاب كتب التعريفات كالجرجاني والكفوي وغيرهما فلم يتناولوا المفهوم أصلا.

المطلب الأول: مركزية مفهوم الاستخلاف في القرآن عامة وفي القصص القرآني خاصة.

سبق أن ذكرنا آنفا أن المفاهيم القرآنية كلّ موحد، أو نسق مركب من شبكات علائقية في غاية التعقيد والدقة، لأجل ذلك فإن ادعاء مركزية مفهوم ما ضمن القرآن عامة أو ضمن موضوع من مواضعه مسألة صعبة جدا، ذلك أن أي مفهوم من تلك المفاهيم، حينما تحاول أن تنظر إلى البنية المفهومية للقرآن الكريم من زاويته، تجده يشغل عليك فكرك ووجدانك، من جهة ما يقذفك به من تداعيات المعاني المترابطة، التي تجعلك تعتقد أن هذا المفهوم هو بؤرة ذلك النسق المفاهيمي في القرآن الكريم.

وعلى ضوء ذلك فإن المفاهيم المفتاحية في القصص القرآني كثيرة من جهة، وشديدة التداخل من جهة ثانية؛ مما يعني أن المس بمفهوم أحدها مس بالمفاهيم الأخرى، وكل تحريف لأحدها إخراج للقصص القرآني عن أهدافه. **غير أنني أدعي ههنا أن مفهوم الاستخلاف هو المفهوم المركزي الذي تدور عليه تلك المفاهيم كلها مستندا في ذلك إلى أن قصة آدم عليه السلام أم القصص القرآني**، إذ بها كان بدء الوجود الإنساني، وبها كان بدء العرض القرآني، وعنها تفرعت جميع القصص سواء أكانت قصصا للخير أم قصصا للشر، قصصا للهداية أم قصصا للغواية.

فلئن جهلت الملائكة الحكمة من خلق آدم واستخلافه فاستفسرت عنها، فإن الجواب الرباني قد بين أن منشأ ذلك علم عند الله لم تطلع عليه الملائكة، وأن المخلوق المستفسر بشأنه قد اصطفاه الله سبحانه وألهمه من علمه ما أهله لتحمل أمانة الاستخلاف، وإنما كان العلم الذي ألهمه الله لآدم عليه السلام ولم تطلع عليه الملائكة، هو العلم بكلمات الله من حيث كونها أسماء للموجودات أولا، ومن حيث كونها ابتلاءات ثانيا.

وسواء أقلنا إن ما علمه آدم هو أسماء كل شيء بجميع اللغات، أو قلنا إن ما علمه آدم

هو القدرة على تسمية الأشياء[1]، فإن المفاد واحد فيما نحن بصدد التمهيد له... إذ الإيذان بان آدم إنما فضـــل على الملائكة من جهة ما ميزه الله به من العلم بالأســـماء منبئ أن التســـمية شيء عظيم، ســـواء أكانت تســـمية للأعيان أو تســـمية للمفاهيم... والربط بين اســـتخلاف آدم وبين علمه بالأســـماء يدفع إلى القطع بأن الاســـتخلاف مفهوم مركزي يســتحوذ على غيره من المفاهيم. إذ بقدر ما يلحظ من مركزية قصــة آدم ضــمن القصــص القرآني، فإنه يلحظ مركزية مفهوم الاسـتخلاف ضـمن المفاهيم القرآنية، وإنما مدار قصـة آدم، وما تفرع عنها من القصـــص الأخرى، على تثبيت المفاهيم الكبرى للإســـلام، بما هو الدين المرضي عند رب العالمين منذ أن خلق آدم، من حيث كونه اســـتســـلاما لمراد الله وقضائه، المتضمن لحكمته.

ذلك أن وظيفة الوحي كله، بما هو كلمات لله سبحانه، إعادة تجسيد قصة آدم، إنه في حقيقته تعليم لابن من أبناء آدم اصطفاه الله سبحانه، وابتلاه بكلماته، فتأهل بها لأن يكون شاهدا على من بعث فيهم ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ﴾ [سورة البقرة: 124]. وإنما كانت وظيفة الرسل جميعهم بما هم **مستخلفون في الأرض** تصحيح ما غير من كلمات الله وإحياء ما اندرس منها، وتجديد ما تنوسي، وتسمية ما استجد، إلى أن تمت المنة ببعثة خاتم النبوة، **فاستدار الزمان كيوم خلق الله الكون** [2]، ووجب أن تستدير **الكلمات كما شاء الله لها أن تكون.**

إن الاســـتخلاف إذا مفهوم كلي مكتنز، مســـتوعب لكل ما تعالق معه، من المفاهيم القرآنية جملة، ومن المفاهيم القرآنية ذات الصـــلة المباشرة بالقصـــص القرآني، كالإيمان

---

(1) الخلاف في هذا طويل الذيل عريض الأفق، قديم في الأمة، وللوقوف على مجمل ما قيل فيه يمكن مراجعة كتب فقه اللغة، كالصاحبي لابن فارس، والخصائص لابن جني وفقه اللغة وسر العربية للثعالبي، والمزهر للسيوطي وغير ذلك كثير، وليس من غرضنا ههنا تتبع ذلك لطوله أولا، ولأنه لا يمكن الحسم في نتيجته ثانيا.

(2) أصله حديث في الصحيحين، ولفظه عند البخاري" إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهرا، منها أربعة حرم، ثلاث متواليات: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب، مضر الذي بين جمادى، وشعبان " صحيح البخاري كتاب تفسير القرآن باب قوله: [إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا] ح ر 4662 (6/ 66).

والابتلاء والعبرة، والاهتداء والاستجابة والإنابة والتقوى والفجور والكفر والاستكبار والعلو والجهل....

وعلى ضـــوء هذا النظر وجب التعامل مع مفهوم الاســـتخلاف، بالقدر الذي يجعله مكتنزا لعلة الوجود الإنساني كله،... غير إن الناظر في تفاسير القرآن وفي ما دار في فلكها قربا أو بعدا، يظهر له بجلاء ضـــمور هذا المفهوم، وتواريه، وقلة أثره في توجيه الفهم والتنزيل، إلا عند طائفة من المفسرـــين التزموا النظر الكلي، وســـلكوا مســـلكا قريبا من التفســـير الموضوعي، الذي يدفع لتجميع شتات الموضوعات، ويسهل مأمورية تصور المفاهيم في كليتها ونسقيتها.

المطلب الثاني: موارد الاستخلاف في القرآن الكريم

يوضـح الجدول الموالي مختلف الصـيغ التي ورد بها جذر خلف مفيدا للاسـتخلاف، بصـيغه المتعددة، مبرزا أيضـا حجم ورود الصـيغة ونص الآية معزوة إلى المصـحف بالعد المدني.

المفردة	حجم الورد	الآية محل الورود
استخلف وتصريفاتها	5	1. قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۚ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفۡ مِنۢ بَعۡدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوۡمٍ ءَاخَرِينَ﴾ [سورة الأنعام: 133]. 2. قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ﴾ [سورة الأعراف: 129].

		3. قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔاۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ [سورة هود: 57]. 4. قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًاۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔاۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [سورة النور: 55]. 5. قوله تعالى: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [سورة الحديد: 7].
خليفة بالإفراد والجمع	6	1. قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةًۖ﴾ [سورة البقرة:30]. 2. قوله تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ [سورة ص: 26]. 3. قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةًۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [سورة الأعراف: 69]. 4. قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًاۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [سورة الأعراف: 74]. 5. قوله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [سورة النمل: 62]. 6. قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي اِلْخَلْقِ بَصْطَةًۖ﴾ [سورة الأعراف: 68].

1) على مستوى شكل الورود.

أول ما يلاحظ عند مطالعة الآيات السابقة، أن مصطلح الاستخلاف لم يرد في القرآن بهذه الصيغة أبدا، وإنما ورد بالصيغة الفعلية (ليستخلفنهم) (استخلف)، (يستخلف)، كما

ورد معناه وهو جعل الخليفة، فكأن الألف والسين والتاء عوضت بالجعل وهو الاتخاذ. كقولهم استوزر إذا اتخذ وزيرا، واستأجر إذا اتخذ أجيرا...

وإذ تشير المعاجم اللغوية أن مدار جذر (خ ل ف) في العربية على ثلاثة معان:

الأول: مجيء شيء بعد شيء يقوم مقامه، كوالد يموتُ فيكون ابنه خَلَفاً له، أي خليفة فيقوم مقامه. ويقولون هو خلف بفتح اللام، إن كان بالحسنى، وبسكونها إن كان سيئا. قال الله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ [الأعراف: 169]

والثاني خلاف قدام، وهذا مشهور.

والثالث التغير كقولهم خلف فوه، إذا تغير، وأخلف. ومنه قوله ﷺ: «لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك». ومنه الخلاف في الوعد. وخلف الرجل عن خلق أبيه: تغير [1]

فإن الذي يبدو من استقراء الموارد أعلاه أن **جذر خلف قد ورد في القرآن الكريم بالمعاني الثلاثة التي ورد بها في العربية، بصيغ مختلفة ونسب مختلفة أيضا، إلا أن المأخذ القريب لمصطلح الاستخلاف المراد دراسته هو المعنى الأول** [2]**. على أن ثمة بعض الصيغ التي قد توهم صلتها بالمعنى الأول، بسبب ما فيها من شبه به، ولكن التحقيق يفضي إلى ظهور فرق واضح**، وفي هذا الصدد حصل لي تردد في صيغة (خلَّف) بتشديد اللام ومنها مفردات (المخلفون)، (خلفوا) (يتخلفوا). **فقد ترددت في إلحاقها بالمعنى الأول أو المعنى الثاني، ولكن الظاهر أنها ينبغي أن تلحق بالمعنى الثاني، لأن هذا تخلف تأخر في الرتبة يفيد ضد التصدر، أي البقاء في الخلف، وإنما دفعني لذلك أني وجدث ابن فارس قد ألحق مفردة الخوالف في قوله تعالى:** ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ﴾ [سورة التوبة: 88

---

(1) مقاييس اللغة لابن فارس مادة خلف (210/2).

(2) غير أن ذلك لا ينفي وجود صلة خفية بين تلك المعاني، يمكن أن تجعل مدخلا لمعنى محوري جامع، وهو ما بينه صاحب المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم الدكتور محمد حسن حسن جبل رحمه الله، فقد ذهب إلى ان المعنى المحوري لجذر خلف في القرآن الكريم وفي اللغة العربية هو: كَوْن أو بقية بعد ذاهب أو وراءه... انظر المعجم الاشتقاقي المؤصل مادة (خلف).

و94]. **بالمعنى الأول والخوالف النساء اللاتي يخلفن الرجال، ولكن يتبين أن ذلك بعيد، لأن المخلف وإن آثر البقاء مع النساء وهن خوالف فإنه ليس مثلهن من جهة أن تخلفه لم يكن للقيام بما تقوم به النساء مما جعلن فيه أصلا، أو مما يضاف إليهن من مهام بسبب غياب الرجال. فلا هو مع الرجال في عزمهم ولا هو مع النساء في مهنهن. فهو تعبير لا يفيد نزول مرتبة النساء،** بل يفيد نزول مرتبة الرجال إذ تركوا ما وجب عليهم وآثروا البقاء مع النساء بقاء في المكان لا في الوظيفة والله أعلم.

2) على مستوى حجم الورود.

حضــور معنى الاســتخلاف في القرآن الكريم كثير، مما يدل على قوة البنية المفهومية للمصطلح، وهي قوة ستظهر جليا من خلال التطرق إلى صفاته وعلاقاته وتشعب معانيه، وتنوع قضــاياه الممتدة داخل القرآن الكريم، ولئن كنا قد اقتصرـنا على ما له صــلة مباشرة بمعنى الاستخلاف المراد، فإن ما استبعد من آيات لا يعدم صلة به، وإنما آثرت الاقتصار على ما ذكر تجنبا للإطالة التي لا يتحملها المقام.

3) على مستوى مواطن الورود.

اللافت للنظر من خلال تتبع مواطن الورود، ولو مع الاقتصار على ما ترجحت صلته المباشرة بمفهوم الاســتخلاف، أن غالب وروده كان في سـياق القصـص القرآني، وهو مؤشر بين على مركزية القصص القرآني في بناء مفاهيم القرآن، كما تم بيانه آنفا.

المطلب الثالث: قضايا متصلة بمفهوم الاستخلاف.

من أهم القضـايا التي يمكن اسـتشـفافها من الآيات محل الورود مما يعين على تصـور المفهوم وبناء خواصه ما يلي:

1) من هو المستخلِف؟

مما يعين على حصر الموارد واستبعاد ما لا صلة له بما يحيل على مفهوم الاستخلاف، النظر في الجهة التي صدر عنها، فالاستخلاف الذي نحن بصدده هو ما كان صادرا عن الله

تعالى، نحو البشر سواء أكان استخلافا لجنسهم أو استخلافا لبعضهم، أو استخلافا لآحادهم.

فمثلا قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [سورة الأعراف: 142] وقوله: ﴿قَالَ بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓۖ أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ﴾ [سورة الأعراف: 150]، يلزم استبعادها لأنها لا تستجيب لذلك الشرط إذ الاستخلاف ههنا صادر من موسى عليه السلام تجاه أخيه هارون عليه السلام.

2) محال الاستخلاف:

1. الاستخلاف في الأرض

وقد ورد في آيات عديدة منها قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ﴾ [سورة البقرة: 30]، وقوله سبحانه: ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ﴾ [سورة الأعراف: 129]. وقوله أيضا ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ [سورة النور: 55]، وقوله عز وجل: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [سورة النمل: 62].

قال صاحب تفسير المنار بعد أن قرر أن الاستخلاف هو استخلاف عن الله متسائلا عن حقيقة الاستخلاف في الأرض بقوله: "ولكن ما معنى هذه الخلافة، وما المراد من هذا الاستخلاف"(1) وفي معرض جوابه عن هذا السؤال عرض لما امتاز به النوع البشري عن غيره مما خلق الله سبحانه، سواء ما علمنا حقائقه عن طريق الوحي كالملائكة والجن، أو ما علمنا حقائقه بالنظر والاختبار كالحيوانات والنبات والجماد، وغير ذلك. والجامع بين تلك الموجودات أن الله قد خص كل نوع بشيء محدود معين لا يتعداه، فكل حي من الأحياء المحسوسة والغيبية له استعداد محدود، وعلم إلهامي محدود، وعمل محدود، وما كان كذلك لا يصلح أن يكون خليفة عن الذي لا حد لعلمه وإرادته، ولا حصر لأحكامه وسننه،

---

(1) تفسير المنار لمحمد رشيد رضا (215/1).

ولا نهاية لأعماله وتصرفه.

أما الإنسان فغير محدود الاستعداد ولا محدود الرغائب ولا محدود العلم ولا محدود العمل، فهو على ضعف أفراده يتصرف بمجموعه في الكون تصرفا لا حد له بإذن الله وتصريفه، وكما أعطاه الله - تعالى - هذه المواهب والأحكام الطبيعية ليظهر بها أسرار خليقته، وملّكه الأرض وسخر له عوالمها، أعطاه أحكاما وشرائع، حد فيها لأعماله وأخلاقه حدا يحول دون بغي أفراده وطوائفه بعضهم على بعض، فهي تساعده على بلوغ كماله؛ لأنها مرشد ومرب للعقل الذي كان له تلك المزايا؛ فلهذا كله جعله خليفته في الأرض وهو أخلق المخلوقات بهذه الخلافة [1].

فاستخلاف الإنسان مَظهر لعظمة الله سبحانه وتجل لحكمته، فمن "حكمة الله الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، أن جعل الإنسان بهذه المواهب خليفته في الأرض، يقيم سننه، ويظهر عجائب صنعه، وأسرار خليقته، وبدائع حكمه، ومنافع أحكامه، وهل وجدت آية على كمال الله - تعالى - وسعة علمه أظهر من هذا الإنسان الذي خلقه الله في أحسن تقويم؟

وقال الطاهر بن عاشور: "الخليفة آدم وخلفيته قيامه بتنفيذ مراد الله تعالى من تعمير الأرض بالإلهام أو بالوحي وتلقين ذريته مراد الله تعالى من هذا العالم الأرضي، ومما يشمله هذا التصرف تصرف آدم بسن النظام لأهله وأهاليهم على حسب وفرة عددهم واتساع تصرفاتهم، فكانت الآية من هذا الوجه إيماء إلى حاجة البشر إلى إقامة خليفة لتنفيذ الفصل بين الناس في منازعاتهم إذ لا يستقيم نظام يجمع البشر بدون ذلك، وقد بعث الله الرسل وبين الشرائع فربما اجتمعت الرسالة والخلافة وربما انفصلتا بحسب ما أراد الله من شرائعه إلى أن جاء الإسلام فجمع الرسالة والخلافة لأن دين الإسلام غاية مراد الله تعالى من الشرائع وهو الشريعة الخاتمة"[2]

---

(1) المرجع نفسه (1/ 217)

(2) التحرير والتنوير للشيخ محمد الطاهر بن عاشور (1/ 399)

2. الاستخلاف في المال:

والمشار إليه في قوله تعالى: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾ [سورة الحديد: 7].

قال الطاهر بن عاشور: "جيء بالموصول في قوله: مما جعلكم مستخلفين فيه دون أن يقول: وأنفقوا من أموالكم أو مما رزقكم الله لما في صـــلة الموصـــول من التنبيه على غفلة الســـامعين، عن كون المال لله جعل الناس كالخلائف عنه في التصرـــف فيه مدة ما، فلما أمرهم بالإنفاق منه على عباده كان حقا عليهم أن يمتثلوا لذلك، كما يمتثل الخازن أمر صاحب المال إذا أمره بإنفاذ شيء منه إلى من يعينه. والسين والتاء في مستخلفين للمبالغة في حصـــول الفعل لا للطلب لاســـتفادة الطلب من فعل جعلكم. ويجوز أن تكون لتأكيد الطلب [1].

3) أوصاف متصلة بالاستخلاف:

1. الاستخلاف الخاص منة من الله

إن الاستخلاف العام صفة ملازمة لجميع البشر، سواء كانوا صالحين أم فاسدين، لكن الاستخلاف الخاص قد يكون منة إلهية، وهي في نفس الوقت تشريف وتكليف بمهام إصلاحية محددة، تدوم بدوام الوفاء بها وتزول عند الإخلال بشروطها، ويستشف ذلك من قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ وَزَادَكُمۡ فِي ٱلۡخَلۡقِ بَصۜۡطَةٗۖ﴾ [سورة الأعراف: 69]، وقوله سبحانه: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ وَبَوَّأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [سورة الأعراف: 74]، وقوله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [سورة النمل: 62].

والذي يمكن أن يفهم من تلكم الآيات، جميعها على اختلاف من وردت فيهم ســـواء أكانوا قوم عاد كما في الآية الأولى، أم قوم صـــالح كما في الآية الثانية، أم كانت في خصـــوص هذه الأمة كما ينبئ عنه سياق الآية الثالثة، أن الاستخلاف قد يكون منة من الله سبحانه،

---

(1) المرجع نفسه (27/ 369)

يهبه لمن يشاء، وذلك أن الله سبحانه بحسب منطوق هذه الآيات، يمتن على طائفة من عباده بأن جعلهم خلفاء من بعد قوم مضوا، لأن **الاستخلاف الإيماني** الذي عليه المدار إنما هو استخلاف لإقامة حدود الله سبحانه، يتأهل إليه من استجاب لمراده، واتبع رسله، وأقام شريعته.

2 - سلب الاستخلاف الخاص حرمان وعقاب.

ويستشف ذلك من خلال قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۚ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفۡ مِنۢ بَعۡدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوۡمٍ ءَاخَرِينَ﴾ [سورة الأنعام: 133]، وقوله سبحانه: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَيَسۡتَخۡلِفُ رَبِّي قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ﴾ [سورة هود: 57].

فإذا كان الاستخلاف العام تكريما لكل البشر فإن الاستخلاف الخاص أمانة وتكليف من الله سبحانه يكون سلبه عن أمة لم تقم به كما يلزم، حرمانا لهم، لأنهم لم يقدروا النعمة حق قدرها، ولا تأهلوا لأن يكونوا قائمين بالقسط في الأرض، وبقدر ما ينطوي عليه ذلك من الحرمان، فإنه يتضمن أيضا أجناسا مختلفة من العقاب، لعل أقله العقاب المعنوي الذي يصيب نفس المستبدل به، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم﴾ [سورة محمد: 38]. قال سيد قطب رحمه الله: (وإنها لنذارة رهيبة لمن ذاق حلاوة الإيمان، وأحس بكرامته على الله، وبمقامه في هذا الكون وهو يحمل هذا السر الإلهي العظيم. ويمشي في الأرض بسلطان الله في قلبه ونور الله في كيانه، ويذهب ويجيء وعليه شارة مولاه.. وما يطيق الحياة وما يطعمها إنسان عرف حقيقة الإيمان وعاش بها ثم تسلب منه، ويطرد من الكنف، وتوصد دونه الأبواب. لا بل إن الحياة لتغدو جحيما لا يطاق عند من يتصل بربه ثم يطبق دونه الحجاب) [1]

4) معالم الشبكة المفهومية للاستخلاف:

---

(1) في ظلال القرآن لسيد قطب (6/ 3303)

للاستخلاف شبكة معقدة جدا من العلاقات، مع مفاهيم مجاورة له تحيل عليها الآيات التي ورد فيها، وآيات غيرها لم يرد فيها مفهوم الاستخلاف باللفظ الصريح، ولأن الأمر يطول بنا إذا نحن أردنا الاستيعاب، فإننا سنكتفي بسوق نماذج من ذلك، عسى أن تأتي فرصة نعرض فيها لدراسة وافية تجلي الشبكة المفاهيمية للاستخلاف.

1. علاقة الاستخلاف بالأمانة العظمى

إن ثمة علاقة عميقة بين الاستخلاف والأمانة، التي أبت حملها السماوات والأرض والجبال، واختار الإنسان حملها بعد أن صار مؤهلا لها، وفق طبيعته الاستخلافية التي امتاز بها على جميع مخلوقات الله، عدا الجن الذين خلقوا أيضا أحرارا مخيرين ومسؤولين عن اختياراتهم الاعتقادية، ومحاسبين عليها مثل البشر تماما، ﴿يَامَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ [الأنعام: 130].

فتحمل الأمانة الكبرى يمثل حقيقة الممارسة الاستخلافية وغايتها،

2. الاستخلاف وأخذ الميثاق

قال صاحب بيان المعاني في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [سورة آل عمران: 81]. أخذ الميثاق بمعنى الاستخلاف[1]، ووجه ذلك أن أخذ الميثاق المنطوق به في هذه الآية وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ﴾ [سورة الأعراف: 172]، منظور إليه من جهة أن أخذ الميثاق تهيئة للاستخلاف، فكأنه أشبه بقسم التولية ولله المثل الأعلى. ويستفاد من الآيتين أن الاستخلاف عام في ذرية آدم ومنه استخلاف خاص بالأنبياء والمصلحين.

3. الاستخلاف والابتلاء

---

(1) بيان المعاني [مرتب حسب ترتيب النزول] لعبد القادر بن ملّا حويش السيد محمود آل غازي العاني (المتوفى: 1398هـ) (5/ 361)

إن الابتلاء بالخير والشر والإحسان والإساءة يمثل لب الأمانة العظمى ومحورها الأساس؛ ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [الملك: 1، 2]، ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام: 165] فهذه شواهد ضمن أخرى تؤكد بأن الابتلاء هو غاية الله من خلق البشر وتطويقهم بأمانة الاستخلاف في الأرض، ﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ﴾ [سورة الأعراف: 129].

فقد أشارت الآية إلى أن الله قد ألهم موسى عليه السلام، أن يجيب من اشتكى مما هو فيه من ظاهر المعاناة التي لم يفهم مقصدها، أن ذلك من مقتضى الاستخلاف، وأن ما يظهر لصاحب النظر العجل من المشاق إنما هو طريق التمكين الذي لا ينجح فيه كل الناس.

إن غرض الاستخلاف الأساس إنما هو ابتلاء بني آدم، ليميز الله الخبيث من الطيب، فإما أن ينجح المبلو فيكون على وفق مراد الله منه، فتتحقق له سعادة الدارين، ويكون نموذجا للخير تُقصّ أخباره على من بعده من الأمم، ليكون لهم هاديا، وإما أن يكون عكس ذلك.

فالأمانة والميثاق وحرية الاختيار والابتلاء، تمثل المفاهيم الأساسية للاستخلاف المستوعبة لكل المفاهيم الإسلامية الأخرى.

4 - الاستخلاف والتمكين

إن مقتضى الاستخلاف العام، أن يمكن للإنسان من استعمار الأرض، وتسخير ما خلقه الله فيها من طاقات وإمكانيات مختلفة، واستخدامها في استخراج كنوزها واستثمار خيراتها ومواردها، في مجالات البناء والنماء في مختلف أبعاد الحياة الإنسانية، {وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ} [الجاثية: 13] وأما الاستخلاف الإيماني؛ المبني على الوحي المنزل على الرسل عليهم السلام، فيمنح أهله التمكين المفضي إلى إقامة دين الله في الأرض والدود عن حياضه، وممارسة نهجه في إصلاح الدنيا وإعمارها بالدين الحق، ونشر

قيمه السامية وأخلاق الأمانة من عدل ورحمة وإحسان في الأمور كلها، لدى المؤمنين أساسا دون إهمال التبشير بها في العالمين.

وتلك هي المنة العظمى التي وعدت بها هذه الأمة، إن هي حققت الاستخلاف على وجهه الإسلامي. ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [سورة النور: 55].

خاتمة

إن هذا التطواف مع مفهوم الاستخلاف، عبر تجميع ما دل عليه من الآيات، وعبر استخلاص ما يستبطنه من بعض المعاني، والسمات والخصائص، قد أنبأنا بما لا يدع مجالا للتردد، أن القصص القرآني قد تولى مهمة بالغة الدقة متمثلة في بناء مفاهيم مركزية، ينبغي للأمة أن توليها عناية خاصة، وهو ما يؤكد أن القصص القرآني بعيد كل البعد عن كون مهمته محصورة في مجرد سوق أخبار من سبق من الأمم قصد الاعتبار بمصائرهم، وليس محصورا في قصد التسلية للرسول أولا وللمسلمين بعده إلى قيام الساعة، ولكن مهمته عظيمة جدا ينبغي أن تدفعنا لإعادة تثويره قصد الاستفادة من مقاصده جملة.

ولقد تبين بالملموس أن مفهوم الاستخلاف، بما هو نموذج مسوق للاستشهاد به، قد بين أن مختلف سماته وخصائصه، وما يمكن أن يستخلص منه من المعاني قد سيقت ضمن القصص القرآني، وهو ما يدفعنا إلى ضرورة تدبر القصص القرآني من مدخل مصطلحي (مفاهيمي)، قائم على الاستقراء التام، والدراسة المتأنية.وإنه ليلوح لي من ذلك فوائد جمة على رأسها تجاوز الادعاء بانحصار آيات الأحكام فيما تعارف عليه الناس، إلى اعتبار القصص القرآني موردا لبناء الأحكام الشرعية، انطلاقا من دعوى مفادها أن بناء المفاهيم الشرعية مثله مثل الأحكام الشرعية، فكما أن تأسيس الحكم الشرعي يحتاج إلى إقامة الدليل عليه هروبا من القول على الله بغير علم فكذلك بناء تعاريف المصطلحات

الشرعية ينبغي أن يستند إلى مقررات الشارع، لا إلى ما يعتقد المفسر أو يرى. كما يظهر أن القصص القرآني فضاء واسع أمام العلماء والباحثين والمفكرين، لتقليب النظر قصد استجلاء المقاصد الكبرى للقرآن، ومجال فسيح للتدبر قصد الوصول إلى السبل الكفيلة بتحقيق غايات القرآن ومراميه العالية بأيسر الطرق وأضمنها، وأن القصص القرآني فضاء رحب للعلوم الإنسانية نفسية كانت أو اجتماعية أو غيرها، تحث المسلمين على حسن استثمارها وتلح عليهم إلحاحا في ضرورة توظيفها؛ ولو أن المسلمين أدركوا ذلك وأحسنوا التعامل معه لكانوا قادة العلوم اليوم، في كل مجالاتها الإنسانية والكونية. هذا والله أعلم وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

لائحة المصادر والمراجع

1. **باهر البرهان في معاني مشكلات القرآن**، لبيان الحق محمود بن أبى الحسن النيسابورى الغزنوي نشر جامعة أم القرى بمكة، الطبعة الأولى سنة 1417هـ/ 1997م،
2. **بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز**، لمجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى تحقيق محمد علي النجار، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، نشر مفرقا خلال سنوات
3. **بيان المعاني** [مرتب حسب ترتيب النزول] لعبد القادر بن ملّا حويش السيد محمود آل غازي العاني (المتوفى: 1398هـ) نشر مطبعة الترقي – دمشق الطبعة الأولى، 1382 هـ - 1965 م
4. **التحرير والتنوير**، للشيخ محمد الطاهر بن عاشور، نشر الدار التونسية، الطبعة الأولى 1984م.
5. **التصوير الفني في القرآن الكريم** لسيد قطب، نشر دار الشروق القاهرة، الطبعة العاشرة 1425هـ-2004م.
6. **تفسير المنار تفسير القرآن الحكيم** لمحمد رشيد بن علي رضا، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الأولى 1990
7. **جمهرة اللغة** لأبي بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (المتوفى: 321هـ) تحقيق رمزي منير بعلبكي نشر دار العلم للملايين - بيروت الطبعة الأولى، 1987م.
8. **الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح** دراسة تقي الدين أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية ت728هـ وتحقيق: علي بن حسن بن ناصر الألمعي وغيره نشر دار الفضيلة، الرياض، المملكة العربية السعودية الطبعة الأولى، 1424هـ/ 2004م (390/4).
9. **دراسات مصطلحية** الشاهد البوشيخي، نشر دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، الطبعة الثانية 1433هـ-2012م

10. **الروح في الكلام على أرواح الأموات والأحياء بالدلائل من الكتاب والسـنة** لابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية - بيروت، 1395 هـ / 1975 م،

11. **الزهد** للإمام أحمد بن حنبل وضع حواشيه محمد عبد السلام شاهين نشر دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان الطبعة الأولى، 1420 هـ - 1999 م

12. **سنن العمران البشري في السيرة النبوية**، عبد العزيز البطيوي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الطبعة الأول 1439هـ/2018م.

13. **صحيح البخاري**، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي) الطبعة: الأولى، 1422هـ.

14. **العين** للخليل بن أحمد الفراهيدي تحقيق د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي نشر دار ومكتبة الهلال، دون رقم للطبعة ولا تاريخ للطبع.

15. **كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم** لمحمد بن علي التهانوي تحقيق: د. علي دحروج ونشر مكتبة لبنان ناشرون - بيروت الطبعة الأولى 1996م.

16. **الله والإنسان في القرآن-علم دلالة الرؤية القرآنية للعالم**، توشيهيكو إيزوتسو، ترجمة وتقديم د. هلال محمد الجهاد، توزيع مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى بيروت مارس 2007. ص (35-36).

17. **محاضرات في مقاصد الشريعة** لأحمد الريسوني، نشر دار الكلمة، الطبعة 3 1435هـ-2014م

18. **المحيط في اللغة** لإسماعيل بن عباد بن العباس، المشهور بالصاحب بن عباد (المتوفى: 385هـ)، تحقيق محمد حسن آل ياسين، نشر عالم الكتب الطبعة الأولى 1414هـ/1994م.

19. **المعجم الفلسفي**، مجمع اللغة العربية، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، الطبعة الأولى سنة 1406هـ/1983م

20. **مفردات القرآن**. عبد الحميد الفراهي، تحقيق وشرح محمد أجمل أيوب الإصـــلاحي، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى 2002

21.**المفردات في غريب القرآن** لأبي القاســم الحســين بن محمد المعروف بالراغب الأصـفهاني (المتوفى: 502هـ) تحقيق صـفوان عدنان الداودي ونشر دار القلم والدار الشامية – دمشق/ بيروت الطبعة الأولى سنة 1412 هـ.

22.**مقاييس اللغة** لأحمد بن فارس بن زكرياء القزويني تحقيق عبد الســلام محمد هارون نشر دار الفكر الطبعة الأولى: 1399هـ - 1979م.

23.**المنتخب من مســند عبد بن حميد،** أبو محمد عبد الحميد بن حميد بن نصرـ الكسي، تحقيق صبحي البدري السامرائي ومحمود محمد خليل الصعيدي، نشر مكتبة السنة القاهرة، الطبعة الأولى 1408هـ/ 1988م

القصة في نظام الاستخلاف القرآني
النسق القيمي والفني

د. إدريس التركاوي
أستاذ باحث في الدراسات الإسلامية وفي الأدب والفن

مقدمة:

للقصة في القرآن وظيفتها المنهجية والتكميلية. فهي وسيلة من وسائل القرآن الكثيرة إلى أغراضه الدينية، شأنها في ذلك شأن جميع الصور والقضايا الفنية، والمداخل البيانية التي يوظفها القرآن للنعيم والعذاب والقيامة والبعث والحشر.. وشأن الأدلة التي يسوقها لتقرير التشريع وأحكام العبادات والمعاملات. وشأن الأمثال التي يضربها، والبراهين التي يستدل بها، والظواهر التي يصفها. وبهذا تخالف القصة القرآنية القصة الفنية الحرة، التي ترمي إلى أداء غرض فني حر. وذلك لأن القرآن كتاب دعوة دينية وهداية للناس قبل كل شيء، فلا جرم كان كل ما يستدعيه من قضايا فنية وأدلة حجاجية وتقارير وصفية ونماذج بشرية وعناصر كونية ومادية...الخ؛ ينبغي أن لا يخرج عن خدمة هذه الغاية النبيلة. والقصة إحدى وسائله لإبداع هذه الغاية وتثبيتها.[1]

وإذا كان الأمر كذلك؛ فإن سؤالا مركزيا سينتاب الذهن إذا ما نحن سلمنا بهذه المقدمة المنطقية الحاكمة، وذلك لأن طريقة عرض القصة ستكون بالضرورة متلبسة بطريقة القرآن في عرض قضاياه، ما دامت تتقاطع معها في الوظيفة الكبرى، وما دامت هذه الوظيفة هي

---

(1) التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، ص143.

المستولية على كل القنوات التي تعَرِّفُ بها داخل النظم القرآني. فما هي إذن طريقة القرآن في عرض هذه القضايا؟

ومن جهة أخرى؛ إذا كان القرآن قاصدا إلى بناء الإنسان وبيان وظيفته الوجودية، من خلال قصة الخلق وما استتبعها من تكاليف للأمانة التي استخلف من أجلها؛ ألا يعد هذا في بادئ النظر موجها أساسيا للبحث في القصة، كما هو موجه مركزي للبحث في سائر القيم التشريعية والإنسانية والكونية في القرآن؟

ولأن القرآن يحرص كثيرا على دمج الفن مع الدين في رصف قضاياه والتنبيه إلى قيمه، كما قرر نظار اللغة والبيان كما سيأتي؛ ألا يكون للقصة حينها نصيب من هذا الدمج، سيما وأنها تتقاطع مع القصة البشرية في كثير من الخطوط ضمن هذا الاتجاه؟

تضعنا هذه الفروع الإشكالية من السؤال المركزي حول طريقة القرآن؛ أمام مفترق طرق مع سائر المناهج التي توخاها نظار العلوم والأدب لمعالجة الفن القصصي واستنباط قيمه. فقد كانت هذه المناهج متأثرة بالتخصصات العلمية والمذهبية إلى أقصى حد، بينما نجد وحدة الوظيفة التي ساقها القرآن غرضا أعلى لجميع قضاياه؛ هي ما يستفز الباحث ويدفعه إلى إعادة النظر في طرائق تلك العلوم.

لعل هذا كان هو السبب الذي دفع بكثير من أهل الفن من علماء التفسير والأدب، ليبحثوا في طبيعة هذه الوحدة أو هذا النسق أو هذا النظام، إيمانا منهم بأن الدراسات الموضوعية خارج هذا النظام؛ هي محاولات مبتورة تتلمس الكشف عن الجزئيات بعيدا عن نظامها الذي يحكمها، وعن طبيعة هذا النظام الذي تطبعه خصوصية الإعجاز. تماما كمن يبحث عن نوع الثمرة بعيدا عن طبيعة الشجرة التي أثمرتها، وأي نوع تكون هذه الشجرة، وكيف سرت الحياة والنضج منها إلى تلك الثمرة، مرورا بفروعها وأغصانها وجذورها. وقبل ذلك وبعده؛ عن النواة التي رسمت خريطة الحياة في الشجرة والثمرة معا.

وهكذا أيضا هي طبيعة السورة القرآنية؛ حيث تتوالى داخلها القضايا والمعاني والقيم وتتكاثف وتتناغم مشكلة نظاما معينا، طبيعته لا تخرج عن وظيفة القرآن في تقديم الهدى

والإيمان للبشرية. فتبدو القصة داخل هذا النظام مثل ورقة جميلة في الشجرة، أو مثل غصن ندي يعكس نور الشمس، أو جذع خفي يتسرب منه الماء والحياة إلى الشجرة مع ثمرتها.

من هنا إذن سيقت هذه الورقة؛ مؤمنة بأن البحث في الفن القصصي في القرآن، لا يعدو أن يكون بحثا في صميم السورة القرآنية نفسها، وفي شجرتها المعقدة ذات الطابع الشبكي، التي تتداخل فيها الخيوط التواصلية بين قضاياها ومع مركزها؛ كما تتداخل الحجرات وتتناسق في تشكيل وظيفة المعمار وجمالية صورته، "فبين كل قطعة وجارتها رباط موضعي من أنفسهما، وكما تلتحم الأعضاء في جسم الإنسان، فيلتقي العظمان عند المفصل ومن فوقهما تمتد شبكة من الوشائح تحيط بهما عن كثب، وكما يشتبك العضوان بالشرايين والعروق والأعضاء. ومن وراء ذلك كله يسري في جملة السورة اتجاه معين، وتؤدي بمجموعها غرضًا خاصًا، كما يأخذ الجسم قوامًا واحدًا، ويتعاون بجملته على أداء غرض واحد، مع اختلاف وظائفه العضوية"[1].

من هنا ارتأينا أن تكون فرضيات تلك الأسئلة مقتطعة من طبيعة ذلك النظام داخل القرآن، وأن هذا النظام حين يعرض القصة الفنية يكون الكشف عنه -في محاولتنا- خاضعا لأقطاب ثلاثة مندمجة فيما بينها ومتشابكة كما في الشكل أسفله، على أن يكون هناك نموذج تطبيقي نسوقه للتمثيل هو قصة بني إسرائيل على امتداد سورة البقرة. هذا كله مع التدليل على أن قانون الاستخلاف هو النسغ الذي يسري في جوهر هذا النظام لا يفارقه قيد أنملة.

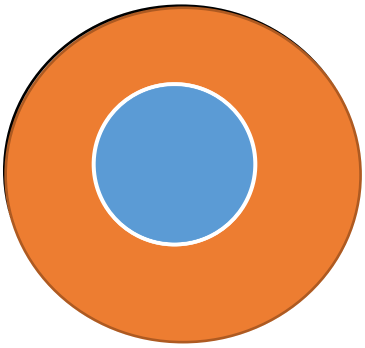

- القيم الوجودية الاستخلافية (النواة).
- أحداث القصة ووقائعها (جوهر للقصة).
- القوالب التعبيرية الفنية (القشرة السطحية او الغلاف).

(1) النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم، محمد عبد الله دراز، ص188.

1) القصة في القرآن وفق التصور الإسلامي للكون والحياة.

يستمد الفن القصصي تصوره للحياة والأحداث والأشياء من التصور الإسلامي. فهو لا يصادم في النهاية شيئا من مفاهيمه الإيمانية أو قيمه الوجودية والإنسانية، "فلا يحسن الشر، ولا يقبح الخير، ولا يدعو الى المنكر، ولا يبارك لحظة الضعف ويجعل منها بطولة، ولا يقبع داخل الواقع الصغير الذي تحكمه الضرورة القاهرة، ويهمل الواقع الكبير الذي يتسع للضرورة كما يتسع للانطلاق من الضرورة. ولا يفصل بين السماء والأرض، ولا بين الانسان والله"[1].

وإذا كان تصور القرآن للكون والإنسان منوطا ابتداء بمهمة هذا الانسان، التي حددها ميثاق الاستخلاف، وقامت الدساتير التشريعية بتصريفها في الخارج في شكل قوانين تكليفية، وقيم تعبدية وإنسانية؛ فإن الفن القصصي سيكون لا محالة متأثرا بهذا التوجه الديني، جاعلا أحداثه رهن إشارة تلك القيم. من ثم بادر الحدث القصصي ليعلن عن خدمة هذه الوظيفة في كل قصة قرآنية بالمنطوق أو بالمفهوم. فكانت الغاية منه في النهاية هي إرساء السَّنن الإلهية في الكون؛ تحقيقا للكمال الإنساني المؤهل لمهمة الاستخلاف في الأرض. إن "هذا الشرط الاستخلافي أساسي في مرامي القصة القرآنية، يعطيها طابع الجوهرية في دعوة كل مرسل، رغم اختلاف الملابسات التاريخية والبيئية التي يتحرك فيها الرسل"[2].

وارتباط الأحداث القصصية بمبدأ الاستخلاف يحصل من خلال معيارين على الأقل؛ إعادة شحذ الذاكرة، ثم المكان الأرضي.

فيما يخص الذاكرة: فلو أخذنا مثلا قصة نوح لألفيناها حادثة منتهية في زمن ماض غابر، لكن الذاكرة إذ تستحضر هذا الحدث تصوريا؛ فإنما تهبه قوة الاستمرار والديمومة[3].

الذاكرة هنا بمثابة "أرشيف" للأحداث، لكنها أحداث نائمة أو بالأحرى خامدة، تأتي شعاعات الوحي من خلال القصص القرآني لتعيد تنشيطها مرة أخرى، فيشتعل فتيل القيم

---

(1) منهج الفن الإسلامي، محمد قطب، ص 157.

(2) الخطاب القرآني: مقاربة توصيفية لجمالية السرد القرآني، عشراتي سليمان، ص91.

(3) نفسه: ص117.

الكونية والسنن الوجودية العامة التي تقبع داخلها، ويلتقي الحاضر مع الماضي، ويحصل الشبه في الأفعال الإنسانية تأثرا وتأثيرا. حينها بإمكان الإنسان أن يتفطن إلى العلل والنتائج والقيم. وهذا مربط الفرس في سرد القصص وتكرارها من الناحية السيكولوجية والاجتماعية. فللقصة بعدها التربوي والاجتماعي في الفرد وفي المجتمع لا يخفى.

ومن هنا يتشكل النظام أو النسق الذي يرومه القرآن، إذ ليس هو سوى منظومة الأحداث والظروف والعلل العمرانية والنفسية والاجتماعية التي تسوقها القصة، بغية تشكيل القيم بنوعيها معا: قيم الاستخلاف والأمانة في بعدها الكوني والوجودي، والقيم التعبدية الإيمانية في بعدها الأخلاقي والتشريعي. من ثم يستدمج القرآن الكريم القصة في السياق، لتؤدي وظيفتها الاستخلافية داخل النظام الكلي (SYSTEM) للمجتمع[1]. وليست هذه الوظيفة سوى بيان التفاعل والتدافع الحاصل بين القيم في حركة التاريخ الإنساني بشكل "ديالكتيكي" تركيبي متناقض، موضوع رهن إشارة هذا المجتمع، ليستفيد منه، من خلال إحياء محركه في النفس والمجتمع. وهذا النظام المحرك؛ هو ما ينبئ عنه نسق اللغة والنظم داخل القرآن، وهي تربط بين تلك الأحداث في الخارج وبين موضعها الفني داخل السورة القرآنية.

والقصة القرآنية إذ تتوجه في البداية إلى الجماعة المسلمة في المدينة، بقصد الإصلاح والتوجيه وأخذ العبرة؛ فإنما غاية ذلك أن تأخذ هذه الجماعة منزلتها في نظام الاجتماع البشري في التاريخ، إذ تغدو عنصرا في "أرشيف" هذا النظام، يستفيد منها من سيجيء بعدها ممن ينتمي إليها أو هو خارج انتماءها. وهذا هو جوهر الطابع الاستخلافي في القصة القرآنية.

وتنغرس في قلب النظام الاجتماعي بذرة هي التي تمثل جوهره، تتمثل في الهدى والإيمان. وحين يأتي الوحي يسلط شعاعه على هذه البذرة، فتنمو وتغدو شجرة ذات ظلال وارفة بفعل الاستبصار (في مقابل الخمود). فهو العاكس الروحي "لاستعادة دور الوحي

---

(1) النسق القرآني ومشروع الإنسان، جاسم سلطان، ص15.

التربوي والاجتماعي في النفس وفي المجتمع"[1]. أي أن وظيفة الوحي المتمثلة في الهداية والإصلاح والتوجيه موجودة بالقوة في قلب النظام الذي تمثله فطر الناس واستعداداتهم، ثم يأتي الوحي عبر آلية الاستبصار لاسترجاع هذه الوظيفة. وهكذا يشرع النظام بعملياته في الاشتغال لتوفير متطلبات الجماعة المادية والمعنوية، وعبر ما نسميه بالتغذية الراجعة Feed back.

فيما يخص المكان الأرضي: البعد الاستخلافي في القصة يقتضي استدعاء خصائص الواقعة والأحداث، وخصائص نماذجها الإنسانية، وصفات الأفعال، وظروف الأزمنة والأمكنة.. بيد أن هذا كله لا يخرج عن فضاء واحد هو الأرض. فالهبوط من الجنة إلى الأرض له رمزيته الكاملة هنا. إذ لا معنى للاستخلاف إلا مع اعتبار الأرض مجالا لتنفيذ قدر الله على آدم وذريته، وجعلها مسرحا لمشاهد الطاعة والمعصية، الهبوط والسقوط. لذلك طفقت أول قصة في القرآن تحشد من القضايا والرموز والقيم؛ ما تقرر به هذه الحيثية. يقول الدكتور سليمان عشراتي في سياق تحليله لقصة الخلق:" اقترف الانسان أول خطاياه بمخالفة أمر الله، فأقصي عن الفردوس السماوي، ليعيش قدره الأرضي وهو يحمل في طبعه عوامل التوبة والانحراف. فالأرض بهذا الاعتبار هي مجال غواية لهذا الانسان الذي زلت به القدم وهو في حضرة الله؛ لأنها باتت منفاه ومسكنه ومسرح أفعاله، فيها محياه ومماته، وهي نفسها مجال تطهره وتساميه عن بواعث الزلل والسقوط، ولعل في رمزية فعل التيمم إيحاء بكنه هذا المآل الوجودي، الذي ربط الانسان بالأرض، حيث قدر له أن يعيش على هذا الصعيد الكوني وجودا مسؤولا. ومن ثم فالخطاب القرآني إذ باشر الإنسان؛ فإنما باشره في اطاره المكاني الأرضي، وفي الكون الذي اوجده فيه"[2].

وفي هذا التقرير الذي ساقه الأستاذ عشراتي، إشارة مهمة توضح أن عمليتي الفساد والصلاح مركوزة في طبع هذا المخلوق الكوني، وبمقتضاها تمت أولى عمليات الاستخلاف،

---

(1) الفطرية بعثة التجديد المقبلة من الحركة الإسلامية إلى دعوة الإسلام، فريد الأنصاري، دار السلام، القاهرة، ط.1، 2009م: ص 14.

(2) نفسه: ص159.

حيث تلعب الذاكرة دورا مهما في التغذية والاسترجاع. الشيء الذي جعل الخطاب القرآني يسوق القصص من أجله. بيد أن هذه الغاية ارتبطت بالأرض أول مرة، ولم يكن هذا الارتباط إلا لأن هذه الأرض وحدها هي القمينة باستضافة مسرح الاستخلاف، وعملياته، والإنسان المستخلف ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 30]

ثم لم يكن الزمن بعد ذلك سوى حيثية تزيد من تقرير هذه "الغائية التعميرية الاستخلافية" [1]. إذ هو في القرآن مجرد إطار للحدث تجري فيه مقاصده وهي: الاستخلاف مع شرط التعمير والمسؤولية.

1)طريقة القرآن في سوق القصة واستفادة القيم.

1. مراعاة النسق الموضوعي:

ذلك أننا نتكئ في هذا التقرير على دعوى أخرى مفادها؛ أن موضوع القصة تابع لموضوع السورة وخادم له وملتف حوله. وموضوع السورة ليس هو موضوع القرآن بكامله؛ بل فيها محرك موضوعي تدور حوله لا تخرج عنه، ولهذا الموضوع امتدادات في سائر السور الأخرى. بيد أن طبيعة وجوده في نظم تلك السورة غيرُ هِيَ حينما يرتبط بسور أخرى فيشكل موضوعها.

إننا نؤمن بأن لكل سورة شخصيتها وظلالها ومناخها الخاص، الذي تجري فيه أحداثها، وتتناسق ألفاظها، وتتحدد قيمها، وتستقل سماتها، تماما مثل أيِ كائن حي له سماته ومميزاته وصفاته؛ يشبه أن يكون ما بينه وبينها مثل ما بين الابن وأبيه، فأنت حين تنظر إلى الابن تلمح فيه من سمات التشابه والخصائص البيولوجية المشتركة بينه وبين الأب؛ ما يهجم عليك في أول نظرة إليه، ويستحيل غض الطرف عنه، بيد أنك تجد إزاء ذلك من السمات الفارقة والملامح المميزة؛ ما يقذف في روعك اليقين بأن الابن غيرُ أبيه. وتكون تلك

(1) نفسه: 14.

المميزات والملامح بمثابة البرهان الوراثي والوجودي الذي يقطع بذلك، فلا ينتابك ريب في نسبه من أبيه، لكن أيضا من غير شك -قد يخالجك- في أنه ليس هو بل غيرَه.

إن هذا هو ما يشكل حقيقة النظام داخل نصوص القرآن، فقد بات "الاستدعاء الفردي للنصوص خارج هذا النظام الكلي الذي تشتغل عليه النصوص؛ هو سبب أساسي في إشاعة الاضطراب في كل أوجه الحياة داخل البيئة الإسلامية، إلى حد التناقض المفضي إلى الهلاك"[1]. غير أن هذا النظام لا يخرج -كما يقرر أحد المفكرين المعاصرين - عن الموجهات الكبرى للنسق القيمي في القرآن، التي تتبدى في هذا المخلوق الجديد "الإنسان" وهي:

- الاستخلاف والتسخير: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: 13].

- قبول حمل الامانة: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: 72].

من خلال هذا التقرير؛ طفقت القصة في القرآن تبثُّ وظيفتها التكميلية، بوصفها واسطة بيانية تبليغية لناموس سماوي، غايته تجدير العقيدة، وتوطيد ذلك النظام القاصد إلى إرساء حياة متكاملة للإنسانية، وتغيير ما بالنفوس من جهالة وشرك وعبودية[2]. لكن ما القناة الفنية التي ارتضاها القرآن لإرساء قيمه عموما وقيم القصص على وجه الخصوص؟

2. التناسق الفني داخل النظام مدخل استفادة القيم.

والجواب كما ترى؛ ذلك أننا حين ننظر إلى السورة القرآنية بهذه النظرة، سنجد كل الصور الجزئية المتعلقة بقضية ما من القضايا "تتلاحم في داخل السياق، وتتفاعل ضمن شبكة من العلاقات للإيحاء بالصورة الكلية"، [3] كما قال الأستاذ عبد السلام الراغب. ثم يمثل بنموذج تصوير الأمثال داخل هذا النظام فيقول: "يعتمد تصوير الأمثال على مجموعة من العلاقات المتضافرة، التي تتواصل فيما بينها، لتكوين شبكة تصويرية، تقوم بدورها في

---

(1) النسق القرآني جاسم: ص09.

(2) الخطاب القرآني، عشراتي سليمان: ص68.

(3) وظيفة الصورة الفنية في القرآن، عبد السلام أحمد الراغب، ص85.

التعبير عن القضايا الدينية، التي جاء القرآن الكريم، لترسيخها في الأذهان، وتعميقها في القلوب، والعلاقات النصيّة في الأمثال داخلية تربط الأمثال القرآنية، بعضها ببعض، بروابط تعبيرية وتصويرية وفكرية تكسبها خصوصية وتميّزا عن الأمثال الجارية المعروفة عند العرب"[1].

والشاهد عندنا هنا، أن البحث في أي موضوع: حكما تشريعيا كان أو حِكَماً تربوية أو قضية أخلاقية أو نموذجا بشريا أو صورة فنية، مثل هذه الأمور وأمثالها لا يوقف على حقيقتها مكتملة في القرآن إلا في إطار شبكتها التواصلية، أو علاقاتها المعنوية والموضوعية فيما بينها، ثم من خلال ارتباطها بالعمود المحرك لتلك الموضوعات داخل السورة، تماما مثلما حكى الأستاذ الراغب في قضية الأمثال في القرآن. وهذا المقصود تماما بالنظام داخل السورة.

ثم إذا رجعنا إلى القرآن نفسه كرة أخرى؛ فسنلفي أن الأصل المرجعي لهذه النظام الشبكي ملاحظ في أكثر من مقام، وبحسب طبيعة ذلك المقام، وإلى أي اتجاه يتجه، وما الأدلة الحجاجية والبرهانية التي استند إليها في إثبات المطلوب. وفي كل الأحوال فالقسط الوافر من السور اعتمد الدمج بين أدلة متباينة من حيث المصدر؛ منها ما هو لغوي فني في قمة الإعجاز، ومنها ما هو كوني عمراني، ومنها ما هو عقلي منطقي ضارب في عمق الفطرة الإنسانية، ومنها ما يمس الضمير أو العاطفة، ومنها ما هو تاريخي اجتماعي يعتمد قصص الجماعة والأمم الغابرة، بقصد تشكيل "أرشيف" للذاكرة الإنسانية يمتح المتدبر منه العبر والدروس والعظات.

فهذه الاتجاهات العلمية وما شاكلها على اختلاف توجهاتها، تراها في السورة قد ساقها النظم متلطفا في ترتيب بعضها على بعض، متوجها بها تارة إلى عقل الإنسان، وتارة إلى وجدانه وعاطفته، وتارة ثالثة إلى واقعه الكوني الذي خلق فيه تناغما مع سائر المخلوقات. وذلك حتى يسيطر على النفس البشرية من كل جانب، فلا يدع وترا منها إلا وقد لمسه لمسة

---

(1) نفسه: ص155.

توقظه إلى المطلوب، وتستحثه للنظر والاعتبار. مما يجعل العملية برمتها خاضعة لنظام تركيبي معقد في مطالب السورة، وأدلتها، ومقاصدها، لكن في صورة تواصلية متينة وميسرة تتميز بالعمق والبساطة.

والمقصود أن خطاب الله تعالى في قرآنه، كان دائما مراعيا لطبيعة المتلقي في ظاهرته المركبة، بين ما هو ديني وما هو فني، جامعا بين الصورتين في أدق أسرار الإعجاز. يقول سيد قطب: "إن التعبير القرآني يؤلف بين الغرض الديني والغرض الفني، فيما يعرضه من الصور والمشاهد، بل لاحظنا أنه يجعل الجمال الفني أداة مقصودة للتأثير الوجداني، فيخاطب حاسة الوجدان الدينية بلغة الجمال الفنية. والفن والدين صنوان في أعماق النفس وقرارة الحس. وإدراك الجمال الفني دليل استعدادٍ لتلقي التأثير الديني، حين يرتفع الفن إلى هذا المستوى الرفيع، وحين تصفو النفس لتلقي رسالة الجمال"[1].

إن حقيقة النظام تنطلق من مبدأ التناسق بين اللغة والصورة وبين الدين والفن، وتنتهي لزوما عند فكرة الجمال المتولدة عنهما. ومن هنا يبدو جليا مركزية الجمال والفن في تشكيل النظام، إذ ليس الفن عرضا هامشيا تنبئ عنه ألفاظ الاستعارة والتمثيل والمجاز فقط، كما كان عند أغلب نظار اللغة والبلاغة، بل هو خاصية جوهرية في نظام الإعجاز. فكان واجبا إذن أن يلتقي في هذه الوحدة "الغرض الديني بالغرض الفني، وذلك الشأن في جميع الصور التي يرسمها القرآن"[2].

وما يجعل هذا النظام أكثر فاعلية هو ربطه في الإنسان بما أسماه سيد قطب بـ "أجهزة الاستقبال الفطرية"[3]، أو "أجهزة التلقي الفطرية"[4]. وهو مركب اصطلاحي يعكس تجاوب الفطرة مع الوحي، ذلك لأن الله حين خلق الإنسان "زوده بوسائل الإدراك، ليستطيع التلقي

---

(1) لتصوير الفني، سيد قطب، مرجع سابق، ص143.

(2) نفسه: ص45.

(3) في ظلال القرآن، سيد قطب، 2095/4

(4) نفسه: 1803/3.

والاستجابة"[1]. ومن أعظم غايات هذا التلقي من الناحية الاستخلافية والتكليفية: "تلقي آيات الله في استقبال تكاليف هذه العقيدة"[2]. ومن الناحية التعبدية "تلقي هدى الله"[3]. أي شريعة الله العملية.

والمقصود اتحاد البعد الاستخلافي مع البعد التشريعي داخل النظام برمته، من خلال قناة التناسق الفني، وتأتي القصة لتكون حلقة ضمن سلسلة الوسائل الفنية، العاكسة لحقيقة هذا النظام المزدوج القطبين داخل السورة القرآنية، "بالقدر وبالطريقة التي تناسب الجو والسياق، وتحقق الجمال الفني الصادق، الذي لا يعتمد على الخلق والتزويق، ولكن يعتمد على إبداع العرض، وقوة الحقيقة، وجمال الأداء"[4]. فتتناول "ذات الحقائق التي يركز عليها سياق السورة، وتظهر فيها ذات الخطوط العريضة فيها. ومن ثم يتجرد هذا القصص من الملابسة الواقعة المحدودة التي ورد فيها، ويبقى عنصرا أصيلا مستقلا يتضمن الحقائق الأصيلة الباقية في التصور الاعتقادي الإسلامي"[5].

والمقصود أن صناعة القيم داخل القصص القرآني؛ لا يكون إلا بمراعاة الوحدة البيانية، والتناسق الفني بين القضايا وقيمها. ومن جهة أخرى فإن (الأحداث الكونية) الخارجية لزم أن تكون "دائمًا مطاوعة ومعاونة وبدقة لنظام هذه الوحدات البيانية"[6]، كما يقرر الشيخ دراز، وأن هناك يدا علوية تآخي بين هذه الوحدات وتلك النسبة الخارجية المتمثلة في أسباب النزول. وإن هذا التآخي في ذاته لبرهان قاطع وحجة ساطعة على استئثار المتكلم بكلماته. مما جعل هندسة المقاصد والقيم في القرآن الكريم في أعلى قمة من الإعجاز.

---

(1) نفسه: 8/ 3780.

(2) نفسه: 1741/3.

(3) نفسه: 1333/3.

(4) نفسه: 87/1.

(5) نفسه: 782/1.

(6) نفسه: ص188.

2)تجليات النسق الفني في القصص القرآني: قصة بني إسرائيل في سورة البقرة نموذجا.

تعد سورة البقرة من أعظم السور العاكسة لهذا الانسجام بين نظام السورة الداخلي وبين الأحداث الخارجية، وأن جميع القصص المسوقة داخل السورة كانت تمثل لبنات في جسم السورة ونظامها البنائي، تؤدي من خلاله وظيفتها الكلية، المنوطة بقصة الاستخلاف، دون إخفاء وظائفها الفنية والقيمية في ارتباطها بسائر قضايا وقصص السورة الأخرى.

من هنا سيقت قصة بني إسرائيل لتكون لبنة داخل نسق السورة برمتها، مؤدية وظيفتها الفنية في ارتباطها بقيم العمود وموضوعاته. وذلك ما سنبينه كما يلي:

1. عمود سورة البقرة.

هذه السورة - بحسب تقرير بعض النظار من أهل التدبر على رأسهم سيد قطب والشيخ دراز- تضم عدة موضوعات. ولكن المحور الذي يجمعها كلها محور واحد مزدوج يترابط الخطان الرئيسيان فيه ترابطا شديدا:

المحور الأول: تدور قضاياه حول موقف بني إسرائيل من الدعوة الإسلامية في المدينة، واستقبالهم لها، ومواجهتهم لرسولها ﷺ وللجماعة المسلمة الناشئة على أساسها، وسائر ما يتعلق بهذا الموقف بما فيه تلك العلاقة القوية بين اليهود والمنافقين من جهة، وبين اليهود والمشركين من جهة أخرى.

أما المحور الثاني: فتدور قضاياه حول موقف الجماعة المسلمة في أول نشأتها، وإعدادها لحمل أمانة الدعوة، والخلافة في الأرض، بعد أن تعلن السورة نكول بني إسرائيل عن حملها، ونقضهم لعهد الله بخصوصها، وتجريدهم من شرف الانتساب الحقيقي لإبراهيم -عليه السلام- صاحب الحنيفية الأولى، وتبصير الجماعة المسلمة وتحذيرها من العثرات التي سببت تجريد بني إسرائيل من هذا الشرف العظيم.

وكل موضوعات السورة تدور حول هذا المحور المزدوج بخطيه الرئيسيين. إن هذا العمود هو الذي وضع اللبنات الأساس لعمران السورة في تأسيس قيمها، وجعل قضايا متشابكة ومنسجمة تربطها به بحبال من الود والانسجام، في صورة جمالية هي التي أضفت الطابع الفني على جسم السورة ونظامها.

والشاهد عندنا هنا هو حصول توافق جلي، بين زمن نشوء الدعوة الإسلامية وملابساتها المكانية والزمنية، وبين قيم هذه الدعوة وقضاياها داخل نظام السورة "مع التنبيه الدائم إلى أن هذه الملابسات في عمومها هي الملابسات التي ظلت الدعوة الإسلامية وأصحابها يواجهونها - مع اختلاف يسير - على مر العصور من أعدائها وأوليائها على السواء"[1]. فلننظر مظاهر هذا التوافق باختصار الذي حصل بين بنية السورة وروافدها الخارجية.

2. قصة يهود: البحث عن أرضية صالحة لنشوء الجماعة الإسلامية والدولة الإسلامية.

يبين سيد قطب أن هجرة الرسول ﷺ تمت إلى المدينة بعد تمهيد ثابت وإعداد محكم، وتحت تأثير ظروف حتمت هذه الهجرة، وجعلتها إجراء ضروريا لسير هذه الدعوة في الخط المرسوم بقدر الله.. وبعد أن أبانت قريش عن موقفها العنيد من الدعوة في مكة -وبخاصة بعد وفاة خديجة - رضي الله عنها - وموت أبي طالب كافل النبي ﷺ وحاميه؛ كان هذا الموقف قد انتهى إلى تجميد الدعوة تقريبا في مكة وما حولها. ولم تعد مكة صالحة لبناء قاعدة الدعوة. ومن ثم كان بحث الرسول ﷺ عن قاعدة أخرى غير مكة، وتخليصها من هذا التجميد الذي انتهت إليه في مكة. حيث تظفر بحرية الدعوة وبحماية المعتنقين لها من الاضطهاد والفتنة... ولعل هذا كان هو السبب الأول والأهم للهجرة. كان ذلك بعد محاولات البحث عن تلك القاعدة من خلال الهجرة إلى الطائف والحبشة. فلم يجد النبي ﷺ فيهما سوى مزيد معاناة وتعب. بعد ذلك جاء الفتح على الدعوة، فكانت بيعة العقبة الأولى، ثم بيعة العقبة الثانية. وهما ذواتا صلة قوية بموضوع السورة، وبالملابسات التي وجدت حول الدعوة في المدينة، فمهدتا هما معا السبيل لهجرة المؤمنين إلى المدينة. فطفق المسلمون في مكة يهاجرون تباعا، تاركين وراءهم كل شيء، ناجين بعقيدتهم وحدها، حيث لقوا من إخوانهم الذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم، من الإيثار والإخاء؛ ما لم تعرف له الإنسانية نظيرا قط.

---

(1) نفسه: 32/1.

ثم هاجر الرسول ﷺ وصاحبه الصديق. وقامت الدولة الإسلامية في هذه القاعدة منذ اليوم الأول لهجرة الرسول ﷺ من خلال البنود الدولية والقيمية التي أرساها ﷺ في ميثاق المدينة، خاصة بين اليهود والمسلمين من المهاجرين والأنصار. ومن أولئك السابقين من المهاجرين والأنصار تكونت طبقة ممتازة من المسلمين، نوه القرآن بها في مواضع كثيرة.

وهنا نجد السورة تفتتح بتقرير مقوّمات الإيمان، وهي تمثل صفة المؤمنين الصادقين إطلاقا. ولكنها أولا تصف ذلك الفريق من المسلمين الذي كان قائما بالمدينة حينذاك: ﴿الم ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: 2 – 5]. ثم نجد بعدها مباشرة في السياق وصفا للكفار، وهو يمثل مقومات الكفر على الإطلاق. ولكنه أولا وصف مباشر للكفار الذين كانت الدعوة تواجههم حينذاك، سواء في مكة أو فيما حول المدينة ذاتها من طوائف الكفار.

كذلك كانت هناك طائفة المنافقين. ووجود هذه الطائفة نشأ مباشرة من الأوضاع، التي أنشأتها الهجرة النبوية إلى المدينة في ظروفها التي تمت فيها، من قبل ولم يكن لها وجود بمكة. والإسلام في مكة لم تكن له دولة ولم تكن له قوة، بل لم تكن له عصبة يخشاها أهل مكة فينافقونها. فأما في يثرب؛ فقد أصبح الإسلام قوة يحسب حسابها كل أحد ويضطر لمصانعتها كثيرا أو قليلا، وبخاصة بعد غزوة بدر وانتصار المسلمين فيها انتصارا عظيما. وفي مقدمة من كان مضطرا لمصانعتها نفر من الكبراء، دخل أهلهم وشيعتهم في الإسلام وأصبحوا هم ولا بد لهم، لكي يحتفظوا بمقامهم الموروث بينهم وبمصالحهم كذلك، أن يتظاهروا باعتناق الدين الذي اعتنقه أهلهم وأشياعهم. وطائفة أخرى ثالثة وهم اليهود والتي أشارت إليهم السورة بكلمة "الشياطين"؛ كانوا أول من اصطدم بالدعوة في المدينة، وكان لهذا الاصطدام أسبابه الكثيرة.

منها: مركزهم الممتاز بين الأوس والخزرج، وبين مشركي العرب الذين كانوا يعدونهم أعلم منهم وأحكم بسبب ما لديهم من كتاب. كما كانوا لا يتوانون في زند الفرقة والخصام بين هاته الفرق لكسب مصالحهم التي خولها لهم مقامهم بينهم. فلما أن جاء الإسلام سلبهم

هذه المزايا جميعا، مزيلا الفرقة التي كانوا ينفذون من خلالها للدس والكيد وجر المغانم. ووحد الصف الإسلامي الذي ضم الأوس والخزرج، وقد أصبحوا منذ اليوم يعرفون بالأنصار بالإضافة إلى المهاجرين، فألف منهم جميعا ذلك المجتمع المسلم المتضامن المتراص الذي لم تعهد له البشرية من قبل ولا من بعد نظيرا على الإطلاق[1].

ومنها: أنهم يزعمون أنهم شعب الله المختار، وأن فيهم الرسالة والكتاب. فكانوا يتطلعون أن يكون الرسول الأخير منهم كما توقعوا دائما. لكن توقعهم باء بالفشل، فأخذتهم العزة بالإثم، وعدوا توجيه الدعوة إليهم إهانة واستطالة! ثم إنهم حسدوا النبي ﷺحسدا شديدا. حسدوه مرتين: مرة لأن الله اختاره وأنزل عليه الكتاب، وهم لم يكونوا يشكون في صحته وحسدوه لما لقيه من نجاح سريع شامل في محيط المدينة.[2]

ومنها: شعورهم بالخطر من عزلهم عن المجتمع المدني الذي كانوا يزاولون فيه القيادة العقلية والتجارة الرابحة والربا المضاعف، أو يستجيبوا للدعوة الجديدة. ويذوبوا في المجتمع الإسلامي. وهما أمران -في تقديرهم- أحلاهما مر!

لهذا كله؛ وقف اليهود من الدعوة الإسلامية هذا الموقف الذي تصفه سورة البقرة في تفصيل دقيق، وجحودهم لنعم الله عليهم، وفسوقهم عن كتابهم وشريعتهم ونكثهم لعهد الله معهم وتحذير المسلمين منهم، والتذكير بتاريخهم الأسود مع نبيهم موسى عليه السلام. ومن ثم تتضمن السورة حملة قوية على أفاعيلهم هذه، وتذكرهم بمواقفهم المماثلة من نبيهم موسى -عليه السلام- ومن شرائعهم وأنبيائهم على مدار أجيالهم. وتخاطبهم في هذا كأنهم جيل واحد متصل، وجبلة واحدة لا تتغير ولا تتبدل.

وتنتهي هذه الحملة بتيئيس المسلمين من الطمع في إيمانهم لهم، وهم على هذه الجبلة الملتوية القصد، المؤوفة الطبع. كما تنتهي بفصل الخطاب في دعواهم أنهم وحدهم المهتدون، بما أنهم ورثة إبراهيم[3].

---

(1) نفسه: 40/1.

(2) نفسه: 41/1.

(3) نفسه: 44/1.

3. تعبئة القصة واستدماجها.

وهكذا نستطيع بالوقوف على هذه الحيثيات الخارجية والملابسات الواقعية التي أحاطت بنشأة الجماعة/الدولة المسلمة؛ أن نقف شيئا فشيئا عن سر إدماج قصة اليهود داخل السورة، وأن ذلك كان بمثابة الوجه البرهاني الصادق العاكس لحقيقة يهود، وإبراز تاريخهم وقيمهم، وحقائق أفعالهم، وألوانهم التي طبعتهم على مر الأجيال، بقصد أن تكون صورتهم واضحة صادحة أمام النبي عليه السلام وجماعته، وهم يؤسسون لدولتهم من الناحية الاجتماعية والمحلية، ويتسلمون مفاتيح الخلافة من الناحية الحضارية. ألا يكون هذا إذن دافعا قويا لدمج القصة، سيما وأن الفرقتين معا كان يطبعهما نوع من التعايش داخل المدينة بالإضافة إلى المنافقين وفئة من المشركين إخوانهم؟

وهكذا تهاجمنا قيم هذه الفئات كلها مقارنة بقيم الجماعة المسلمة، في أول مقصد كلي من مقاصد سورة البقرة الموضوعية، بعد تلك المقدمة التي نوه النظم فيها بجماعة المؤمنين، مع بيان خصائصهم الكلية.

ثم وعندما أشرفت القصة على نهايتها؛ ترى النظم قد دمج الحديث بتفصيل كلي عن حقيقة كلمات إبراهيم، وبنائه البيت المشرف صحبة ابنه إسماعيل، "ومقررًا في الوقت نفسه انقطاع مثل هذه النسبة المشرفة عن اليهود، الذين ينتسبون بالبنوة لإبراهيم ويعقوب، وهم عن ملتهما منحرفون ولوصيتهما مخالفون. فماذا يغني النسب عن الأدب؟ ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يعْمَلُونَ﴾ [البقرة: 141].[1]

وهكذا وقعت القصة موقعها، وتوسطت قصة آدم المقررة لمنهج الخلافة وتسلم الأمانة، وقصة إبراهيم التي قررت نقل نفس هذه الأمانة إلى غيرهم من العرب. على اعتبار أن ابراهيم هو جد الجميع بالرابطة الدموية التي جمعت بين اليهود والعرب عبر إسحاق واسماعيل، ولكن فرقت بينهما في التكليف وإسناد الأمانة؛ لسبق رابطة العقيدة التي لها

(1) النبأ العظيم، مرجع سابق: ص234-235.

الأولوية على سائر الروابط. فالمسؤولية تسبق الحب، والأمانة أثقل من دعوى التعايش. وصلة الله بالناس ينبغي أن تكون أقرب من صلة بعضهم ببعض، ولو كانوا ذوي قربى من جهة المكان والجوار. فالقريب قريب من جهة العقيدة ولو كان بعيدا من جهة الجوار والنسب. والبعيد بعيد بالعقيدة ولو كان قريبا بهما. ولهذا السبب استحقت "يهود" أن تؤطر ضمن لائحة المجرمين، في مقابل ضياعها للمسؤولية وتفريطها في الأمانة التي هي جوهر خلافتها في الأرض. كان هذا رغم معايشة المسلمين لهم في المدينة. فالتعايش في الإسلام ليس علة مؤثرة في تقدير الناس، بل تقديرهم نابع من مدى حفاظهم على المسؤولية. ولهذا يعاقب الجاني، وعقابه تجل لهذا المبدأ العظيم المحقق لخلافة الله في الأرض. يقول بيغوفيتش: "إن تقدير الإسلام للإنسان لا يعبر عنه من خلال الحب والتسامح بالدرجة الأولى، وإنما من خلال مبدأ المسؤولية الإنسانية. إن الإنسان مسؤول عن أفعاله، والعقاب على الجريمة يجمع بين كل من حقوق الإنسان والكرامة الإنسانية لكل إنسان، بما في ذلك المجرم نفسه"[1].

والمقصود أن من لطائف السياق بيان أن قصة ابراهيم جاءت لترسم علاقة المسلمين باليهود في سائر أطوار التاريخ؛ اتصالا بينهما من جهة الدم، وانفصالا من جهة قيم العقيدة ومبدأ الأمانة. ولاح من هذا الاتصال والانفصال في تاريخ الهوية الدينية والدموية، اتصال وانفصال آخر من جهة التصوير الفني داخل السورة، بسوق قصة ابراهيم بين قصة بني إسرائيل، المقررة لنقل الأمانة منهم إلى المسلمين، وقصة تسلم هؤلاء المسلمين لتلك الأمانة من خلال التفصيل في أحكامها التشريعية.

قصة آدم (تقرير الخلافة)، قصة بني إسرائيل، قصة ابراهيم وابنه، قصة تقرير تفاصيل الشريعة الإسلامية.

وبهذا تخلص النظم للحديث عن تاريخ المسلمين المشرق، وجعل هذا التخلص لبيان الصورة المضيئة في تاريخ أنبياء بني إسرائيل في مقابلة الصورة المظلمة لهم هم تجاه هؤلاء

(1) هروبي إلى الحرية، بيغوفيتش علي عزت، ص243.

الأنبياء! كل ذلك فيه لمحة فنية لطيفة يجمع فيها بين رسالة محمد ورسالة إبراهيم عليهما السلام، وأنها رسالة واحدة تفيض من مشكاة واحدة. وممهدا بذلك -كعادته- لسرد أخبار المسلمين زمن هذا الرسول محمد ﷺ الذي هو فرع من شجرة إبراهيم نبيهم. وفي ذلك نعي عليهم هم وتسلية له هو ﷺ.

وهكذا؛ بات بوسعنا إدراك طبيعة نظام القيم والمقاصد ونسقه الكلي داخل السورة، وداخل المجتمع الديني والأخلاقي والثقافي المجسد لهذا النسق. كما صار بمقدورنا إدراك محرك هذا النظام المتمثل في الفكرة الدينية، التي تتنزل في جسد النظام منزلة الروح في جسد الكائن الحي. ففي غياب الفكرة أو ضمورها يضعف دور النظام (وهو القيم الفطرية والعقلية والثقافية والبنيوية السائدة في العلاقات الاجتماعية) في استبقاء الحياة والخير، فإذا انبعث الوحي / الفكرة الدينية؛ نفخت فيه من روحه فصارا نظاما اجتماعيا حيا بإذن الله.

وهكذا هو الأمر في المجتمع العربي، وتلك كانت نتيجته بعدما شهدت طور الضعف والمرض في الجزء المتقدم من العهد المكي، قبل انبعاث الفكرة وانبلاج شمس الوحي؛ فإذا هو نظام نسقي متكامل حي بسبب ما حصل فيه من انبعاث في مكة وفي المدينة، وتحقيقا للتدافع بين الخير والشر (الجهاد)، وقد كان من قبل سائرا في اتجاه واحد. هذا الاتجاه الذي جسدته قيم الطائفة المشركة والطائفة اليهودية في ذلك العصر، فجاءت قصة بني إسرائيل لتقرر هاته القيم وتحدد مسارها وتضع قواعدها البيداغوجية التربوية، لتستفيد منها الجماعة المسلمة وتشكل من خلالها وعيها، وتسجل حضورها في التاريخ، بعدما كانت خارج التاريخ في العهد المكي، قبيل ظهور الدعوة. فانطلقت شرارة التدافع من جديد في محرك النظام، وانطلقت قيم الخير والشر تتدافع وتتناظر في خشبة ذات بعد مكاني وزماني، وكانت قصة بني إسرائيل بمثابة المسلاط العاكس للنور فوق هذه الخشبة، ينير الزوايا ويجلي الغبار ويكشف الحجب. وطفقت القيم تنساب من معين القصة إقناعا للعقل وإشباعا للعاطفة دون الاستغناء بأحدهما عن الآخر. واجتمع الجمال مع الدين في قوالب التصوير الفني كما هي عادة القرآن في جميع قصصه، بل هي طريقته المثلى في رصف قيمه وقضاياه ودلائله في جميع سوره.

والمقصود؛ أن القصة لم تخرج عن خطي السورة المشكلين لعمودها، وهما على سبيل التذكير: بيان حقيقة اليهود وتاريخهم وسلب الأمانة منهم. ثم توجيه المسلمين لبناء دولتهم ونقل الأمانة إليهم مستفيدين منهم وإعدادهم للخلافة.

خلاصة:

تعد قصة بني إسرائيل مع نبيهم موسى عليه السلام؛ قصة مفتوحة على أكثر من صعيد، بخلاف بعض القصص الأخرى مثل قصة أهل الكهف وقصة يوسف عليه السلام. وشأن القصص المفتوحة أن تتكرر في سياقات متعددة ومحافل متنوعة داخل السور. وذلك على قدر الحاجة إليها وبحسب القيم المقصودة أصالة وتبعا. بيد أن سوقها في سورة البقرة مثَّل النقطة المركزية الفاصلة في تاريخ الإنسانية بشكل عام، وفي تاريخ اليهود على وجه الخصوص. وذلك خدمة كاملة لعمود السورة، الذي سيق لتقرير منهج خلافة الله في الأرض، وكيفيات إقرار الأمانات والمسؤوليات المترتبة على هذا المنهج، من جهة القيم والمبادئ والحقوق كما من جهة التكاليف التفصيلية والتشريعات الجزئية المتعلقة ببناء الدولة المسلمة سواء. فلهذا استحقت هذه السورة لقب سورة "الاستخلاف" أو سورة "تقرير الخلافة".

ثم هي من جهة أخرى قصة تاريخية، لكن طريقة العرض الفنية داخل النظم القرآني نفخت الروح في شخصياتها ونماذجها الإنسانية وحوادثها، فانبعثت من ركام "التاريخية"، وصارت كأنها فوق الزمان وفوق التاريخ، حتى إن المتدبر لا يجد بدا من الانفعال بها وبقيمها وأحداثها، متى ما هرع يتلو كلمات الله الحاملة لها، مما جعلها في أعلى قمة من قمم "الأدبية" والذوق الفني. ذلك لأن "التاريخ لا يدخل دائرة الأدب، إذا كان وصفا مجردا لحوادث ميتة، ولكنه يصبح عملا أدبيا إذا انفعل الباحث بالحوادث"[1].

أما من الناحية الحضارية والاجتماعية؛ فإن هذه الحوادث أو التجارب، وإن كانت شخصية جزئية بشخوصها وزمانها ومكانها؛ فإنها تصبح بمثابة القاعدة الكلية، إذا حصل بها

(1) النقد الأدبي: أصوله ومناهجه، سيد قطب، ص14.

الانفعال والتأثر، ورصيدا يضاف إلى عمر من انفعل بها فيتأثر بها ويؤثر، فيرسم هذا الأثر عالما فسيحا ممتدا على مر الأزمان، واضعا بصمته في نظام الظاهرة الإنسانية وهي تكابد الابتلاءات والتكاليف في التاريخ الإنساني. والله المستعان.

لائحة المصادر والمراجع:

1. **التصوير الفني في القرآن،** سيد قطب، دار الشروق، ط.17. القاهرة.
2. **الخطاب القرآني: مقاربة توصيفية لجمالية السرد القرآني،** عشراتي سليمان، دار العرب، ط.1، 2012م. دمشق.
3. **الفطرية بعثة التجديد المقبلة من الحركة الإسلامية إلى دعوة الإسلام،** فريد الأنصاري، دار السلام، ط.1، 2009م. القاهرة.
4. **في ظلال القرآن،** سيد قطب، دار الشروق، ط.17، 1412 هـ. القاهرة.
5. **منهج الفن الإسلامي،** محمد قطب، دار الشروق، 1995. القاهرة.
6. **النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم،** محمد ع الله دراز، اعتنى به أحمد مصطفى فضلية، دار القلم للنشر والتوزيع، 1426هـ- 2005م. سوريا.
7. **النسق القرآني ومشروع الإنسان،** جاسم سلطان، مركز الوجدان الحضاري والشبكة العربية للأبحاث والنشر، ط1، 2018. بيروت.
8. **النقد الأدبي: أصوله ومناهجه،** سيد قطب، دار الشروق، ط6، 1990. القاهرة.
9. **هروبي إلى الحرية،** بيغوفيتش علي عزت، ترجمة اسماعيل أبو البندورة، ط.1. دار الفكر، 2002م. دمشق.
10. **وظيفة الصورة الفنية في القرآن،** عبد السلام أحمد الراغب، فصلت للدراسات والترجمة والنشر، ط.1. حلب.

القَصة القَرآنية

منهجية السرد القَرآني وأبعادها الوظيفية

د. عبد السلام أقلمون

أستاذ التعليم العالي بالمدرسة الوطنية للتجارة والتسيير

جامعة ابن زهر بأكادير

كاتب وناقد مغربي

مقدمة:

تحتل القصة مساحة كبيرة من مجموع النص القرآني، وتمثل مكونا بارزا من مكوناته البنائية والدلالية. فمن خلال القصة القرآنية تم استعراض عينات من حيوات أمم وشعوب وشخوص، ليتم عرضها نصيا بصفتها نماذج تمثيلية، تسمح بعرض الاختيارات وعرض نتائجها والتفاعل مع ممكناتها الأخرى. فالقصة هي فعل سلبي أو إيجابي ينتج نجاحا أو فشلا. والقرآن يحول ذلك كله إلى قوانين، تقبل التعميم على التجارب البشرية كلها بكل ممكناتها وإمكاناتها، راسما خطا للعبور بالحياة الإنسانية إلى شاطئ الأمان والنجاة. الحياة التي تصبح في بعض تجلياتها معادلا للحوت، في حين يؤدي يونس دوره ودور كل إنسان آخر التقمه الغم، والهم، والخوف، والحزن، وآفات الحياة... ثم يبين أن أفضل سبل النجاة: الأوبة إلى الله والتمسك بهداه. فدور القصة القرآنية أن تبين كيف يتحقق التفاعل البناء بين الوحي

والإنسان، وما ينبغي أن تكون عليه العلاقة مع الله حبا وتواصلا وشكرا وامتنانا... فما يعرضه الله على الإنسان هو مساعدته للإفلات من قبضة شيطان مهلك، ومعاد لطموحاته وصلاحه ومصالحه، ثم ولوج رحاب الرحمان حيث يتحقق السواء الأمثل، وتنبني العلاقات الإيجابية بين الإنسان وذاته، وغيره، وكل مكونات الكون. وبذلك تظهر الخلاصات البارزة التي إذا أخطأها التدبر فسد التدبير: الإنسان مسؤول عن سلوكه ومواقفه واختياراته، والحياة هي محل لاستقبال فعل الإنسان والتفاعل مع إرادته، فإذا صنع الخير غنم نتائجه، وإذا صنع الشر اكتوى بناره، فللإحسان بما هو جودة التدبير منهج ونتائج، وللسوء بما هو فساد التدبير طريق وعواقب. وهو ما سيؤكده الشيطان في النهاية بعد أن كان يمارس الغواية في البداية، ملقيا تبعات الجنوح والضلال على أصحابها: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: 22].

ليكشف في المشهد الأخير من قصة الوجود، عن قمة الشيطنة والخزي متنكرا لأتباعه، متنصلا من مسؤولية الغواية؟ قصة تستشرف مرارة المنقلب، وحسرة الركون لهذا السراب المخاتل، رغم كل التحذير والتنبيه والشفقة، التي جسدتها قصص الأنبياء من مآل النهاية المؤلمة، فلا شيء يعصم من أمر الله إلا من رحم، كما جسد نوح في دور السعي لإنقاذ ابنه الذي اعتصم بالجبل، ولم يعتصم بالله فابتلعه الطوفان ولما يكمل حواره مع أبيه؛ وقبلها قصة البداية حين أفسد الشيطان حفل الوجود على آدم، كما عرضت لنا أحداث سورة الأعراف. وما بين حفل الوجود وحفل الخلود، تتحرك قصص القرآن بفعالية كبيرة لتبعث على التعقل والرشد، ليحمي الإنسان مصيره الأهم بعد أن يحسم اختياره بين: الكفر والشكر.

إن جلاء هذه الحقائق ممكن فقط بالعينات القصصية الحقيقية، التي تعرض ما كان كما كان ليستخرج منه ما ينبغي أن يكون. وهذا عرض لا يتيحه غير القرآن الكريم والقص الإلهي المباشر للأحداث والوقائع ﴿نحن نقص﴾، وليس ما يحكيه الأخباريون والقصاص من تفاصيل، تتلف جوهرية الحكاية في زخارف التخييل والتفصيل. وهذا ما فهمه بعض

المفسرين وكانوا على وعي تام به، وبآثاره على استخراج قواعد السلوك من الظاهرة الإنسانية المسرودة. لكن السؤال هل التزموا بذلك أم جنحوا عن القصة القرآنية للقصة البرانية الكتابية المحرفة، والتي من شأن الاعتماد عليها تحريف الواقع والمتوقع معا؟ يقول ابن كثير معلنا عن إدراكه الواضح لواجب الالتزام بالسرد القرآني دون غيره[1]: "فالمحتاج إليه قد بيَّنه لنا رسولنا، وشرحه وأوضحه. عرفه من عرفه، وجهله من جهله. كما قال علي بن أبي طالب: كتاب الله فيه خبر ما قبلكم، ونبأ ما بعدكم، وحكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل. من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله."[2]. مما جعله يعيب على المفسرين جنوحهم، ناعتا سلوكهم ب "الترامي" على ما لدى أهل الكتاب من آفات يعددها: "فإذا كان الله، سبحانه وله الحمد، قد أغنانا برسولنا محمد ﷺ، عن سائر الشرائع، وبكتابه عن سائر الكتب، فلسنا نترامى على ما بأيديهم مما وقع فيه خبط وخلط، وكذب ووضع، وتحريف وتبديل، وبعد ذلك كله نسخ وتغيير".[3]

إن كم الوحدات المعجمية المترادفة بإسهاب كبير، لوصف واقع الكتب السماوية وما تعرضت له، يثير الانتباه فعلا إلى ما يستلزمه ذلك التقرير من وعي وحذر، ومفارقة واجبة لنصوص أهل الكتاب: الخبط؛ الخلط؛ الكذب؛ الوضع؛ التحريف؛ التبديل؛ النسخ؛ التغيير.

لكن المؤسف أن شيئا غير قليل من هذه الآفات النصية المذكورة ستحيط بتفسير القصص القرآني، وسيحملها المفسرون معهم من تحاريف الكتابيين إلى تفاسيرهم، وسنعرض نماذج تمثيلية كما وردت في تفسير القرطبي لسورة يوسف، مع إظهار نتائجها الفادحة على مستوى قلب المعنى القرآني وإتلاف أبعاده الدلالية. مما يستدعي العمل على تنقية هذه التفاسير، وإخلائها من عدوى كل الصفات القادحات، التي عرضها ابن كثير.

---

(1) مؤسف أن يكون الحافظ ابن كثير على هذا القدر من الإدراك والوعي بخطورة ما لدى أهل الكتاب، ثم يجعل مؤلفاته سواء في التاريخ: "البداية والنهاية"، أو التفسير: "تفسير القرآن العظيم" المشهور بتفسير ابن كثير، تعج بالإسرائيليات وقصص الكتبة والكذبة (!!).

(2) البداية والنهاية لأبي الفداء الحافظ ابن كثير، ج1، دار المعارف، بيروت، 1990، ص: 7.

(3) نفسه... ص: 7.

أولا: القصة الأولى وتحديد المسارات

﴿المص (1) كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ
(2) اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (3) وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ
أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ (4) فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا
إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (5) فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ (6) فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ
وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ (7) وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (8) وَمَنْ
خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ (9) وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي
الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (10) وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا
لِلملاءِئكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (11) قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا
تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (12) قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا
يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (13) قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (14)
قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (15) قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (16) ثُمَّ
لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ
(17) قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ (18)
وَيَاآدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ
الظَّالِمِينَ (19) فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا
نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (20) وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي
لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (21) فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا
يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ
الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ (22) قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ
الْخَاسِرِينَ (23) قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (24)
قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ (25) يَابَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي
سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (26) يَابَنِي آدَمَ لَا

يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (27) وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ(28)﴾ [الأعراف: 1 - 28].

يمكن القول إن مقدمة سورة الأعراف، تعتبر نواة استشرافية لكل القصص اللاحقة ومساراتها، وهي تأطير حكيم لبداية الحياة الإنسانية والتحديات التي تجابه الإنسان ليؤدي واجب الشكر. إنها القصة الأولى التي شملت أول حدث يجابه الإنسان ممثلا في الأب آدم. تجلت الذات الإلهية في مستهل قصة الوجود الإنساني بصفتين متلازمتين: خلاق ورزاق، حيث تحقق بالأولى: الإيجاد، وتحقق بالثانية الإمداد: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: 12].

فإيجاد المعايش للإنسان بعد خلقه وتصويره واكبه تكريم إلهي عظيم يحتفي بمقام الآدمية، فجاء الاحتفاء معطوفا على الرزق والخلق: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ [الأعراف: 11].

وبسبب اعتراضه على تشريف الإنسان وتكريمه، وتمرده على مراسيم التكريم العلية بحضور الملائكة تكبرا وغرورا، فقد كوفئ بنقيض ما كان يرجو، فحصل على الصغر والدونية: ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجِ اِنَّكَ مِنَ اَلصَّـٰغِرِينَ﴾ [الأعراف: 12].

تضعنا القصة بعناصرها الثلاثة أمام حقائق شاملة لكل تفاصيل الحياة الدنيا والأخرى؛ وتدفع إلى الواجهة خصائص كل عنصر والعلاقات الممكنة بين العناصر بناء على الأفعال التي تنجزها:

1. الرحمن: خلاق رزاق؛
2. الشيطان: متكبر غاو؛
3. الإنسان: شاكر كافر.

لهذا عملت القصة على إظهار الفضائل الإلهية، وتحذير آدم من وساوس الشيطان، لكن الشيطان ينجح في استقطاب آدم، وجعله يأكل من الشجرة التي نهاه الله عنها. ليتحقق

نجاح جزئي للشيطان في كسب التحدي الذي رفعه في وجه الله تعالى، وهو أن يدخل الناس قفصه الشيطاني حيث يطبق حصاره من الأمام (المستقبل)، ومن الوراء (الماضي)، ومن اليمين (قلب الإيجابيات)، ومن اليسار (تزيين الشهوات). هذا القفص يدخل الإنسان في دائرة الولاية الشيطانية، والنكوص عن العرفان لله بخلقه ورزقه وتكريمه، إنها معركة الشكر والكفر. فالشكر لله كسر للقفص الشيطاني وخروج من ولايته إلى ولاية الله، وعدم الشكر (الكفر) اصطفاف مع الشيطان ودعمه في تحديه: (ولا تجد أكثرهم شاكرين). لكن القصة تخبرنا أن علم الله المحيط سابق على هذا التحدي، حيث النزوع الإنساني لعدم الشكر، جحود يجعل الكثيرين يديرون ظهورهم لكل نعم الله: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي اِ۬لْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ قَلِيلا مَّا تَشْكُرُونَ﴾. [الأعراف: 10]، وحيث إن الإنسان في جميع الأزمان والأمكان معني بهذه القصة، فقد تحول ميثاق التلقي إلى إشعار وإنذار متضمن في صيغة عتاب، يجعل عدم الشكر نكرانا وجحودا في أعلى مستويات الجحود والنكران، ولذلك يسميه القرآن: كفرا، ويسمي مقترفيه كافرين. ومن خلال التساند الدلالي لآيات القرآن نستحضر كل المقامات التي ورد فيها الشكر نقيضا للكفر، لتتجلى مركزية الشكر وقطبيته في العقيدة الإسلامية.

وتستمر القصة تسحب من الشيطان عناصر القوة، وتبسط أنعم الله على الإنسان ظلالا وارفة، بعد إضافة عنصر الرحمة والتوبة، لتقريب مسافة الولاية الرحمانية وتبعيد الولاية الشيطانية، ولا يبقى لمعتذر عذر بعد ذلك. وبسبب هذه القصة ستنشأ قصة الحياة الدنيا والتاريخ الإنساني بكل تشكلاته وتدافعاته وتجاذباته بين الولايتين، وسينتقل الخطاب من "يا آدم" إلى: "يا بني آدم": ﴿يَٰبَنِي ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ اُ۬لشَّيْطَٰنُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ اَ۬لْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَا، إِنَّهُۥ يَرٰاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ، مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا اَ۬لشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلذِينَ لَا يُومِنُونَ﴾ [الأعراف: 27].

فالعرض الإلهي لهذه القصة مكن الشخوص من التعبير والكلام، وصوغ حججهم سرديا لتظهر العوامل واضحة، قبل أن ينتقل الخطاب لبني آدم كي يستفيدوا من الدرس: وهو التطبيق العملي لمسمى الذكر، الذي جعله القرآن وظيفة بارزة للقصة. ثم استخدمت

القصة الاستشراف الزمني المسنود بعلم الله المحيط، الذي يعرف ما يكون كما سيكون قبل أن يكون، موضحة أن التقاليد البالية وتحريف الدين ركيزتان للضلال وتبرير الفاحشة. ثم تنتقل الآيات لتختزل التعاليم الإلهية بدقة ووضوح بحيث يمكن اعتبارها روحا للشرائع كلها التي تجلت في دعوات جميع الأنبياء والرسل وهي: أن الله أمر بالقسط وهو لزوم العدل في كل شيء، ليحصل كل إنسان على قسطه من خيرات الله ومعايشه؛ الصلاة والإخلاص لله؛ ثم التذكير ببداية الخلق والمآل والابتعاد عن ولاية الشيطان. ثم عادت الآيات لتركز المعنى وتنسج به ماذا يريد الله بعباده، وما ينبغي عليهم فعله للموازنة بين متطلبات الروح والجسد وبناء المدنية الراشدة: الزينة والتجمل، الصلاة، الاقتصاد والتدبير الرشيد للثروات وتجنب الإسراف، وختم هذا الاستهلال الجامع بالمحرمات المقررة إلهيا، بعد دحض الجمود والجحود وتحريف الدين: ﴿قُلِ اِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ اَلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ والإثم وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ اِلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اَللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: 31].

ثانيا: الكفاية التركيبية والدلالية للقصة القرآنية

القصة القرآنية تمثل مكونا بارزا من مكونات القرآن، وتشغل حيزا كبيرا جديرا بالاعتبار؛ لهذا وجب تحليلها ودراستها بعلم يناسب أنساقها وهو علم السرد أو بلاغة النص. يمكننا القول إن الكثير من القيم القرآنية صيغت بطريقة سردية لتظهر دلالاتها جلية بالحركة والحوار والتدافع والحجاج، ومن خلالها ظهرت الحقائق القرآنية حول الخلق والوجود، والمآلات والاختيارات الفردية والجماعية، ونتائج هذه الاختيارات السلبية والإيجابية. لقد تشكل محفل السرد القرآني بمختلف العناصر المعادلة للوجود بأسره، بدءا من الله جل جلاله، ثم الشيطان، ثم الأنبياء والمؤمنون بتجاربهم المعروضة للاختبار قرآنيا قصد استدرار سبل التسامي رغم الأخطاء والمعاصي، والطغاة والجبابرة والكفار والمشركون ومزيفو العقائد وتجار الدين... وغيرهم من صناع السلب الحضاري، وكل الذين يرفضون الإرادة الإلهية للإعلاء من الخير والعدل والجمال، والتحذير من نتائج الظلم والشر والقبح. وتحفل

عوالم السرد القرآني بشخوص كثيرة تُسمع خطابها وترسله في حقل التداول القرآني؛ الملءئكة والجن والحيوانات والحشرات والأكوان...مع تأطير زمكاني يستحضر الوجود الإنساني مؤطرا بما قبله وما بعده، وعرض فضاءات استثنائية: جنة ونار، دنيا وآخرة، ماضي ومستقبل، وزمان فوق زمني: الأبد والخلود. وعليه، فالقصة القرآنية لا تمتاز فقط بتركيبها السردي، وطبيعة الموضوعات التي تشكل بها عالمها الحكائي، بل بطبيعة ساردها ومقدمها ومنظم عوالمها وهو: الله جل جلاله. وإذا كان التعريف الواضح لله هو: ليس كمثله شيء؛ فمعنى ذلك أن هذه القصص تستمد قوتها وتميزها من مصدر الحكي، الذي هو بكل الصفات العلية المتجلية بأسمائه الحسنى. لهذا وصفها القرآن بكونها: ذكر؛ وأحسن القصص؛ وأحسن الحديث.

أما من الناحية البنائية، فهذه القصص تمتاز بكفاية تركيبية ودلالية، تجعلها مستغنية عن أشكال الحشو والاستطراد والتفصيل، التي تحد من كثافتها الاختزالية وتحول دون مقاصدها الهادفة إلى جعلها تناسب كل التجارب الإنسانية. فالقصة القرآنية لا تستهدف فقط الأحداث التي تكون موضوعا للقصة، بل تجعل القصة كلها حدثا تمثيليا لحكاية الوجود وما بعده؛ لأن الارتباطات السلوكية ممتدة من عالم المعاش إلى عالم المعاد، وفق منظور إلهي محيط بهما معا. أما الإغراق في التفاصيل والجزئيات فتحد من وظيفتها الاستعلائية وتجعلها قصة لشخوص معدودة وعوالم محدودة، وهو ما قام به الكتبة ومزيفو الوحي، حين حولوا القصص من أبعادها وآمادها المتراحبة، واشتغالها التركيبي الذي يضفي عليها قابلية التعميم، إلى حدود إنسانية تسقطها في التخريف والتحريف، وتجعلها حكايات شبيهة بالملءحم والأساطير والقصص، التي ألفها الإنسان عبر التاريخ وشحنها بخيالاته المجنحة. شيء لم ينتبه له المفسرون عندما استعانوا بهؤلاء، فأخرجوا القصة القرآنية من استراتيجية السرد القرآني، التي أشرنا إلى خصائصها (التكثيف والحذف والاختزال)، إلى نقيضها المتمثل في الاستغراق والتفصيل والاستطراد، معتمدين الإمكان التخيلي لملء ما يعتبرونه فجوات حكائية، تهم تفاصيل حول الشخوص أغفلها السرد القرآني!! وهي في الغالب تفاصيل تتعلق بالزمن الدائري للشخوص (تفاصيل الحياة اليومية)، وبأسمائها وأزيائها وأمتعتها وأشيائها

والفضاءات التي تتحرك بداخلها... لتصبح قصصا شبيها بقصص الكتب المحرفة والمسماة إسرائيليات. ولا شك أن المفسرين لم يكونوا مسنودين بعلم النص ولا بخبرة تحليل النصوص الكبيرة التي تجعلهم يستوعبون حقيقة تفاعل المكونات النصية، حيث تتحول الوظائف والنتائج بتحول الاختيارات التركيبية للسرد؛ بل كانوا يعتقدون أنهم يسندون القصة القرآنية، ويقدمون خدمة للقارئ ليزداد اقتناعا بصدقيتها وواقعيتها! مما جعلهم ينقضون ميثاق السرد القرآني، الذي وضع حدا لتخاريف الإسرائيليات كما قصها القصاص والكتبة، ناسخا إياها بإعلان قرآني صريح أن الذي سيقص القصص هو الله:

- ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [يوسف:3].

- ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾ [طه: 99].

فالطريقة الإلهية في القص تضع حدا لطريقة الأخباريين الحكائية. فقوله تعالى: (نحن نقص) إعلان صريح بضرورة الارتباط بالقرآن لا بغيره في تتبع قصص الأنبياء وأنباء ما قد سبق، فالتركيب القرآني المعجز للقصص، ونسبة الحقائق المعروضة قرآنيا، هي التي تجعل الحكي يرتقي للجودة السردية ليصير أحسن من كل قص سواه، وبسبب صدقية الأخبار القرآنية ومصداقيتها صارت القصص ذكرا، أي عينة حقيقية تقبل الملاحظة والدراسة والتحليل لإدرار نتائجها الاعتبارية وتحقيق الانتقال المرجو من الغفلة الفردية والمجتمعية والحضارية، إلى الوعي الفردي والمجتمعي والحضاري.

ثالثا: تجديد النظر في القصة بصفتها من علوم القرآن.

لا بد أن نقر في البداية أننا بحاجة لحيوية معرفية، لتجديد علوم القرآن ومن ضمنها التفسير، خصوصا تفسير القصص القرآني، هذا التجديد ضرورة ملحة وينبغي أن يشمل كل متعلقات علوم القرآن، بعد الإقرار بأهمية هذا الكتاب الإلهي وضرورة تصدره لمناشط الحياة الإنسانية كلها، والحال أن هذا الأمر ليس اختيارا يجوز تركه؛ بل اضطرارا لا تستقيم الحياة على الحسن بدونه. وعليه، فالأشياء التي يتعلق تطورها بهذا التجديد كثيرة جدا،

ونتائج غيابه كثيرة ولا تخفى أيضا. لأن الأنساق المعرفية الجيدة تكون لها انعكاسات على حياة الأمم والمجتمعات، فتُظهر نتائجها حيوية حضارية تدرك سبل صناعة الإيجاب الحضاري: (رفاها، وعلما، وقوة، وخيرا، وعدلا، وجمالا)؛ وسبل تجاوز السلب الحضاري الذي يهوي بالأمم: (فقرا، وجهلا، وضعفا، وشرا، وظلما، وقبحا). ثم لا بد من إقرار آخر أن هذا التجديد الضروري والمطلوب ليس شيئا هينا، ولا تحقيقه بالأمر اليسير لأسباب متنوعة لابد من كشفها والإحاطة بها منهجيا:

1) تقاليد نبذ الاجتهاد التي استوطنت العقل المسلم ردحا من الزمن؛
2) تقاليد الالتفاف على الاجتهاد بما يشبهه من ممارسات محدودة ومغلقة
3) رفض كل النتائج التي لا تصب في المنجز التقليدي واتهامها بالخروج عن نسق الصلاح، بما يعني القبول بالاجتهاد في الحد الأقصى نظريا ورفض نتائجه عمليا.

وتحضر جملة عوائق معرفية تحيط بهذا الطموح، وتغذي احترازات الجمود السابقة لتضفي عليها وهم المشروعية، وهي تعرض القرآن المستمر لأشكال من العداء المعرفي من جهات وأصناف غير محدودة من المناوئين، وبعضهم يسعى للتعرض لمبادئ القرآن وقيمه من مدخل الدراسات العلمية والاجتهادات العصرية، مع إضمار الرغبة في كسر أفقه المعرفي وقيمه البانية، استجابة لسلوك عدائي للإسلام وللقرآن من طرف جهات أجنبية لها امتداداتها في الداخل.

ولا يخفى أن القرآن نفسه تعرض لنماذج تمثيلية من هؤلاء وأولئك، واستعرض كل دفوعاتهم الممكنة، ضمن لائحة مغلقة من الاعتراضات قابلة للتمديد العرضي وفق استراتيجية الحجاج التواصلي القرآني، دون أن يتغير جوهرها. وهي حجج الآبائيين الجامدين، والمنكرين الجاحدين: (كفارا، ومنافقين، ومشركين، وكتابيين، ومغفلين، وعابثين...). وقد بين القرآن ذاته منهجية الرد والجواب، واستراتيجيات تفنيد الحجج الواهية، وبناء المواقف العلمية على أرض صلبة من الجواب العلمي على السؤال. مما يثبت الدعوى الكبيرة: صالح لكل زمان ومكان وفق حاجيات ذلك الزمان وذلك المكان. وهذا يتحقق بالتحيين الدائم لماهيته وماهية مطالبه، فالقرآن رسالة؛ ومطالبه الرئيسة الهداية. وهذا المنهج الاجتهادي يمكن أن

يصطحب كل الجهود سابقة ولاحقة ليلتحم بها ومن خلالها الأنموذج **(البراديغم)** الإسلامي الذي يؤسسه القرآن، ويسمح في الوقت نفسه بتجاوز كل السلبيات الوقتية والطارئة تاريخيا والتي ساعدت على تأويل النص تأويلا تاريخيا أخرجه من تساميه الزمني (صالح لكل زمان)، وعطلت سماته الاستعلائية ليناسب تأويلا زمنيا واحدا وأمكنة مغلقة؛ بل أدت إلى تشظي الأمة بشكل دراماتيكي إلى فرق ومذاهب متعامدة، لا يمكن لفقه الاختلاف أن يستوعبها، في ظل الشروط المعرفية السائدة، ولا إمكانية لجعلها أمة واحدة تنضوي تحت لواء القرآن وفهم متقارب لمعانيه، بل هناك إحساس بوجود جهود معرفية تتجافاه وتتحاشاه وتستبدله بمرويات وإنتاجات تراثية بديلة؛ (مرويات الشيعة، مرويات السنة)، في حين يوجهنا القرآن إلى الاعتصام به دون تراخ: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: 3]. ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدنَا عَلَيهَا ءَابَاءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُل إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأمُرُ بِٱلفَحشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعلَمُونَ﴾ [الأعراف: 28].

وبذلك تضعنا هذه الآيات من سورة الأعراف، أمام وضع معرفي له ارتباط بسياق القصة الاستهلالية، والتي سنتعرض لأبعادها لاحقا، وهي أن الضلال والفحش ينبع من مصدرين:

1) التقاليد البالية (وجدنا عليها آباءنا)؛

2) تحريف الدين والافتئات على الله (الله أمرنا بها).

إن أشكال التلقي القرآنية ينبغي أن تلتصق بالخطاب القرآني، ولا تقدم عليه خطابا آخر، إلا أن ينضوي تحت لوائه ويُقضى عليه بأحكامه وميزانه. فيكون التلقي النصي قادرا على المزج بين الفعالية التعاقبية (إنتاج السابقين بعد التمحيص والنقد)، والفعالية التزامنية (إنتاج المعاصرين المؤمنين بفعالية القرآن)، وهذا يسمح منهجيا باستيعاب جهود الأجيال المتعاقبة، دون خضوع لسقوفها الإدراكية؛ أي الانفتاح الدائم على جهود ممكنة ومتواصلة، تستفيد من العلوم المستحدثة وما يمكن أن تقدمه من إضافات غير متاحة للآباء؛ وإلا لا معنى لصلاحية القرآن الكونية والأبدية. وكل احتياط بهذا الصدد هو التفاف جمودي لتعطيل القدرة التوليدية الفوق زمنية للقرآن الكريم، لا يقل إضرارا عن الصد الجحودي

الرافض لقيم كتاب هي أعلى من كل القيم. وهنا لا بد من الوعي بطبيعة الخطاب القرآني وأهدافه والمستهدفين به، وهو أول ما تضعه سورة الأعراف بين أيدينا تمهيدا لعرض قصة الخلق، فماهيته: رسالة إنذار (لتنذر به) وإشعار (وذكرى): ﴿الٓمٓصٓ، كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٞ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُومِنِينَ﴾ [الأعراف: 1].

وأهدافه: الهداية ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: 12]. والمستهدفون به: الإنسانية جمعاء ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: 107].

المرسل	←	المرسل إليه
﴿الله﴾		﴿ العالمين﴾
↓		↑
الرسالة	←	الرسول
﴿القرآن﴾		﴿محمد﴾

ويمكننا صياغة هذه المعطيات باستعارة النموذج العاملي لجريماس[1] في الترسيمة المقدمة:

ويمكننا أن نرتب بعض الملاحظات الأولية على هذه الترسيمة قبل أن نستكشف الأبعاد السردية للخطاب القرآني:

1. جعل الإرسال متعلّق الرحمة حصرا وقصرا فوق كل حصر وقصر، كل العالمين: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: 107]. فلا تقييد ممكن على قيد الإطلاق الذي يمتد حصرا إلى كل إنسان في العالم؛ فلما كان الحصر واقعا على الرحمة دون مشمولاتها فقد أنتج المعنى أجمل رحمة وأجلها. فمن بقي من العالمين لا ينبغي أن يكون مشمولا بها؟ وعليه، فكل استدراك على هذا الحصر نزول بالقرآن إلى مستويات لا تمثل خطابه. وبذلك يمكن استخراج قاعدة قرآنية جامعة: كل دعوى (حكم أو قيمة فقهية) لا تنشد مصلحة الإنسان كل الإنسان، هي مناوئة للخطاب القرآني وعمل على تحجيم مداه.

---

(1) راجع بهذا الصدد ما كتبه غريماس عن نموذجه العاملي وما يمتاز به من مرونة وإمكانية التطبيق على حقول معرفية متنوعة:

A.J.Greimas, Sémantique structurale:Recherche de méthode, Larousse, Paris, 1966.

2. بصفته خلاصة الوحي ونقطة وصوله عبورا للأجيال والأمم والأقوام، وبصفته هداية موضوعية ومنهجية، فإن جدية التعامل مع متطلبات القرآن لا تقبل العبث، فهذا الكتاب هو أهم شيء وهو أهم من الكون كله لأنه صادر عن إله كل شيء. وهو كتاب ينطوي على مكونات هادية لبناء نظريات تصلح لتطوير الحياة الإنسانية بشكل إيجابي، وحمايتها من المنزلقات الممكنة للعلوم نحو السلب الحضاري. وهو ما أكدت عليه سورة الأعراف في تكثيفها الدلالي لقصة الحياة نشأة واستعمارا، وهي تتحدث عن آدم قبل أن تنقل الخطاب إلى قصة الإنسان بشكل عام وتحدياته الباقية إلى يوم القيامة: ﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: 35].

إن القصة القرآنية تمتاز بقدرتها التوليدية للقيم الحضارية، من خلال التجارب التي اختارها القرآن واصطفاها من بين تجارب كثيرة أخرى لم يقصصها. وتتفاعل القصة القرآنية مع توجيهات القرآن وأحكامه وكل عناصره لتنسج الصورة المثلى للنجاح، والصورة الأخرى للفشل. والقرآن صار قادرا على إنجاز هذه الوظائف بطريقة الصوغ الإلهي التي جمعت كل المعطيات في نسيج متكامل قادر على بيان الحقائق وكشفها في كل المجالات: ﴿إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة: 17].

وبهذا التجميع والصوغ الإلهيين، صار القرآن كتابا معجزا في توليده لكل الحقائق التي لا تقبل دفعا من عقل سوي، ثم صار القرآن قصة جامعة لمختلف العلوم:

1) علم التاريخ وقانون النهوض والركود

حيث بين القرآن قواعد الفعل الإنساني محمولة على الزمان، مستعرضا بالوقائع المحكية ما كان، ومستعرضا بالدلالات النصية ما ينبغي أن يكون. وهو شيء لم يحظ بالقدر الكافي من الدرس والتحليل والتأمل والاستنباط. ليكون علم التاريخ قرآنيا هو **علم صناعة الإيجاب بالجهد الحضاري الإنساني**، وفهم التعالق السببي بين الفعل ونتائجه: فالنجاح صناعة؛ والفشل صناعة. ولكل منهما طرق واختيارات وأشغال.

2)علم الاقتصاد

الاقتصاد الرحيم وتجاوز الإجحاف، فعلم الاقتصاد القرآني هو تجليات الرحمة التسخيرية والرحمة التدبيرية، ودفع هدائي لبناء علاقة إيجابية بالإنتاج والاستهلاك مع العالم المسخر، إنتاج واستهلاك على حد عدم الإسراف وهو مسمى الاقتصاد بصيغة الإيجاب. لا أقوات أقل مما يستحقه ساكنو الأرض، ولا أقوات تضاعف وتنمو بدون ابتغاء وبذل وتخطيط إنساني. إنها فلسفة الائتمان القرآنية على مصادر الثروة المنزلة جملة من الله (أمرا تكوينيا) لتدبيرها بالقسط بأمر من الله (أمرا تشريعيا). فالإنسان قرآنيا هو الكائن المسؤول (الواقع عليه السؤال) لتدبير أحواله وأحوال العالم من حوله؛ وهذا مناط التكليف الأكبر والاستخلاف الأبهر.

3)علم السياسة

الشورى المتخلقة أو الديموقراطية الراشدة. فالسياسة القرآنية أمر واجب النفاذ لتصلح الحياة على الأرض وليتم تدبير التساكن والاجتماع الإنساني، وهذا الأمر لا يصنع إلا بالشورى والتعاون العقلي، لينسجم مع الأمر الإلهي الذي يصنع بالاستعباد الرحيم (كن فيكون)؛ فما كان من الله يكون على أحسن الوجوه النافعة للإنسان وهي أجرى للخير لفائدة الإنسان، مما لو أجراها لنفسه بعلمه المحدود وتدبيره المعدود.

4)علم الأخلاق

العبادات والجماليات وتأهيل الإنسان، وهي كل الهندسة السلوكية بالعبادات والمعاملات والأخلاق والجماليات، التي تجعل الحياة الإنسانية أرقى من ممالك الحيوان المسنودة بالغريزة التسخيرية، والتي لا يقع في اختصاصها تدبير أمرها لنفسها، بل هي تدبر لغيرها، أما الإنسان فهو "مدبر" لنفسه و"مدير" لغيره تشريفا حضاريا وتكليفا استخلافيا، يزكو بالحرص على أن يؤدي كل ذلك لنفسه وللمخلوقات، على نحو ينجح به في إجراء المصالح على أحسن وجه ودرء المفاسد بأكفأ جهد. وكل هذا ممكن بإطلاق فعالية التدبر،

وتمكين القرآن من الإرسال، وعدم الحيلولة بينه وبين البيان؛ أي كشف الحقائق وإظهارها بالقوة والوضوح اللازمين[1].

رابعا: من بلاغة الجملة إلى بلاغة النص.

يقتضي تجديد النظر في القرآن الكريم العمل بحيوية، قصد تشغيل كل الآليات الممكنة لمقاربة دلالاته ومحتواه واستكشاف عوالمه، وعلى رأس الأولويات التجديدية الانتقال من بلاغة الجملة إلى بلاغة النص، وتجاوز القراءة الخطية إلى القراءة النسقية، ليتم استيعاب القرآن ضمن تركيبه الداخلي وبحوره الدلالية، لأن القرآن يقدم نفسه بصفته كلية نصية تتكون من جمل متفاعلة، وليس سلسلة من الجمل المنفصلة والمتتابعة. مما يلزم (بضم الياء) بقراءته على ضوء طبيعته النسقية المركبة، وإلا حادت القراءة عن المطلوب ووقعت في "التعضين" أي التفكيك والتقطيع والترقيع، وهو سلوك يحظره القرآن وينهى عنه. ﴿كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: 92].

وعلينا أن نعترف أن تحقيق هذا الهدف يصطدم بكون الثقافة العربية لم تطور أي نوع من علوم النص، ولا توجد تجارب سابقة لتحليل النصوص واستيعاب تركيبها وبنائها، في حين أبدعت في إنتاج علمين على الأقل من علوم الجملة وهما: النحو والبلاغة. ويمكن الاعتماد على هذا التراث النحوي والبلاغي مع استحضار علم السرديات المعاصرة في الدراسات الغربية لبناء علم جديد هو: "علم النص" وهو القادر على التفاعل الإيجابي مع القرآن بصفته نصا، وفهم عوالمه الدلالية المتفاعلة بتركيبها السردي والنصي. وهذا سيمكن من سد ثغرة كبيرة تمكن المعرفة العربية من مقاربة النصوص مقاربة جديدة، تجعل العقل

---

(1) البيان بمنظور بلاغة النص، وليس بلاغة الجملة. وكما نصت عليه آيات القرآن الكريم، والتي جعلتنا ننحت للبيان مفهوما قرآنيا هو الآتي: "الحجة البينة الواضحة التي لا تقبل دفعا من عقل سليم" يراجع كتابنا: "الدين والسياسة من السائلية إلى المسؤولية، نقد الأطروحة الائتمانية لطه عبد الرحمن". دار العرفان، أكادير، 2022.

العربي ينفتح على عوالم دلالية تتجاوز جزئيات الجمل إلى كليات النصوص، وتخرجه من الإغراق في التعاطي مع الشكل إلى الانفتاح على المعنى.

فالعلوم المساعدة لبناء هذه البلاغة النصية إذا تظافرت جهود العلماء وشحذت همم الباحثين: -علم السرد -أصول الفقه -النحو -البلاغة.

خامسا: القصة القرآنية، الكفاية التركيبية والدلالية.

لا بد من تجديد النظر في مكون كبير من المكونات البانية لمعمار القرآن الكريم، الوارد كثيرا بمسمى الذكر، وهو القصة القرآنية. ويقتضي هذا التجديد تجاوز الحكايات والأساطير والتفاصيل التي يتم بواسطتها تأثيث المشاهد السردية، من خلال استجلاب مكونات نصية كتابية (إسرائيليات) لتحقيق نوع من الاستطراد وتفصيل ما ورد مجملا من الحكي القرآني. والحق أن الإجمال استراتيجية سردية قرآنية تحمل مقاصد التعميم والتكثيف الدلالين، عوض التخصيص والتجزيء عبر التفاصيل. واعتماد التفصيل هو نوع من التحريف للمقصد القرآني، ونقل القصة من مستوى الإمكان الاعتباري، إلى التسلية الحكائية، فالقرآن يقصد وظائف غير التسلية والإمتاع بالعجائب والغرائب، لأن الوظائف السردية القرآنية كلها محكومة بالحق: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: 57].

لقد حفل القرآن بكثير من الآيات البينة التي تستهدف صد فعاليات الكتبة الكذبة، وأصدر إعلانا صريحا بنهاية التخريف الحكائي الإسرائيلي، وبداية الحكي الإلهي المنزه عن التحريف والتخريف الممعنين في تمديد الحكي وتفصيل الوقائع بحثا عن وظائف أخرى للسرد تؤول في النهاية إلى الباطل، حتى تحولت قصص الأنبياء إلى حكايات شعبية في التوراة والإنجيل، تناسب المتخيل البشري وتندمج مع تطلعاته الحكواتية، وأخرجت الأنبياء في صورة شوهاء محرفة تزري بهم وبرسالاتهم. إنها الأساليب والغايات التي أجهز عليها القرآن الكريم بوضوح لا لبس فيه ليبقى القص في دائرة المقصد الإلهي لهداية الإنسان وحمله على إدراك كيفيات وممكنات التطور والنجاح، وبذل الجهد لمواكبة السننية الكونية المسخرة

بأمر الله والاستفادة من نتائجها؛ ثم تجاوز كل أشكال التردي الممكنة في تجليات سلبية تناهض نداء الأنبياء لتعقل الخير والعدل والجمال وعدم الانسياق للشر والظلم والقبح؛ فإذا كان في هذه القصص من وقائع النجاح والهداية والنعيم، ففيه أيضا استعراض درامي لمهالك ممكنة أيضا ينبغي توقيها والنجاة من نتائجها، كما تجلى ذلك في نموذج بني إسرائيل، وهو نموذج كاف لاستعراض الجحود ونتائجه والطغيان وعواقبه: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النمل: 76].

فالقصة القرآنية تحقق الكفاية التركيبية والكفاية الدلالية بانسجام وإتقان، فهي ليست بحاجة إلى زيادات في التفاصيل لتقديم المكونات والعناصر المحيطة بالقصة، ولا هي بحاجة إلى استخدام الإمكان التخييلي لملء الفجوات واستحضار المحذوف من التفاصيل على نحو القصة الخيالية، لأن منهج السرد القرآني لا يستهدف القصة عينها (الحكاية)؛ بل يستهدف قارئها الممتد في الزمان القرآني الخارجي ليتمثل وقائعها ونتائجها ويستهدي بدروسها، وهي النتيجة التي يخدمها الخطاب القرآني بالانفتاح على كل المكونات القرآنية التي تتفاعل بكل قيمها وتوجيهاتها لصناعة معنى كبير يعم كل مكونات القصة الداخلية (شخوصها) ومكوناتها الخارجية (الإنسانية جمعاء في كل زمان ومكان)؛ لهذا جاء الحذف عموديا (داخل القصة الواحدة) وأفقيا من خلال انتقاء جملة من قصص الأنبياء التي توفر عينة هدائية كافية دون الحاجة إلى القصص الأخرى التي لم تذكر وبقيت خارج العرض القرآني: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء:164].

فالقصص التي تم اصطفاؤها إلهيا لتحضر في السرد القرآني، كافية تمثيليا لتعبر عن كل الأبعاد الإنسانية سلبا وإيجابا، وقادرة على الالتحام بكل مكونات الخطاب القرآني ليفهم الإنسان المراد به والمراد منه من قبل ربه، وأما القصص الأخرى التي لم تقع في دائرة السرد القرآني، فلن تضيف شيئا لمقاصد التوجيه والهداية الشاملة للحياة الإنسانية: ﴿ما فَرَّطْنَا فِي الكتاب من شَيْءٍ﴾ [الأنعام: 38].

سادسا: الإسرائيليات (السرد البراني) وكسر المنهج القرآني.

أعلن القرآن الكريم نهاية الإسرائيليات بما واكبها من تحريف وتخريف، أتلف المغزى الأصيل بالتفصيل الدخيل، وتوجه بالحكي لأداء وظائف لا تخدم القيم الإنسانية الأصيلة، وحادت بالقصص عن جوهريتها المختزنة للتجارب الإنسانية ونتائجها، وبسببها انقلبت المعاني والدلالات في الكتب السماوية السابقة وزيفت الوقائع والغايات. لم يتفطن المفسرون لأهمية الالتزام بحدود السرد القرآني وعدم تجاوزه إلى استطرادات تفصيلية، ففتح الباب لترحيل المعنى التخريفي من السرد البراني ليلتبس بالقصة القرآنية، واستجلبت التفاصيل من كتب محرفة، علما بأن تحريفها كان موجبا لنسخها.

فلو نظرنا -على سبيل المثال- في تفسير القرطبي لقصة يوسف لوجدنا أننا نقرأ قصتان القصة القرآنية والقصة البرانية أو الإسرائيليات، وهو ما يعبر عنه القرطبي صراحة بقوله: "وقيل" أو وفي "القصة"، وهو يقصد المصدر الثاني لحكاية يوسف. والغريب أن القرطبي في مستهل تفسيره لقصة يوسف، تنبه بشكل لامع لأهمية السرد الإلهي للقصة، وأدرك أن الخطاب القصصي القرآني أي الطريقة الإلهية في القص هي مصدر الحسن، كما ظهر من قوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [يوسف:3]، لكن ذلك لم يجعله يستغني عن القص كما ورد خارج القرآن بسرد الكتبة المحرفين، يقول القرطبي: "قوله تعالى: نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْك ابتداء وخبره: أَحْسَنَ الْقَصَصِ بمعنى المصدر، والتقدير: قصصنا أحسن القصص. وأصل القصص تتبع الشيء، ومنه قوله تعالى: قَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ (...) والحسن يعود إلى القصص لا إلى القصة. يقال: فلان حسن الاقتصاص للحديث أي جيد السياقة له"[1].

انظر كيف تفطن القرطبي إلى التمييز بين الحكاية والخطاب أو بين القصة وطريقة سردها، مبينا أن الحسن يتصل بالطريقة. فطريقة الله في تقديم قصة يوسف وسردها هي مصدر الجودة والحسن والإتقان. ولكنه أجهز على ذلك كله حين جعل يستكمل المحذوف

(1) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: هشام سمير البخاري، دار عالم الكتب، 2003، ج.9، ص: 119.

بالإسرائيليات ويسرد علينا قصة يوسف بطريقة أخرى، أي بطريقة الأخباريين ليخرج السرد من الحسن الإلهي إلى السوء الإخباري (الإسرائيليات)، وسنقدم نموذجا دالا على ذلك.

يجعل السرد الإلهي قصة يوسف ترتكز على محورين رئيسين دارت في فلكهما محكيات صغرى تخدم الهدف الرئيس:

1) الخلاص الفردي يتحقق بالأمانة والعفة؛

2) الخلاص الجماعي يتحقق بالتدبير الاقتصادي الجيد والتخطيط الاستراتيجي.

فالأول نجا به يوسف من كل شائنة تمس عرضه وتنال من شخصيته القوية المنضبطة بشريعة الله، ونجا من مصير ممكن لو سلك غير سبيل المؤمنين، قد يناله به عقاب أشد من الصلب حتى تأكل الطير من رأسه. وهو محكي صغير ورد في مصير أحد الرجلين لكنه يتفاعل دلاليا مع محكي يوسف برمته.

أما الثاني فقد نجا به المجتمع من أزمة جفاف قاصم، سيؤدي إلى انتشار المجاعة والفقر وتدهور الاقتصاد، وما يمكن أن يواكب ذلك من آفات اجتماعية كالسرقة والجريمة والبطالة والدعارة... وغيرها من الآفات التي نرى مصاديقها في الواقع عندما تتعرض بعض المجتمعات لتوالي سنوات الجفاف مع سوء التدبير الاقتصادي. فقصة يوسف تأكيد على كون التدبير الرشيد من مناطات التكليف الكبرى والأمانات العظمى، التي أشفقت منها السماوات والأرض والجبال، وهي قصة الأمانة التي وردت في القرآن الكريم لتبين أهمية تدبير الخيرات الإلهية وتمكين الإنسانية من الولوج إليها من خلال تأهيل القوى الفاعلة والاستفادة المثلى من الموارد بمعنى التفاعل الإيجابي بين الموارد البشرية والموارد الطبيعية، وهو ما فهمه يوسف عليه السلام بوحي الرؤيا، فأنجز مهمته على أحسن وجه وقاد الدولة بمخططه الاقتصادي الراشد إلى بر الأمان، متجاوزا سبع سنوات من الأخطار والآفات المهددة للمجتمع. فتحولت تجربته قرآنيا إلى درس نافع للإنسانية كلها ما بقي القرآن كتابا يتدبر.

فهل وفق المفسرون في مواكبة الدلالات التي تنطوي عليها قصة يوسف، أم أن الانجراف إلى منهج السرد الإخباري (الإسرائيليات) أوقعهم، أحيانا، في مجالات دلالية نقيضة لما يقصده القرآن؟

إن الغفلة عن طبيعة القصص القرآني ومقاصده الكبرى، يوقع في أخطاء منهجية تكون لها تبعات سلبية تقتاد الفكر في اتجاهات غير مرجوة. فالرؤيا اليوسفية مظهر من مظاهر نبوته لا تقبل التعميم، بحيث تجيء نتائجها وفق تأويل نبوي مسنود بوحي إلهي، مطابقة كليا لوقائع غيبية لاحقة كشفت عنها الرؤيا استباقيا، والسبب هو أن ما كان غيبا مجهولا ليوسف هو علم معروف لرب يوسف. فالحكمة في أمر الله الذي يقول لكل شيء أراده كن فيكون وليس في قدرة استثنائية ليوسف. ومثل ذلك عصا موسى حيث لا يمكن لعصا أخرى أن تصير حية تسعى، ولا لرجل آخر غير سليمان أن يسير الرياح غدوها شهر ورواحها شهر، ولا امرأة أخرى أن تلد من غير ذكر شأن مريم، ولا شخصا آخر غير نبي الله عيسى أن يحي الموتى، ولا رجلا آخر غير النبي محمد أن يأتي بقرآن غير هذا... فكل ذلك أمر الله وقدرته، وقس كل المعجزات التي اختص بها الأنبياء؛ بل لا يمكن لنبي أن يحصل على معجزات أنبياء آخرين، لأن الأمر في النهاية لله وليس للأنبياء، فهو سبحانه الذي يفعل ما يشاء ويختار. وقد شكل ذلك موضوع استعراض قرآني لقصص الأنبياء ومميزات كل نبي وتفرده بمعجزة خاصة، مع تقاسمهم كل الصفات الإنسانية الأخرى مع الإنسانية جمعاء، ما يجعل قصصهم قابلة للاستثمار الإنساني لبناء قيم التطور والاستقرار وتجاوز قيم التدهور والاندثار؛ كما حدث لأقوام مكذبين معاندين كعاد وثمود وقوم نوح وقوم تبع وفرعون وقارون... وكل التجمعات والأفراد، التي صارت نماذج تمثيلية كافية قرآنيا لتحصين التجارب الإنسانية والممارسات الفردية من الهلاك والتردي ونتائجهما، متى خرجت من ولاية الشيطان: الكفر، ودخلت في ولاية الرحمن وغنمت نتائجها استقرارا وازدهارا: الشكر. لكن عدم الوعي بهذه الأبعاد، يحول الأحلام والرؤى من معجزة موقوفة على نبي الله يوسف، إلى منامات مقدسة متاحة لكل نائم. وبسبب هذا الاستثمار الخاطئ صارت نوعا من المعجزات المتاحة للعموم بمسمى الكرامات، ترفع بها أستار الغيب لكثير من الحالمين!! وهذا المنطق هو الذي تحكم في القرطبي ليجعل الرؤيا وحيا متاحا لكل أحد يكشف به الغيب: "قالوا: وما المبشرات؟ قال:"الرؤيا الصالحة "وهذا الحديث بظاهره يدل على أن الرؤيا بشرى على الإطلاق وليس كذلك؛ فإن الرؤيا الصادقة قد تكون منذرة من قبل الله تعالى لا تسر رائيها، وإنما يريها الله

تعالى المؤمن رفقا به ورحمة، ليستعد لنزول البلاء قبل وقوعه؛ فإن أدرك تأولها بنفسه، وإلا سأل عنها من له أهلية ذلك. وقد رأى الشافعي رضي الله عنه وهو بمصر رؤيا لأحمد بن حنبل تدل على محنته فكتب إليه بذلك ليستعد لذلك"[1].

والحقيقة أن الرؤيا ليست علما بالغيب ما لم تكن وحيا، وأحسن ما يمكن اعتماده استهداء بيوسف عليه السلام، ليس هو البحث عن كشف المستقبل في الأحلام والمنامات، ولا إعادة إنتاج نبوته في شكل كرامات مزعومة، تدعي القدرة على معرفة ما سيحدث، كما عرف ذلك يوسف! بل أقصى ما يتاح للإنسان الاستعداد للمستقبل من خلال تخطيط استراتيجي يقوم على التوقع والاستشراف، ووضع مخططات أصيلة ودعمها بمخططات بديلة لمعالجة الاحتمالات والممكنات بناء على تجميع المعطيات ثم معالجتها ودراسة مآلاتها، وهو نوع من التوقع الاجتهادي الذي يوظف الطاقات الإنسانية في أقصى حدودها. الشيء الذي تحمده الشريعة للإنسان وتدعوه للتسلح به، ليكون في مستوى الخطاب القرآني الهادي، والمنطوي على كل المحفزات لتحقيق التسامي واقتحام العقبات: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ﴾ [البلد: 11].

وقد وفق ابن خلدون لاستيعاب هذه المتطلبات، فنهض لبناء مشروع علمي لفهم الاجتماع الإنساني، سماه علم العمران البشري مستوحيا بنوده وأهدافه من توجيهات القرآن الكريم، فكان من طلائع الباحثين والعلماء الذين وجهوا البحث في اتجاه تحليل القصص والوقائع التاريخية تحليلا علميا اعتباريا؛ معتبرا أن هذا الدرس العمراني لا يجعلك فقط تعرف أسباب ما حدث بل وما سيحدث:

"وشرحت فيه من أحوال العمران والتمدن وما يعرض في الاجتماع الإنساني من العوارض الذاتية، ما يمتعك بعلل الكوائن وأسبابها ويعرفك كيف دخل أهل الدول من أبوابها، حتى تترع من التقليد يدك، وتقف على أحوال ما قبلك من الأيام والأجيال **وما بعدك**"[2].

---

(1) *الجامع لأحكام القرآن، القرطبي*، مرجع مذكور، ج.9، ص: 127.

(1)ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2000، ص: 5.

لكن منهج ابن خلدون هذا لم يحظ بالتقدير الواجب، فصارت نظريته العمرانية خارج التداول المعرفي العام، وبقيت الغلبة للكتابات التاريخية الروائية من غير نقد ولا تمحيص، فغلبت الإسرائيليات والمغالط والأوهام على النصوص: "والناقد البصير قسطاس نفسه في تزييفهم فيما ينقلون أو اعتبارهم، فللعمران طبائع في أحواله ترجع إليها الأخبار وتحمل عليها الروايات والآثار"[1].

سابعا: نموذج استحضار المحذوف وقلب آلية الخطاب.

يلاحظ قارئ القصة القرآنية أن الخطاب القرآني، لا يهتم بالتفاصيل والجزئيات المتعلقة بشخوص القصة، فكل ما نعرفه عن يوسف أنه في غاية من الجمال، وهذا الوصف الظاهري لم يفصل شكل يوسف: قامته عيونه مميزاته الجسمانية، كل ما عرفناه هو أن هذا الجمال الخارق، بلغ حدا جعل النسوة يفقدن التحكم في سكاكينهن انبهارا حتى قطعن أيديهن. أما ملابس يوسف وحذاؤه وبيته وسريره... وأشياؤه فكانت موضوع إغفال شامل، لأن جميع الأنبياء بشر يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق، ويملكون من الأشياء مثل ما يملك عامة الناس في زمانهم، وليست لهم ميزة أشياء على أقوامهم. وعليه؛ فنحن أمام غياب وظيفي لتتمكن مكونات القصة من خدمة المغازي الكلية لمعاني القصة دون إغراقها في الشخصنة: النبي إنسان بسيط ككل إنسان. وحتى ميزة الجمال الباهر لم تكن موضوع تقدير إلا بسبب ما واكبها من عفة واستعصام عن الحرمات، وإلا فيوسف عندما قدم للملك جزءا من سيرته الشخصية يُعّرف بها عن نفسه لم يذكر من مميزاته غير القيم البانية فقال: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: 55]. فلم يقل إني وسيم جميل، فالمجتمع بحاجة إلى علم وأمانة تخرجانه من الظروف القاهرة، التي ضربها الجفاف القاصم على الأرض، والتدابير الاقتصادية الجيدة لا يفيدها جمال يوسف ولا غير يوسف؛ بل كفاءته وقدرته على تولي المسؤولية بأمانة هو سبيل النجاة لمجتمع يوسف، وبه تتحقق النجاة لكل مجتمع آخر يعتد بالعلم والأمانة في تدابيره الاقتصادية. وهذا سر استعراض القصة

(1) نفسه... ص:4.

قرآنيا لهداية كل المجتمعات إلى أسباب مدافعة الظروف المناخية العصيبة وإبداع الحلول بعلم، وحماية الموارد بأمانة. فالعمران البشري يستقيم بالمخططات المحكمة، القادرة على مغالبة الظروف العصيبة والطوارئ الجسيمة. وهذا لا يحسنه غير المجتمعات الحية الناهضة والفاعلة، أما المجتمعات المستكينة المستسلمة فتصير ألعوبة بيد الأحداث.

هذا الأسلوب القرآني في عرض الشخوص، يتنافى مع أسلوب الحكي الإخباري والمتخيل، حيث تعرض الشخوص عرضا تفصيليا، والاهتمام بالكثير من الجزئيات للتعريف بها وإدماجها في المتخيل السردي لتنسجم مع الأبعاد الملحمية المنشودة. أما القرآن فلا يحرص على ذلك، لأنه يقدم الشخصية في أبعادها الإنسانية الحقيقية، لأنها مدعوة قرآنيا لحمل وظائف استخلافية، تحولها إلى نماذج قابلة للاقتداء وليس أساطير تستعرض خوارقها وعجائبها.

فإذا كان القرآن ذكر مثلا: (اقتلوا يوسف) ونسب ذلك إلى إخوته، فالتفسير سيسعى لتجاوز منهجية الحذف القرآني لأسماء إخوة يوسف ومميزاتهم الشخصية، ليعمل على استدعاء المحذوف من المتخيل الحكائي الموازي، لإشباع الحكي باستحضار اسم القائل اقتلوا يوسف؛ والسؤال ماذا ستضيف معرفة اسم قائل اقتلوا يوسف لمقاصد القصة ودلالاتها؟ يقول القرطبي مفسرا (اقتلوا يوسف): "والقائل، قيل: هو شمعون، قال وهب بن منبه. وقال كعب الأحبار: دان. وقال مقاتل: روبيل؛ والله أعلم"[1].

فهذا ليس تفسيرا بقدر ما هو تفصيل مفترض، يستدرك بالجزئيات من مصدر خارجي، وهو خروج عن الصيغة القرآنية لم يستفد منه غير اللايقين والتقول والافتئات: وقيل، وقيل، وقيل. وفي النهاية لا نعرف هل هو شمعون أم دان أم روبيل؟ وحتى لو عرفنا فالسؤال ما فائدة هذا الاستدراك على القرآن حتى لو كان صحيحا؟ الجواب: إخراج الحكاية من بعدها الإنساني التمثيلي العام إلى بعدها الشخصي المحدود. أما إذا لم يكن صحيحا، وهو كذلك، فهو تجاوز التخريف إلى التحريف.

---

(1) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ج.9، ص: 131.

ولا يخفى أن المفسرين والرواة اعتمدوا على أساطين الحكي والقصص والأيام والإسرائيليات وعلى رأسهم: عبيد بن شرية الجرهمي[1] وكعب الأحبار[2]ووهب بن منبه[3]؛ أكبر القصاصين في تاريخ الإسلام وفي الصدر الأول منه، وبسببهم تمدد الحكي وخرج من سياقه القرآني المسنود بقدسية الذات الإلهية: "نحن نقص" إلى استراتيجية الحكي الدخيل التي فتحت القرآن لصبيب الإسرائيليات: "ونحن نقص معك". يستعمل القرطبي بين الفينة والأخرى صيغة تُعْلم بخروجه من القرآن (أحسن القصص) إلى مصدر آخر لسرد قصة يوسف بتنصيص واضح: "قيل في القصة"؛ أي قصة؟ إنها الأخبار أو الإسرائيليات التي أخرجها القرآن من الباب، تعود بكل عجرها وبجرها من النافذة.

"قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ﴾ [يوسف: 15] "أن" في موضع نصب؛ أي على أن يجعلوه في غيابة الجب. **قيل في القصة:** إن يعقوب عليه السلام لما أرسله معهم أخذ عليهم ميثاقا غليظا ليحفظنه، وسلمه إلى روبيل وقال: يا روبيل إنه صغير، وتعلم يا بني شفقتي عليه" (...)

"**ومما ذكر من قصته** إذ ألقي في الجب، ما ذكره السدي وغيره أن إخوته لما جعلوا يُدْلونه في البئر، تعلق بشفير البئر، فربطوا يديه ونزعوا قميصه؛ فقال: يا إخوتاه ردوا علي قميصي أتوارى به في هذا الجب، فإن مت كان كفني، وإن عشت أواري به عورتي؛ فقالوا: ادع الشمس والقمر والأحد عشر كوكبا فلتؤنسك وتكسك؛ فقال: إني لم أر شيئا، فدلوه في البئر حتى إذا بلغ نصفها ألقوه إرادة أن يسقط فيموت؛ فكان في البئر ماء فسقط فيه، ثم آوى إلى صخرة فقام عليها. وقيل: إن شمعون هو الذي قطع الحبل إرادة أن يتفتت على الصخرة،

---

(1) من طلائع الأخباريين اليمنيين الذين تحدثوا بالقصص والأساطير العربية القديمة، توفي خلال القرن الأول الهجري.

(2) توفي سنة32 للهجرة، يمثل جسرا رئيسيا عبرت عليه الثقافة اليهودية إلى الثقافة الإسلامية، خاصة ما يتعلق بالقصص والتفسير، وكان يتردد عليه أبو هريرة كثيرا ويسمع منه القصص والأخبار. وهو أول من أدخل الإسرائيليات في الثقافة الإسلامية، وقيل أسلم في عهد عمر بن الخطاب، وأصله من اليمن.

(3) توفي سنة 110 للهجرة، ويعد بدوره من رواة القصص وأخبار السابقين من الأمم، وبواسطته دخلت الكثير من الإسرائيليات الثقافة العربية، ومن أهم المؤلفات التي تنسب إليه: "كتاب الملوك" و"التيجان". وهو يمني كسابقيه، ويشكل مصدرا معتمدا لدى المؤرخين المسلمين.

وكان جبريل تحت ساق العرش، فأوحى الله إليه أن أدرك عبدي؛ قال جبريل: فأسرعت وهبطت حتى عارضته بين الرمي والوقوع فأقعدته على الصخرة سالما"[1].

انظر إلى هذه التخاريف التي جاءت بالمحذوف من غير المصدر الإلهي، حتى وضعت على لسان يوسف عليه السلام إنكاره لمعجزته وتنصله من رؤياه، وذلك لشدة خوفه: "فقال: إني لم أر شيئا"! هل يوجد شيء من هذا في القرآن؟ الجواب: لا. فمن أين جاء به القرطبي؟ الجواب من القصة الموازية أو ما أسميناه السرد البراني المناقض للسرد القرآني.

فقول القرطبي: و"قيل في القصة"، و"مما ذكر من قصته"، أو و"قيل" كلها تراكيب إعلامية تنص على تفعيل المصدر الثاني لقصة يوسف وهو ما قصه الأخباريون والقصاص استدراكا على القرآن؛ وهذا يستدعي نباهة القارئ ويقظته ليعرف كم الأخبار التي ستمتزج بالقص القرآني، وهل ستؤدي إلى تغيير المعنى جزئيا أم كليا. لأن تفسير القصة هو حصيلة ما سرده القرآن وما سرده الأخباريون. والتفاعل التركيبي بين مواد القصة القرآنية والقصة الخارجية، يعتمد على طريقة المفسر ومقدار الإمداد الخارجي، الذي يضخه في القصة القرآنية لنعرف الجهة التي ستكون لها الغلبة في تشييد معنى القصة وبناء أفقها الدلالي، هل هو السرد القرآني أم السرد البراني (الإسرائيليات)؟

ثامنا: السرد البراني من التخريف إلى التحريف: محكي أبهة يوسف وترفه المفرط، ومحكي تتويج امرأة العزيز على حساب نبي الله يوسف.

هناك أسئلة كثيرة نجمت عن التحول الحادث في قصة يوسف بسبب التفسير، فالقارئ الذي تشبع بالأفق الدلالي لقصة يوسف من القرآن، وبكل الدلالات المحمولة على الخطاب القرآني، يستنكر ضمنيا الصورة التي ظهر بها يوسف في تفسير القصة: صورة امبراطور مترف، محاط بأنفس الأفرشة وأعجبها، ويكفي أن سريره المرصع بكل المعادن النفيسة، يبلغ طوله حوالي خمسة عشر مترا وعرضه حوالي خمسة أمتار... وهو يخرج في موكب امبراطوري وحاشية توحي بطبقية مرعية ومرضية، وكل ذلك يتنافى مع شخصية

(1) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ج.9، ص:141-143.

يوسف النبي ورسالته التي يتفق فيها مع جميع الأنبياء. لكن الأخطر من هذا كله هو أن يبلغ التخريف حدا تحريفيا ينتهي بتتويج امرأة العزيز وجعلها تتعلق بحب الله أكثر من كل شيء، في حين صار يوسف أكثر تعلقا وشغفا بها. لنتأمل تفسير قصة يوسف عند القرطبي الذي يتماثل صيغة وتركيبا ودلالة مع حكايات ألف ليلة وليلة، وغيرها من أنواع السرد الفانتاستيكي العجائبي المستمد من الأخباريين.

"قال ابن عباس: لما انصرمت السنة *من* يوم سأل الإمارة، دعاه الملك فتوّجه ورداه بسيفه، ووضع له *سريرا من* ذهب، مكللا بالدر والياقوت، وضرب عليه حلة *من* إستبرق؛ *وكان* طول السرير ثلاثين ذراعا وعرضه عشرة أذرع، عليه ثلاثون فراشا وستون مرفقه، ثم أمره أن يخرج، فخرج متوجا، لونه كالثلج، ووجهه كالقمر؛ يرى الناظر وجهه *من* صفاء لون وجهه، فجلس على السرير ودانت له الملوك، (...) وقال وهب بن *منبه*: إنما كان تزويجه زليخاء امرأة العزيز بين دخلتي الإخوة، وذلك أن زليخاء مات زوجها ويوسف في السجن، وذهب مالها وعمي بصرها بكاء على *يوسف*، فصارت تتكفف الناس، فمنهم *من* يرحمها *و*منهم من لا يرحمها.

وكان يوسف يركب في كل أسبوع مرة في موكب زهاء مائة ألف من عظماء قومه [؟][1]، فقيل لها: لو تعرضت له لعله يسعفك بشيء؛ ثم قيل لها: لا تفعلي، فربما ذكر بعض ما كان منك من المراودة والسجن فيسيء إليك، فقالت: أنا أعلم بخلق حبيبي منكم، ثم تركته

(1) يرى ابن خلدون أن المبالغة في إحصاء الأعداد من الأموال والعساكر هي دليل على أن الخبر مكذوب وبعيد عن الصحة، وأن المؤرخ أو المفسر لا ينبغي أن يكون مجرد ناقل غير عاقل، فيخلط بين القصص وعوالمها الحكائية المتخيلة، وبين الوقائع التاريخية وحاجتها للتحقيق والتحليل والسبر:

"وكثيرا ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل المغالط في الحكايات والوقائع، لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثا أو سمينا، لم يعرضوها على أصولها، ولا قاسوها بأشباهها، ولا سبروها بمعيار الحكمة، والوقوف على طبائع الكائنات، وتحكيم النظر والبصيرة في الأخبار. فضلوا عن الحق وتاهوا في بيداء الوهم والغلط؛ سيما في إحصاء الأعداد من الأموال والعساكر إذا عرضت في الحكايات، إذ هي مظنة الكذب ومطية الهذر، ولا بد من ردها إلى الأصول وعرضها على القواعد" [ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، تح: علي عبد الواحد وافي، ج1، ط3، دار نهضة مصر، القاهرة، ص: 291-292].

انظر: عبد السلام أقلمون، الرواية والتاريخ سلطان الحكاية وحكاية السلطان، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2010، ص: 14.

حتى إذا ركب في موكبه، قامت فنادت بأعلى صوتها: سبحان من جعل الملوك عبيدا بمعصيتهم، وجعل العبيد ملوكا بطاعتهم، فقال يوسف: ما هذه؟ فأتوا بها؛ فقالت: أنا التي كنت أخدمك على صدور قدمي، وأرجل جمتك، بيدي، وتربيت في بيتي، وأكرمت مثواك، لكن فرط ما فرط من جهلي وعتوي فذقت وبال أمري، فذهب مالي، وتضعضع ركني، وطال ذلي، وعمي بصري، وبعدما كنت مغبوطة أهل مصر صرت مرحومتهم، أتكفف الناس، فمنهم من يرحمني، ومنهم من لا يرحمني، وهذا جزاء المفسدين؛ فبكى يوسف بكاء شديدا، ثم قال لها: هل بقيت تجدين مما كان في نفسك من حبك لي شيئا؟ فقالت: والله لنظرة إلى وجهك أحب إلي من الدنيا بحذافيرها، لكن ناولني صدر سوطك، فناولها فوضعته على صدرها، فوجد للسوط في يده اضطرابا وارتعاشا من خفقان قلبها، فبكى ثم مضى إلى *منزله* فأرسل إليها رسولا: إن كنت أيما تزوجناك، وإن كنت ذات بعل أغنيناك، فقالت للرسول: أعوذ بالله أن يستهزئ بي الملك! لم يردني أيام شبابي وغناي ومالي وعزي أفيريدني اليوم وأنا عجوز عمياء فقيرة؟! فأعلمه الرسول بمقالتها، فلما ركب في الأسبوع الثاني تعرضت له، فقال لها: ألم يبلغك الرسول؟ فقالت: قد أخبرتك أن نظرة واحدة إلى وجهك أحب إلي من الدنيا وما فيها؛ فأمر بها فأصلح من شأنها وهيئت، ثم زفت إليه، فقام *يوسف* يصلي ويدعو الله، وقامت وراءه، فسأل الله تعالى أن يعيد إليها شبابها وجمالها وبصرها، فرد الله عليها شبابها وجمالها وبصرها حتى عادت أحسن ما كانت يوم راودته، إكراما ليوسف عليه السلام لما عف عن محارم الله، فأصابها فإذا هي عذراء، فسألها؛ فقالت: يا نبي الله إن زوجي كان عنينا لا يأتي النساء، وكنت أنت من الحسن والجمال بما لا يوصف؛ قال: فعاشا في خفض عيش، في كل يوم يجدد الله لهما خيرا، وولدت له ولدين؛ إفراثيم ومنشا[1].

---

(1) لا يخفى على الباحث في السرديات أن هذه الصيغة تتناظر بنائيا ودلاليا مع الصيغة المعتمدة في إنهاء الحكايات نهاية سعيدة: "فعاشا في ثبات ونبات، وخلفا صبيانا وبنات".

وفيما روي أن الله تعالى ألقى في قلب يوسف من محبتها أضعاف ما كان في قلبها، فقال لها: ما شأنك لا تحبينني كما كنت في أول مرة؟ فقالت له: لما ذقت محبة الله تعالى شغلني ذلك عن كل شيء"[1].

ينتهي هذا المقطع القصصي برواية مجهولة السند: "وفيما روي" لكنها الوعاء الثاني الذي يغرف منه القرطبي، والذي جعل يوسف يجد من حبها أضعاف ما كانت تجد، في حين صارت هي مشغولة بمحبة الله عن يوسف وكل شيء آخر بعد أن ذاقت الحب الحقيقي وفنيت في حب الله تعالى. وبذلك ترفع القصة التفسيرية امرأة العزيز وتنزل بنبي الله يوسف في مناقضة شاملة للقرآن الكريم!! فهل هذا هو التفسير الذي ينبغي؟ وهل بقي للقصة شيء من بعدها النبوي والرسالي والإنساني الناصع الذي تجلت به في القرآن الكريم؟؟ أم أن التفسير قلب المعنى على عقبيه؟

أدت الاستراتيجية السردية التفسيرية المخالفة للاستراتيجية السردية القرآنية، إلى تشغيل الآلية الاستطرادية على الطريقة الملحمية (ملحمة التفاصيل)، واندفعت بالتخريف إلى تخوم تحريف المعنى. وفات المفسرين أن سبب نسخ القرآن للكتب السماوية السابقة، هو نتائج الاستطراد التخريفي، الذي أنتج مملكة سردية موازية للكتاب السماوي، لتسلك بالنص طريقا منحرفا يتخذ "السماوية" ذريعة لصناعة قداسة وهمية، يتم بواسطتها تمرير خطاب كهنوتي، يستغل الناس ويستضعفهم ويأكل أموالهم بالباطل. فجاء الخطاب القرآني معلنا نهاية عهد الكتبة والكذبة، واستئثار الذات الإلهية بسرد قصص الأنبياء وقصص ما كان من سير الأولين وما سيكون من مآلات الناس أجمعين. فالحقائق تنكشف بقصص القرآن وليس بزائغ الحكي وزائف الأخبار: القرآن رسخ وظيفية الحكي البيانية لإظهار أسباب المآلات، وكيفيات نجاح التجارب الإنسانية وفشلها، وما ينبغي من تدبير جيد للزمن وتفاعل بناء مع الأقدار، من خلال توظيف الملكات الربانية العظيمة، التي زود بها الإنسان من دون الكائنات: السمع والبصر والفؤاد. ويرفع الغطاء عن أهداف رجال-تجار الدين، ويمنع

(1) ***الجامع لأحكام القرآن، القرطبي***...ج.9، ص: 214-215.

تطلعاتهم الاستغلالية للقصص الديني: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: 79].

وقد روى البخاري موقفا لابن عباس يبين استنكاره وتشنيعه على الذين يدعون كتاب الله ويطلبون الأخبار من أهل الكتاب الذين أخبر الله بكذبهم وتجارتهم بالدين.

"حدثنا أبو اليمان أخبرنا شعيب عن الزهري أخبرني عبيد الله بن عبد الله أن عبد الله بن عباس قال يا معشر المسلمين كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء وكتابكم الذي أنزل الله على نبيكم ﷺ أحدث الأخبار بالله محضًا لم يشب، وقد حدثكم الله أن أهل الكتاب قد بدلوا من كتب الله وغيروا فكتبوا بأيديهم الكتب، قالوا هو من عند الله ليشتروا بذلك ثمنًا قليلًا، أولا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم؟ فلا والله ما رأينا رجلًا منهم يسألكم عن الذي أنزل عليكم "[1].

وعليه يمكننا استشعار خطورة اعتماد الإسرائيليات قرآنيا، وانحدار ذلك السلوك إلى الإجهاز على فاعلية النص القرآني الاعتبارية، والتشويش على الخطاب الاختزالي الموضب إلهيا لينجز وظائفه العظيمة في الانتقال من عهد الغفلة والعمى الحضاري، إلى التذكر واليقظة والاستشراف والتوقع: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: 111].

خاتمة:

القصة القرآنية نسيج سردي ونصي يختزل التجارب الإنسانية، ويعيد صوغها قرآنيا لتصبح قصصا قابلة للملاحظة والدراسة والتحليل، أو بتعبير القرآن الكريم قابلة للتدبر ومنتجة للتذكر. لكن ذلك لا يتحقق إلا بهذا العرض الإلهي الذي يجعلها قرآنا، أما العمل على استكمال تفاصيلها من الكتب المحرفة، فهو كما مر معنا إتلاف لقيمتها التمثيلية، وتحويلها من عينة صحيحة "الحق"، إلى عينة تخييلية تنضاف إلى كم الحكايات والقصص

(1) صحيح البخاري: 4561.

الخرافية، التي يعج بها السرد الإنساني. فمنهجية السرد القرآني نابعة من كون الخطاب الحامل للقصة هو خطاب إلهي، تعهد الله بجعله أحسن القصص القادرة على جعل من يحسن تحليلها وتأويلها قادرا على استخراج الدروس والعبر، وبناء منهج الحياة الإنسانية على سننها؛ فالنص ينطوي على القدرة على تخزين كل الحقائق المنضوية في التجارب الإنسانية والمعطيات الكونية؛ والعقل الإنساني مزود بالقدرة على تمثل ذلك واستيعابه وتحويله لأنموذج حياة راشدة، وكل ذلك من قدرة الله القادر وأمره. الشيء الذي ضيعته الكتب المحرفة حين تنكبت هذا المنهج واعرضت عن القص الإلهي، ومالت لتحريف المحرفين وسرودهم، التي حولت المحتوى القصصي من إلهي المصدر إلى بشري المصدر، من خلال إعادة حكي القصص من طرف الكتبة والكذبة ونسبتها إلى الله زورا، فيضمنون بقدسية المصدر المزعوم استعباد القلوب، وبالتوجيه الحكائي الموهوم استغلال الجيوب. ما جعل القرآن الكريم يتصدى لهذا الزيغ المعرفي عاملا على إعادة الأمور إلى نصابها، عاصما كتابه الخاتم من أسباب الانحراف والزيغ. فكان الخطاب القرآني صريحا لا لبس فيه، معلنا بخطاب قرآني صريح نهاية التحريف، وأن الله جل جلاله سيتولى القص (نحن نقص): ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَـٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾، فما قبل السرد القرآني غفلة، وما بعده تذكر. لهذا السبب تمعر رسول الله ﷺ في وجه عمر، لينقل بفعله هذا وانفعاله قوة الزجر لكل من "يتهوك" (بفتح الواو وتشديدها)، أي لكل من يترك القصة القرآنية البانية، ويبحث عن معادلاتها الموهومة في الكتب المحرفة الهدامة: "قال أحمد: حدثنا سريج بن النعمان، قال حدثنا هشيم أنا مجالد عن الشعبي عن جابر بن عبد الله: أن عمر بن الخطاب أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتب فقرأه النبي ﷺ فغضب، فقال: أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب، والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به، أو بباطل فتصدقوا به والذي نفسي بيده لو أن موسى ﷺ كان حيا ما وسعه إلا أن يتبعني"[1]. فمتى كانت القصة

---

(1) مسند أحمد: 15195. حسنه شعيب الأرناؤط عند تعليقه على "شرح السنة(270 /1) "

من القرآن كانت مفيدة، وقادرة على إمداد التجارب الإنسانية بكل ما تحتاجه، لعبور الحياة بكفاءة وفاعلية وروية، لتأسيس الاجتماع الإنساني على قواعد الخير والعدل والجمال؛ ومتى كان تفسيرها من غير القرآن صارت تهوكا يوقع في الخلط والخبط والتخريف والتحريف... فيستخلص من ضلالها ما ينتهي به الاجتماع الإنساني إلى الشر والظلم والقبح.

وحسنه الشيخ الألباني في "الإرواء (6/ 34) " رقم 1589.

لائحة المصادر والمراجع

1. **القرآن الكريم.**
2. **صحيح البخاري.**
3. **مسند الإمام أحمد.**
4. ابن حجر العسقلاني: **فتح الباري بشرح صحيح البخاري،** دار الرسالة العالمية، 2013.
5. ابن خلدون: **- مقدمة ابن خلدون،** تح: علي عبد الواحد وافي، ج1، ط3، دار نهضة مصر، القاهرة، أبو الفداء.
6. الحافظ ابن كثير: **البداية والنهاية،** ج1، دار المعارف، بيروت، 1990.
7. أمين أحمد: **فجر الإسلام،** النهضة المصرية، القاهرة، ط11، 1975.
8. القرطبي: **الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان،** تحقيق: هشام سمير البخاري، دار عالم الكتب، 2003.
9. أقلمون عبد السلام:

أ- **الرواية والتاريخ سلطان الحكاية وحكاية السلطان،** دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2010.

ب- **الدين والسياسة من السائلية إلى المسؤولية، نقد الأطروحة الائتمانية لطه عبد الرحمن،** دار العرفان، ط1، أكادير، 2022.

ت- **الرواية والمعرفة: مقدمة في السرد الوظيفي،** قرطبة، أكادير، 2019.

10. الجابري محمد عابد:

أ- **بنية العقل العربي،** مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط 11، 2013.

ب- **تكوين العقل العربي،** مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط 12، 2014.

11. حاج حمد محمد أبو القاسم: **منهجية القرآن المعرفية، فلسفة العلوم الطبيعية والإنسانية،** دار الهادي، ط2، لبنان، بيروت، 2008.

القسم الثاني:

الممارسة الاستخلافية من خلال القصص القرآني

الأسئلة الوجودية وجواب القرآن عنها من خلال القصص

د. مصطفى فاتيحي

مشرف تربوي في التربية الإسلامية بالتعليم الثانوي

أستاذ زائر بالمركز الجهوي لمهن التربية والتكوين بمراكش

عضو المكتب التنفيذي لمركز الأمانة

مقدمة

تعد الأسئلة الوجودية من آكد ما أهمَّ الإنسان منذ أن كان، وهي أسئلة ملحة وضاغطة مهما تبرم الفرد والجماعة من مواجهتها، وقد تعددت الرؤى والتصورات في تقديم الإجابات بشأن تلك الأسئلة بالنظر إلى المرجعيات الفكرية والنماذج المعرفية المستند إليها.

وباعتبار القرآن الكريم كتاب هداية للبشرية جمعاء، فقد أجاب عن تلك الأسئلة من خلال إعطاء نموذج الإنسان الذي ينشده القرآن، ذلك الإنسان المستخلف بما يقتضيه الاستخلاف من عبادة وأمانة ومسؤولية وإعمار وتكليف وابتلاء وحساب...

وتشكل القصة القرآنية ميدانا لتجسيد الجواب عن قلق الأسئلة الوجودية، بشكل عملي مجسد على أرض الواقع، وليس مجرد أفكار نظرية صرفة.

وذلك ما ستسعى هذه الورقة إلى بيانه، عبر المحورين الكبيرين الآتيين:

المحور الأول: الأسئلة الوجودية في القرآن الكريم وعلاقتها بالاستخلاف.

المحور الثاني: جواب القرآن عن الاسئلة الوجودية من خلال قصص القرآن (قضايا ونماذج)

وتندرج تحت كل محور قضايا فرعية تفصيلية.

تقديم استشكالي:

تتجلى أهمية التأمل المعرفي والمنهجي للقرآن الكريم، في كونه يمثل مدخلا من مداخل النفاذ لعقلية وذهنية فئة عريضة من الناس، بحسب طبيعة اهتماماتها وطبيعة قضاياها الراجحة، ونمط تفكيرها ونماذجها المعرفية التي تصدر عنها، ولأن القرآن الكريم كتاب عالمي الخطاب إنساني الأفق، فإنه جاء على ذلك الوزان وجاء على وفق الطبيعة البشرية، فكان يراعي حال المتلقي وسياقه النفسي والفكري والاجتماعي، من ذلك القصص من حيث وظيفته وطبيعته ونسقه وبنيته في نسيج القرآن كله.

فلا تخطئ عين المتدبر الحضور الهائل والنسقي للقصة، وطريقة توزيعها وكذا الأسئلة والقضايا الثاوية فيها. في المقابل هناك ضمور من حيث الاهتمام بالقصص القرآني بالنظر إلى حجم حضوره في القرآن الكريم (عدم التناسب بين مساحة القصص في القرآن ومنهج توظيفه واستثماره).

وأيضا ضمور الاهتمام بموضوع الاستخلاف، والانطلاق منه كمفهوم ومنطلق مؤسس لكثير من القضايا المنهجية والتصورية، لا سيما إذا استحضرنا أن القصص القرآني يعرض المفهوم بشكل عميق وشامل وعملي، ومن واجب الوقت اليوم التأمل المعرفي والمنهجي للقرآن الكريم انطلاقا من مفهوم الاستخلاف.

ذلك أن موضوع القصة القرآنية هو الإنسان المستخلف في الأرض، بما يدور حوله في الكون وما يحدث له، وما ينبغي أن يكون عليه حاله، وما ينبغي أن يعرفه من أمور العالم المنظور والغيب غير المنظور، وحقائق الدين والإيمان والتوحيد والبعث، وما ينبغي أن يلتزمه من معتقدات وفضائل، وما ينبغي أن يجتنبه من معتقدات ورذائل، فالإنسان هو قطب الرحى في القصة القرآنية مثلما هو قطب الرحى في الكون الذي استخلف فيه.

إن المتلقي الذي توجه له القصة القرآنية هو نفسه محورها، وهو الإنسان الذي تساق له القصة القرآنية نورا لعقله وقلبه وتهذيبا لسلوكه... ومن ثم فقد سمت القصة القرآنية بالإنسان حتى يمتاز عن الحيوان الذي يشترك معه في بعض الصفات، هذا السمو الذي لا يركز على جانب واحد في هذا الإنسان، فهو سمو روحي ونفسي يشعر به الفرد، ويجد فيه حلاوته ولذته، وهو بعد ذلك سمو اجتماعي تجد فيه الجماعة بغيتها وضالتها وفضيلتها.

كما أن القصة القرآنية ليست عرضا مجردا لحقائق التاريخ، بل هي انتقاء لجوانب من التاريخ إيجابية أو سلبية لتحقيق أهداف القصة المرجوة، ولذا نجدها تركز على الرقي المادي، وأسباب القوة، لأن لهذه المادة عنصرا رئيسا في مقومات هذا الإنسان، ونجدها تركز على ما هو أهم، وهو أن التدين الحق لا ينفصل عن الحياة العملية ولا ينفصم عن واقع هذا الإنسان؛ وإنما هو مرتبط به ارتباطا وثيقا، بل هو جزء منه.[1]

المحور الأول: الأسئلة الوجودية في القرآن الكريم وعلاقتها بالاستخلاف.

يشكل مفهوم الاستخلاف في التصور الإسلامي ركيزة أساسية ومرجعية محورية لاستيعاب فلسفة الوجود، ويمكن من خلاله صياغة قواعد وأسس الاجتماع الإنساني، باعتباره قيمة ناظمة لكل السلوكيات الحضارية التي تربط الإنسان المستخلف عموديا بالله وأفقيا بعباد الله وسائر الكائنات. "فلا ينفك قول الإنسان المستخلف عن فعله، ولا ينفك علمه بالأشياء عن معرفته بالله، ولا تنفك زيادته في المعرفة عن الإصلاح في الكون، إذ يستشعر العبد روح العبادة في كل شيء، ويصبح ملتزما بالقيم الخلقية والمثل العليا التي يربيه الدين على احترامها، فتنضبط بذلك مطالبه من حقوقه ورغباته، حتى مع مخالفيه، مما يحقق له الصلاح في الدنيا، والفلاح في الآخرة، والأمن والاستقرار لمجتمعه"[2].

---

(1) قصص القرآن، فضل عباس ص 46.

(2) قيم الإسلام الحضارية محمد عبد الفتاح الخطيب، كتاب الأمة، قطر، عدد 139، 1431هـ، ص 35.

لقد كتب العلماء والباحثون حول مفهوم الاستخلاف وتجلياته وآثاره، ومن أوعب وأعمق ما ورد في ذلك ما كتبه المفكر الجزائري (مالك بن نبي)، مقارنا بين حي بن يقظان لابن طفيل و(روبنسون كروز التي كتبها دانيال ديفو).

فالشخصيتان تعكسان رؤيتين متباينتين للوجود، الأولى تجاوزت مجرد الاهتمام بالحاجات اليومية المادية الاستهلاكية، إلى معاناة قلق أسئلة الوجود (الغاية والوظيفة والمبدأ والمصير).

أما الشخصية الثانية فهي تجسيد للرؤية الذرية للوجود المعنية بسؤال الكيف والكم، وليست معنية بسؤال (لماذا؟) لأنه يحيل على المفارق والمتجاوز، والرؤية المادية تقوم على الاكتفاء بالظاهر بحيث يصبح الإنسان مرجعية ذاته متمركزا حول نفسه.[1]

إنهما نمطان ثقافيان مختلفان لكل منهما مظاهره وتجلياته، بحيث ينظر إلى الكائن الإنساني حسب النمط الأول نظرة مركبة، تتكامل فيها الأبعاد المادية بالأشواق الروحية والإمكانات الوجدانية، أما النمط الثاني فهو نمط اختزالي يختزل الكائن الإنساني في جملة من الحاجات الفيزيولوجة غير المتناهية، ويجرده من التفكير في أسئلة المعنى والغاية.

إن الصدور عن رؤية مركبة للكائن الإنساني، يتيح لنا إمكانات هائلة وعميقة لتعليل منظومة القيم، واكتسابها من خلال رحابة المرجعية الغيبية التي يُستند إليها.

من ذلك إدراك واستيعاب أن ما في الكون من ثروات هو من تسخير الله، ومن ثم فالإنسان مستأمن ومسؤول عن كل تلك الإمكانات، ولقد تجلى ذلك في العلاقة الوثيقة التي نشأت بين حي بن يقظان والغزالة التي ظل يعتني بها ويأخذها إلى المرعى وحزن عليها حزنا شديدا لما ماتت، وبدأ يجد في البحث عن سر موتها، في حين أن صغيرها لم يفعل ذلك، بل ابتعد عنها لما أحس بعجزها.

وأيضا نستطيع أن نحقق التوازن بين أهم الثنائيات المتقابلة في حياة الإنسان، وهي الدوافع الذاتية والمصالح الاجتماعية.

---

(1) مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، مالك بن نبي، ترجمة بسام بركة، دار الفكر، ط1، 2002م، ص19.

فهناك مشكلة حقيقة تتمثل في إمكانية تحقيق التوازن بين المطالب الذاتية والمصالح الاجتماعية، وقد استعرض (محمد باقر الصدر) عجز النظم الإنسانية المرتهنة إلى المرجعية الكامنة، المستبعدة للحاجة إلى المرجعية المتجاوزة، استعرض عجزها عن إيجاد البديل وتحقيق الحل الواقعي، ليصل في نهاية التحليل إلى القول: وهنا يجيء دور الدين بوصفه الحل الوحيد للمشكلة، فإن الدين هو الإطار الوحيد الذي يمكن للمسألة الاجتماعية أن تجد ضمنه حلها الصحيح. ذلك أن الحل يتوقف على التوفيق بين الدوافع الذاتية والمصالح الاجتماعية العامة، وهذا التوفيق هو الذي يستطيع أن يقدمه الدين للإنسانية، لأن الدين هو الطاقة الروحية التي تستطيع أن تعوض الإنسان عن لذائذه الموقوتة التي يتركها في حياته الأرضية أملا في النعيم الدائم، وتستطيع أن تدفعه إلى التضحية بوجوده عن إيمان، بأن هذا الوجود المحدود الذي يضحي به ليس إلا تمهيدا لوجود خالد وحياة دائمة، وتستطيع أن تخلق في تفكيره نظرة جديدة تجاه مصالحه، ومفهوما عن الربح والخسارة أرفع من مفاهيمها التجارية المادية، فالعناء طريق اللذة، والخسارة لحساب المجتمع سبيل الربح، وحماية مصالح الآخرين تعني ضمنا حماية مصالح الفرد في حياة أسمى وأرفع... وهكذا ترتبط المصالح الاجتماعية العامة بالدوافع الذاتية، بوصفها مصالح للفرد في حسابه الديني.[1]

إن الإسلام لا يجعل من مبدأ المنفعة والمصلحة الذاتية الدافع الأساسي للسلوك الاقتصادي، كما يزعم الوضعيون عموما، بل إن الإنسان يتأثر في سلوكه الاقتصادي بالثقافة والقيم الثقافية السائدة في الأمة، والسلوك الفردي للأشخاص محكوما بالقيم الثقافية والتصورية السائدة أكثرُ منه سلوكا محايدا ومجردا، بل هو انعكاس للثقافة السائدة وتعبير عنها، معنى هذا أن السلوك الاقتصادي الفردي والجماعي قائما على أسس ثقافية وأخلاقية، أكثرُ منه سلوكا محايدا ومجردا، بل هو انعكاس للثقافة السائدة وتعبير عنها...فالإسلام يربط بين معنى الربح ومفهوم الجزاء الإلهي بما يتعلق بالنشاط الاقتصادي للأفراد، فالأرباح التي يجنيها العامل إزاء نشاطاته الاقتصادية، ليست بالضرورة نشاطات لأجل عوائد مادية

---

(1) اقتصادنا، محمد باقر الصدر، ص 306- 307.

عاجلة، ومضبوطة ماديا، فهي تكون بغية الثواب من الله في الدنيا والآخرة، هذه النظرية توسع من مجال النشاط الاقتصادي للفرد المؤمن، فهو يعمل عملا حتى ولو لم ينل ربحا ماديا مباشرا، لأن العمل هو واجب أخلاقي وليس ألما وثمنا للألم... وهذا يخلق لدى المؤمن نظرة مختلفة لمفهوم المصلحة والربح والخسارة.[1]

فطالما أن المستخلفين من مجتمع المؤمنين المتقين، لا ينتظرون نتائج مادية سريعة فحسب إزاء أعمالهم التي يقومون بها، فإن حركة مجتمع كهذا تكون متوازنة متراحمة، سواء في علاقتها مع البيئة والانتفاع بها، فلا يكون إفسادها وتدميرها، أم في طريقة التعامل الاجتماعي بين المؤمنين فيما بينهم، أو مع الآخر الذي لا يشاركهم المعتقد والتصور والثقافة، فليس ثمة مجال للجور والظلم والاستغلال، وإنما تفتح الأبواب للتراحم والتكافل والتعاون...فلا يهدر جانب من أجل جانب في عمليات وخطط الاستخلاف والإعمار، كذلك على مستوى تعامل الإنسان مع الطبيعة، وعلاقات الأجيال بعضها ببعض، فلا يكون استهلاك موارد الأرض لحساب جيل على حساب أجيال أخرى فيما لا ضرورة إليه.[2]

ولذلك نجد في القرآن الكريم الارتباط الوثيق بين الإيمان والعمل الصالح، وهو أمر له دلالته العميقة بالنظر إلى أن الإيمان حافز قوي على إتيان العمل الصالح، وأن الإيمان ليس مجرد قناعات مجردة وأفكار حالمة، وإنما له مقتضيات عملية تتجلى في سلوكات حضارية نافعة، ونجد العمل وصف بالصلاح دون تحديد مجالاته وأنواعه، ليبقى مطلقا في الزمان والمكان يسع الكون كله من الجماد إلى الإنسان.

إن مفهوم الاستخلاف القائم على نظرية الخلق، هو وحده القادر على إيجاد المستند والمرجعية التصورية لمنظومة القيم والأخلاق، يقول (علي عزت بيجوفيتش): يمكن إقامة أخلاقيات المنفعة على أساس من العقل ولو على المستوى النظري، ولكن من المستحيل

---

(1) أصول الاجتماع الإنساني في المفهوم الإسلامي، مشروع معرفي في الإصلاح الاجتماعي، محمد مجذوب محد صالح، مركز التنوير المعرفي، ط1، 2005م، ص 215.

(2) نفسهّ، ص 228.

أن نقيم على العقل وفي غيبة الألوهية أخلاقيات غيرية لا أنانية، أو أخلاقيات تقوم على التضحية كما ينبغي أن تكون الأخلاق.[1]

فكيف نفسر في ظل المنظومة المادية الصلبة التضحية والإيثار والتضامن والعناية بالعجزة؟ لماذا نجد المعوزين والمقهورين يلجؤون إلى دور العبادة؟

وعليه فقد ذكر (محمد إقبال) الفرق بين النبي الذي يحمل هم أمة، والصوفي الذي يبحث عن الخلاص الفردي، فنقل عن الولي الصوفي (عبد القدوس الجنجوهي) قوله ''صعد النبي محمد العربي إلى السماوات العلى ثم عاد، وأقسم بالله لو أني وصلت إلى هذا المقام فلن أعود أبدا''. وربما كان من الصعب أن تجد في الكتابات الصوفية كلها كلمات تعبر عن هذا الإدراك العميق للفرق السيكولوجي بين الوعي النبوي والوعي الصوفي. فالصوفي مثل هذا لا يريد أن يرجع من السكينة التي ذاقها في تجربة التوحيد ومقام الشهود، وحتى لو أنه عاد – وهو ما لا بد أن يفعله- فإن عودته لا تعني الكثير بالنسبة للبشرية. ولكن عودة النبي هي عودة خلاقة مبدعة، فهو يعود لكي يقتحم الزمن قاصدا التحكم في قوى التاريخ، ومن ثم يصنع عالما جديدا من المثل العليا. تجربة التوحيد ومقام الشهود عند الصوفي وما يستشعره في هذه الحال من سكينة هي غاية نهائية بالنسبة له، ذروة أشواقه ومنتهى مطامحه، أما بالنسبة للنبي فالأمر جد مختلف؛ إنها يقظة عارمة لقواه النفسية الجوانية. بداية مهمة روحية من شأنها أن تهز العالم من حوله، تجربة جديدة مقدر لها أن تغير العالم الإنساني وتحوله تحولا كاملا.

بالنسبة للنبي هي رغبة قصوى في أن يرى تجربته الدينية وقد تحولت إلى قوة عالمية حية، وهكذا فإن عودته من موقف الشهود تعد من الاختبار العملي لقيمة تجربته الدينية، في هذه التجربة تبرز إرادة النبي في أدائها الخلاق، فهي تقيم نفسها من ناحية، وتقدر من ناحية أخرى قوى العالم المادي للحقيقة، هذا العالم الذي تسعى لتحقيق وجودها فيه

---

(1) الإسلام بين الشرق والغرب، علي عزت بيجوفيتش، ترجمة يوسف عدس، ص 202.

وجودا موضوعيا، وعندما ينفذ النبي في العالم المادي تواجهه قوى المصادمة والمقاومة، وهنا يكتشف النبي ذاته لنفسه، ويزيح القناع عن ذاته أمام عين التاريخ.[1]

أولا: نماذج من الأسئلة الوجودية:

أيعد الإنسان جزءا لا يتجزأ من الطبيعة- المادة، أم هو جزء تجزأ له استقلال نسبي عنها؟ أيتميز الإنسان بأبعاد أخرى لا تخضع لعالم الطبيعة- المادة الواحدية في مقابل الثنائية، أم أن وجوده طبيعي- مادي محض؟ أيعتبر الإنسان سابقا للطبيعة، المادة، متجاوزا لها، أم أنها سابقة عليه متجاوزة له؟ أيدرك الإنسان الطبيعة، بشكل سلبي متلق، أم بشكل إيجابي إبداعي خلاق؟[2]

انقسمت الرؤية العلمانية الكلية الرافضة لتواصل الخالق والمخلوق إلى مدارس ثلاث:

1- الرؤية الآلية للوجود التي تمثلها آراء ديكارت وكانط، ويعتقد أصحاب هذه الرؤية، تأثرا بالمدرسة الأفلاطونية، أن الله هو المحرك الأول الذي قام بتصميم الكون، ثم تركه يسير وفق آلياته وقوانينه الذاتية. لذلك ترى هذه المدرسة أن العقل قادر على توجيه الفعل وفق مُثل يمكن اكتشافها بالنظر والتأمل.

2-الرؤية الحلولية للوجود، وتمثلها آراء سبينوزا وهيجل، ويخلط هؤلاء بين مفهومي الله والإنسان، ويرون أن الأول صنو للوجود الكلي للثاني، فالله في نظرهم هو الإنسان الكامل، والكمال الإنساني صنو للألوهية. ولا يرى هؤلاء أن هناك مُثُلا متعالية عن الواقع الإنساني الاجتماعي، بل يرون أن تطور البشرية اكتمال للعقل. لذلك يصر هيغل على أن الحياة الأخلاقية هي الحياة العقلية، وأن نضج العقل وتطوره لا يدرك إلا من خلال الواقع.

3-الرؤية المادية للوجود فيمثلها ماركس ومن حذا حذوه. ويساوي هؤلاء بين الله والطبيعة، ويعتقدون في حكمة الحياة الطبيعية وعقلانية المادة، وخضوع الإنسان لنوازعها وقواها. ويرون أن الوعي الإنساني أرقى شكلا من أشكال الحياة المادية. ويصر ماركس على أن

---

(1) تجديد الفكر الديني، محمد إقبال، ص 203- 205.

(2) العلمانية الشاملة ج 2، عبد الوهاب المسيري، ص 445.

سعادة الإنسان في الانفلات من القيود الاجتماعية، وتحطيم كل الأشكال التي تؤدي إلى قيام تضامنات داخلية ضمن المجتمع الإنساني برمته. لذلك حمل الفكر الماركسي على كل الأشكال التنظيمية الوسيطة، بدءا بالأسرة ومرورا بالمؤسسة الاقتصادية، كالشركة، وانتهاء بالدولة نفسها.[1]

وعند إمعان النظر في هذه الرؤى بالرغم من التباين الظاهري بينها، نجدها تتقاطع كلها في النظر إلى العالم نظرة مادية صرفة، فالعالم نسق كلي طبيعي مادي متماسك وفي حالة حركة دائمة مستمرة، والعالم مكون إما من ذرات تائهة حسب الرؤية الآلية للكون، أو كيان عضوي مصمت متماسك حسب الرؤية العضوية أو خليط منهما. والعالم يتسم بالسببية الصلبة الكاملة، بمعنى أن كل شيء له سبب مادي وأن ـ أ- ستؤدي حتما إلى ــ ب- دائما وأبدا إن تكررت نفس الظروف.[2]

ولا يشكل الإنسان أي استثناء من هذه المعادلة، وإنما هو جزء لا يتجزأ من هذه المنظومة فهو كائن طبيعي موجود في كليته داخل النظام الطبيعي يسري عليه ما يسري على الكائنات الأخرى، يخضع لنفس القوانين وليس له أي تميز أو خصوصية، ومن ثم تسقط كل الحدود الإنسانية المتعينة وتسقط معها كل الهويات، ومع الهوية، يسقط العالم المركب حيث توجد الأنا والآخر، وحيث يوجد الإنسان ككائن أخلاقي مسؤول عن أفعاله، يختار بين الخير والشر، بدلا من ذلك، يظهر عالم مستو أملس لا حدود له، يدخل السعادة على العقول المادية الطفولية.[3]

ولذلك نقول مع عبد الوهاب المسيري إن المشروع المعرفي الغربي كافر بالمعنى العميق للكلمة، فهو ليس كافرا بالإله فحسب، وإنما كافر بالإنسان أيضا إذ يعلن موت الإله ثم موت الإنسان ككائن متميز عن الطبيعة، وينزع القداسة عن كل شيء وينكر المعنى.[4]

---

(1) إعمال العقل من النظرة التجزيئية إلى الرؤية التكاملية، لؤي صافي، ص 61.

(2) إشكالية التحيز رؤية معرفية ودعوة للاجتهاد ج 1 تحرير عبد الوهاب المسيري، 1996، ص 48.

(3) نفسه، ص 74.

(4) نفسه، ص 75.

4-لا شكّ في أنّ الطبيعة هي كتاب مفتوح، لكنّه ليس مفتوحاً للقراءة فحسب بلغة المثلثات والهندسات على ما يُؤوّل الفهم الرياضي البارد للعالم، بل مفتوحاً للقراءة بلغة الدلائل على الحضور الإلهي إلى جانب الإنسان، وعلى تذكُّر المهمة الكبرى وهي مشروع الخلافة الكونية، وعلى اشتقاق القيم أيضاً؛ لأنّ هذا كلّه يجد أصله في وحدة الصلة ووثاقتها بين الرؤية الوجودية والنظام القيمي، وإدراك الطبيعة والبيئة[1] وهذا ما يقصده (بيجوفيتش) بقوله: إن الإنسان ليس مُفصلاً على طراز «داروين»، كما أن الكون ليس مفصلاً على طراز «نيوتن».[2]

وعليه، فإن القراءة الغائية للكون تفتح أمام الإنسان آفاقا من الإمكانات وتوسع وسائل ومجالات الإدراك، مما من شأنه أن يساعد على الظفر بالمعنى وامتلاك القدرة على مواجهة التحديات والصعاب، ولذلك يقول (عبد الحميد أبو سليمان): ما أقسى الحياة وما أشد تفاهتها إذا لم تكن سوى لقمة عيش ومتع وصراعات حيوانية تنتهي بالإنسان إلى الموت جيفة جسدية نتنة تدفن وتوارى التراب، ووهم كل ما يقال بعد الغيبة العدمية، تراب في جوف التراب، حيث لا معنى للعقل ولا للضمير ولا للخيار ولا للمسؤولية، ولا لقدرة الإبداع إذا كان الموت نهاية فناء وعدم.[3]

إن التأمل المجاوز للقراءة الصماء للكون . قراءة المثلثات والزوايا الحادة . يوصلنا إلى التصنيف الثلاثي الآتي: حركة النباتات . حركة الحيوانات . وسلوك الإنسان. فنحن نلاحظ أن النباتات تتحرك من خلال النمو، غير أنها لا تدري إلى أين تمضي، فالشجرة تمد جذورها إلى أعماق التربة، لا لأنها تدرك أن الماء والمواد المغذية موجودان هناك؛ ومن جهة أخرى، فالحيوانات تدرك بحواسها إلى أين تمضي، ولكنها لا تدري لماذا؟ فالعصفور مثلا بفضل قدرته على الإبصار ينتقي المواد المناسبة لبناء عشه، غير أنه لا يبني هذا العش لأنه يدرك أن ذلك ضروري للتوالد، بل إن ردود فعل العصفور تثيرها حوافز معينة بطريقة آلية،

(1) من عقلانية الحداثة الغربية إلى عقلانية الإيمان التوحيدي عبد الرزاق بلعقروز، مجلة إسلامية المعرفة، عدد 76 ص 39.

(2) الإسلام بين الشرق والغرب، 66.

(3) الإنسان بين شريعتين، عبد الحميد أبو سليمان، ص 48.

فشمس الربيع الدافئة تجعل الغدد النخامية عند العصفور تفرز بعض الهرمونات التي تحرك نشاط بناء العش، والعصافير التي تحقن بهرمون الأستروجين الأنثوي تشرع في بناء الأعشاش في غير أوانها.

النباتات تحرك نفسها، ولكنها لا تدري إلى أين تمضي، والحيوانات تدرك إلى أين تمضي، ولكنها لا تعرف السبب، ولإكمال مراتب الأحياء لابد من وجود مخلوقات لا تعرف فقط إلى أين تمضي، ولكن لماذا تمضي أيضا ونحن البشر نشكل هذه المخلوقات، والملكة التي تمكننا من فهم علل الأشياء تسمى العقل أو الفكر، وهي تسمى كذلك سلطان العقل لأننا بواسطتها نتعرف على علل الأشياء.[1]

بناء على ما سبق نطرح الأسئلة التالية: هل هناك هدف من وجود الإنسان في الكون؟ أهناك غرض في الطبيعة، أم أنها مجرد حركة دائمة متكررة، أو حركة متطورة نحو درجات أعلى من النمو والتقدم، أم أنها حركة خاضعة للصدفة؟ ما المبدأ الواحد في الكون، أو القوة المحركة له، الذي يمنحه هدفه وتماسكه، ويضفي عليه المعنى؟ أهو كامن فيه، أم متجاوز له؟[2].

يقوم في ذهن الإنسان تساؤل وجودي بصفة فطرية، فما أن يبدأ في التعامل مع البيئة الكونية تعاملا عقليا، حتى يرد على خاطره سؤال ذو ثلاث نقاط أساسية: مأتى العالم، ومصيره، وحقيقة حركته فيما بين المأتى والمصير. ولم تكن المذاهب الفلسفية منذ عرف الإنسان الفلسفة إلا محاولات في الأصل للإجابة على هذه الأسئلة إزاء الوجود، بل إن الأساطير والخرافات صيغت إشباعا لما ورد على خاطر الإنسان من تساؤلات.[3]

إن امتداد الحياة إلى ما بعد الموت شرف خص به الإنسان دون سائر الموجودات الكونية، وهو شرف يعكس ما أراد الله تعالى له من تكريم، فانتفاء العدم في حق الإنسان هو في ذاته تكريم له، لما في العدم من النقص، وما في الوجود من الكمال، ثم إنه دافع لا يضاهيه

---

(1) العلم في منظوره الجديد، ص 32.

(2) العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، 2/ 445.

(3) خلافة الانسان، عبد المجيد النجار، ص 39.

دافع إلى الاكتمال المادي باستثمار الكون، والروحي بتحصيل الفضيلة. فالإيمان بالخلود يفتح أبواب الأمل ويسد أبواب اليأس والقنوط، فيندفع الإنسان في الإنشاء الحضاري مادة وروحا، بما يحقق من سيطرة على موارد الكون، وسيطرة على نوازع الهوى، إنجازا في ذلك للخلافة التي ينال بإنجازها أرقى الدرجات في حياة الخلود.(1)

لقد جاءت التعاليم الإسلامية تشرح حقيقة الإنسان على أنه كائن كريم رفيع الشأن، سواء في خلقه الابتدائي المستقل محفوفا بالإجلال الإلهي، أو في كيانه المادي والمعنوي المستجمع لما تفرق في الكائنات، أو في تحميله أمانة التكليف التي خص بها دون المخلوقات، أو في تحريره من كل مهيمن مذل سوى الله تعالى، أو في مد حياته إلى الخلود وتخلصه من كابوس الفناء، ومن شأن تصور الإنسان بهذا التكريم حينما يحل في النفس محل الاعتقاد، أن ينشئ في المؤمن به عزة وقوة وأملا، فتشيع فيه الطمأنينة والأمن، ويدفعه إلى التعمير في الأرض سعيا إلى النعيم في حياة الخلود، وأين من هذه العقيدة تلك التي تصور الإنسان على أنه في بداية وجوده محض صدفة عمياء، أو أنه في كيانه بعد مادي مظلم، أو أنه في حياته عابث لا غاية له، أو أنه في علاقته بالكون مستذل لقوى معلومة أو مجهولة، أو أنه في مصيره آيل إلى العدم الرهيب؟ إنه تصور يفضي لا محالة إلى ضروب من الاستغراق المادي المفضي إلى التظالم والتهارج والبغي، وضروب من اليأس والخوف والقلق، وكل ذلك يخل بالأداء الحضاري الحق، مهما يبلغ الإنسان من مقام في الإنجاز المادي، كما هو الحال في حضارة اليوم.(2)

ثانيا: مشكلة المعيارية

هل هناك معيارية أساسا؟ ومن أين يستمد الإنسان معياريته: من عقله المادي، أم من أسلافه، أم من جسده، أم من الطبيعة- المادة، أم من قوى متجاوزة لحركة المادة؟(3)

---

(1) قيمة الإنسان، عبد المجيد النجار، ص 49.

(2) نفسه، ص 55- 56.

(3) العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة 2/ 546.

ومن أهم الكتابات التي تناولت مفهوم الاستخلاف بأبعاده المعرفية والمنهجية كتاب: (ابتلاء الإرادة بالإيمان والعبادة والإسلام) لعبد الرحمان حسن حبنكة الميداني، الذي عمل على الربط بين الابتلاء وأمانة الاستخلاف.

وقد استطاع بحس بيداغوجي ونفس شفافة، أن يوضح أمانة الاستخلاف من خلال تصوير عرض الأمانة، بواسطة حوار مشوق ومؤثر ومقرب للمقصود بشكل جيد وقاصد، منطلقا من آيتين مؤسستين ومحوريتين في الموضوع:

آية الأمانة وآية الذر؛ أما آية الأمانة فقوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ ۖ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب:73].

وأما آية الذر فقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: 172].

وقد استنتج من الآيتين أن: ربوبية الله مغروزة في فطر نفوس الناس، وإن نسي الناس حدث الإشهاد الذي أخبر الله عنه للتعريف به.

ومعرفة حق الأمانة والإقرار بهذا الحق، والاستعداد للوفاء به، أمور مغروزة أيضا في فطر نفوس الناس، وإن نسوا حدث عرض الأمانة وقبولهم لهذا العرض، وتحملهم المسؤولية تجاهه، للظفر بالخلود في دار النعيم بعد رحلة الامتحان.

أما الإشهاد على الربوبية فقد تم في عالم الذر، بعد منح الله الوحدات الذرية التي نمت منها الكائنات البشرية بعد ذلك، الصفات التي تؤهلها لإدراك الخطاب، ولمعرفة معنى ربوبية الله للعباد، ولشهود أدلة هذه الربوبية، وبعد أن شهدت لله بأنه هو ربها، أي: خالقها وممدها بغذاء البقاء والنماء، مسح من ذاكرتها هذا الحدث، وأبقى في عمق فطرتها ما يهديها إلى إدراك ربوبيته والتماس عونه ومدده، والخضوع له.

وأما تحمل الإنسان الأمانة ودخوله رحلة الامتحان طائعا غير مكره، لكنه ظهر عند التنفيذ وهو في رحلة الامتحان أنه ظلوم جهول، لم يؤد من الأمانة التي حملها، واستعد أن يؤدي حقوقها ما يجب عليه فيها، فيحتاج شيئا من الشرح؟

يتساءل المتسائل عن الأمانة التي عرضها الله عز وجل على السماوات والأرض والجبال والإنسان، فأبت السماوات والأرض والجبال أن تحملها، وخفن من مسؤولية حملها، ومن التكليف الذي يرافقه، ومن الحساب والجزاء اللذين يتبعان ذلك، وحملها الإنسان، واستعد أن يتحمل التبعة من حساب وجزاء؟

وللإجابة عن هذا التساؤل من تحليل للصفات التي تتمتع بها هذه الكائنات، ولعناصر الأمانة لإدراك الأمور التي جعلت السماوات والأرض والجبال تأبى حملها، والتي جعلت الإنسان يقبل حملها، ويستعد لتحمل التكليف حولها، وتبعة الحساب والجزاء بعد ذلك.

إن العرض يستلزم إدراك المعروض عليه حقيقة معنى ما يعرض عليه، أي فهمه والعلم به، إذا كان الأمر على الحقيقية لا على المجاز، وهو الأمر الذي يستدعيه ظاهر البيان القرآني.

والفهم لشيء ما يستلزم وجود أداة الفهم، أو جهاز الفهم لدى الفاهم، والاستعداد لإدراك وسيلة التفهيم، والإدراك قد يكون صفة للمخلوق، دون أن تكون له صفات الشهوة والإحساس باللذة والألم ونحو ذلك، ودون أن تكون له إرادة واختيار وقدرة على تنفيذ شيء مما يريد.

وهل يشترط أو لا؟ هذا أمر من أمور الغيب عنا، ومن الصعب البت فيه.

وقد أخبرنا الله عزوجل أن كل شيء يسبح بحمده، ولكن لا نفقه تسبيحهم، فهل هو بدلالة الحال، أو هو تسبيح معه نوع إدراك خلقه الله للأشياء؟

الاحتمالان قائمان، والثاني منهما غير مستحيل، والله على كل شيء قدير، والعلوم الحديثة قد كشفت لنا من خصائص الخلايا وأعمالها ووظائفها، وما تؤديه من أعمال متقنة

ما يدهش العقول، وكأن لها إدراكا، وتحمل إنذارات ورسائل، وترجع بالمطلوب على أحسن وجه، فسبحان الخالق العليم الحكيم، الذي هو على كل شيء قدير.[1]

وهذا مسلك في الاستدلال بديع ومقنع عند الميداني، متوسلا في ذلك باستحضار الإمكانات الهائلة التي زود بها الإنسان، ومتوسلا بضرورة توسيع المدارك وعدم الركون إلى مجرد المادي المحسوس.

وبناء عليه يقول: حين عرض الأمانة على السماوات والأرض والجبال وعلى الإنسان الأول وفيه ذريته، أو على الإنسان الشامل لكل أفراد النوع وهو في عالم الذر، لابد أن يكون هؤلاء قد أدركوا ما عرض عليهم وفهموه، حتى أبى حمل الأمانة من أباه، وقبل حملها من قبله.

ويمكن أن نصور هذا العرض والحوار الذي جرى حوله تخيلا، واستنباطا من وجيز البيان:

العرض: أتريدين أيتها السماوات والأرض والجبال أن تحملي الأمانة؟ أتريد أيها الإنسان أن تحمل الأمانة؟

المعروض عليهم: ما هي الأمانة التي نحملها؟

العرض: تجعل لكم إرادة حرة، وسلطة على بعض ما يوضع في ذواتكم من قوى وطاقات وأشياء أمانة عندكم، على سبيل الإعارة للانتفاع أو الوديعة، ويؤذن لكم بالتصرف فيها بإرادة حرة لكم، وبالتصرف فيما حولكم من الكون، مما تصل قدراتكم إليه أو إلى مفاتيحه.

المعروض عليهم: هذا التصرف من صفات الخالق الملك، وكيف نتصرف وليس لدينا رغبات ولا شهوات، ولا حاجات ولا أهواء، ولا نستطيع أن تكون لنا صفات الرب الحكيم؟

العرض: تخلق فيكم رغبات وشهوات، وحاجات وأهواء، ولذات وآلام.

المعروض عليهم: وهل يباح لنا أن نتصرف بإراداتنا الحرة، وفق رغباتنا وشهواتنا وحاجياتنا وأهوائنا دون مسؤولية؟

---

(1) ابتلاء الإرادة بالإيمان، عبد الرحمان حسن حبنكة الميداني، بتصرف، ص 17- 18.

العرض: يعطى لكم التمكين من التصرف، لكن لا على سبيل إباحة كل شيء.

المعروض عليهم: كيف نتصرف إذن؟

العرض: يوجه لكم التكليف لفعل أشياء وترك أشياء على خلاف رغباتكم وشهواتكم وأهوائكم، ويباح لكم أشياء لتلبية مطالب حاجاتكم وشهواتكم، فأنتم إذن ملاحقون بالمحاسبة والجزاء على اختياراتكم.

المعروض عليهم: هذا تكريم وتشريف، مقرون بتكليف ومسؤولية، وبعده حساب وجزاء، ولكن هل يبقى في ذاكرتنا هذا العرض وهذا الحوار؟

العرض: تطوى من ذاكرتكم هذه المعرفة الحاضرة بخالقكم، ويبقى فيكم ما يشدكم إلى معرفته والإيمان به إيمانا غيبيا، وإلى معرفة الغاية من وجود الأمانة الكبرى تحت سلطتكم، وترسل إليكم الرسل، وتنزل إليكم الكتب، لتعريفكم وبيان المطلوب منكم، وإنذاركم وتحذيركم، وتبشير من آمن وأطاع منكم، ويخبرونكم بما جرى في هذا العرض.[1]

أقول: يمكن تفسير يطوى من ذاكرتكم بالفطرة، وبالدوار الميتافيزيقي عند بيجوفيتش حيث طرح سؤالا عميقا مفاده: لماذا أصيب الإنسان بالدوار الميتافيزيقي (الاهتمام الشديد بالبحث عن المعنى)[2]؟ لماذا توقف عن تحسين كفاءته في الصيد ليقوم ببعض الشعائر التي لا معنى لها من منظور مادي نفعي..؟ كان الإنسان يسأل عن كيفية البقاء وعن آليات الاستمرار، ثم بدأ يسأل فجأة عن المعنى والهدف من وجوده.. أي أنه بدأ يسأل لماذا..؟ لو كنا حقا من أبناء هذا العالم المادي فحسب، فلن يبدو لنا فيه شيء نجسًا أو مقدسًا، لأن هذه المفاهيم غير مادية إطلاقا، ومناقضة تماما للعالم الأرضي الذي نعرفه. كما أننا لا نستطيع أن نجد أثرًا لعبادات أو محرمات أو مقدسات في أكثر أنواع الحيوانات تطورًا.

---

(1) ابتلاء الإرادة بالإيمان، ص 23.

(2) لفكتور فرانكلViktor Frankl كتاب تحت عنوان (الإنسان يبحث عن المعنى يناقش فيه العوالم العميقة واللامحدودة لقدرات الإنسان خارج الماديات والمحسوسات).

إن ظاهرة الحياة الجُوّانية أو التطلع[1]إلى السماء ظاهرة ملازمة للإنسان، غريبة عن الحيوان، هذا الجانب من الإنسانية، وهذه الظواهر (الخير والشر، المقدس والمدنس، الشعور بالفجيعة، الصراع الدائم بين المصلحة والضمير، التساؤل عن وجودنا) تظلّ جميعها مستعصية على أي تفسير منطقي، ولكن انطلاقا من الإيمان بثنائية الإنسان والطبيعة، والاختلاف الجوهري بين الاثنين، وثنائية الطبيعة البشرية، يبين علي عزت بيجوڤيتش أن أصل الإنسان لا يمكن أن يكون ماديًّا، فهو ليس نتيجة تطور مادي، فالعنصر الروحي في الإنسان الذي يستعصي على التفسيرات المنطقية المادية، لا يمكن أن يوجد إلا بفعل الخلق الإلهي، والخلق ليس عملية مادية وإنما فعل إلهي. ليس شيئًا متطورًا، وإنما هو فعل فجائي (كن، فيكون). «فمنذ تلك اللحظة المشهودة، لم يعد ممكنا للإنسان أن يختار بين أن يكون حيوانا أو إنسانا، إنما اختياره الوحيد أن يكون إنسانا أو لا إنسان». وبذلك ربط علي عزت بيجوفيتش بين الإنسان وبين الله، بمعنى أن الإنسان لا يمكن أن يكون إنسانا إلا بوجود الله، فإن مات الله (كما يزعمون في الحضارة الغربية) مات الإنسان، أو إن نسينا الله (كما نقول نحن) فإننا ننسى أنفسنا.[2]

هذه الاستنتاجات تعجز المنظومة المادية عن تفنيدها بالأدلة العلمية، ولا يبقى أمامها إلا الحدس والتوسم، والبحث عن تبريرات متناقضة، والذهول عن الحقائق الناصعة، حيث يشيع داخل الأوساط المادية أن مجال العلم هو مجال المنطق والوضوح والاستدلال والبرهان، وأن مجال الدين هو مجال اللامنطق والغموض وغياب النسقية، لكن بيجوفيتش مساجل متمرس قادر على أن يتقدم بالدليل إلى غايته ومنتهاه، ولذلك يرى أن الخرافة ليست مرتبطة بالأديان البدائية فقط، ولكن العلم أيضًا لديه معتقداته الخرافية، وذلك عندما يترك

---

(1) إن التأمل في النفس الإنسانية وما جبلت عليه من الأحاسيس والطبائع، وقراءة آفاق الكون وما ركبت عليه من نظام وتناسق ليفضي كله إلى الاعتقاد بالوجود الإلهي. فالنفس الإنسانية تنطوي على توق فطري إلى كائن عظيم تنسب إليه صفات الكمال، وتنشد عنده الحماية والأمن والطمأنينة، وهذا شعور يجده كل إنسان في نفسه في لحظات الضعف والفزع، وعند مشارف الهلاك، مهما اشتط به الغرور في أوقات السعة، وزمن الهدوء. خلافة الإنسان بين العقل والوحي، بحث في جدلية النص والعقل والواقع، عبد المجيد النجار، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط 2- 1993 ص 43.

(2) رحلة الإنسانية والإيمان، عبد الوهاب المسيري. ص، 138.

مجال الطبيعة. فإذا كان الذكاء الإنساني قد أكد نجاحه في الأمور المتعلقة بالعالم المادي (كما في علم الطبيعة والفلك وغيرهما)، فإن هذا الذكاء نفسه بدا شاكًّا أخرق في مجال الحياة، فعندما استخدم العلم مناهجه التحليلية والكمية في مجال الحياة انتهى إلى نفي بعض الحقائق النفسية والحياتية الجوهرية، فاختزلها إلى مظاهرها الخارجية فقط. وهكذا، رأينا علم الاجتماع الديني يقضي على الجوهر الأساسي للدين، ورأينا علم البيولوجيا قضى على الحياة، وعلم النفس يقضي على النفس، وعلم الأنثروبولوجيا يقضي على الشخصية الإنسانية، وفقد التاريخ معناه الإنساني الجواني.[1]

ولقد أجاد وأفاد (محمد أمزيان) في إيضاح هذه الفكرة حين ناقش ميتافيزيقا علم الاجتماع على سبيل المثال، ووقف على ثغرات منهجية في كثير من القضايا المتناولة، بحيث هناك تعميمات بعيدة عن العلمية، فالتعميم يأتي بعد الاستقراء التام وهو ما لا يسعف الباحثين في علم الاجتماع، خصوصا إذا أخذنا بعين الاعتبار الدعوى القائمة على جعل قوانينه ومبادئه مثل القوانين الطبيعية من حيث الدقة والصرامة. وبالإضافة إلى التعميم في إطار دراسة التجمعات البشرية، هناك الإطلاقية في الأحكام وغياب النسبية، وذلك راجع إلى التعسف في الإسقاطات والتأويلات المسبقة، والإصرار الجلي على المماثلة والمطابقة بين الظواهر الإنسانية والطبيعية. فلم يستطع رواد الوضعية المنطقية في كثير من تحليلاتهم الوفاء لمنهجهم الصارم والحَدِّي، مما حذا بهم في كثير من الأحيان إلى اللجوء إلى التصورات الميتافيزيقية سواء فيما يتعلق بتطور المجتمعات، أو أصل النظم ونشأتها، ودراسة الشعوب البدائية، والظواهر الاجتماعية غير الحسية، وينابيع التدين لدى الإنسان.[2]

نعود لنتابع الحوار الذي صوره الشيخ حبنكة الميداني: **المعروض عليهم:** وما هو نوع الجزاء؟

---

(1) الإسلام بين الشرق والغرب، ص 365.

(2) منهج البحث الاجتماعي بين الوضعية والمعيارية، محمد أمزيان، ص 66 وما بعدها.

العرض: عذاب أليم أبدي بالحريق في دار عذاب، على الكفر بالرب الخالق والإشراك به، وجحود ربوبيته أو ألوهيته، وعذاب دون ذلك بالعدل حسب المعاصي والإساءات.

ونعيم أبدي في جنات نعيم خالدة، على الإيمان بالخالق إيمانا غيبيا، والإسلام، ودرجات من النعيم بعضها فوق بعض، بقدر ما يقدم كل واحد منكم من صالح الأعمال، مع احتمال غفران او عفو عن سيئات دون الشرك بحسب مشيئة بارئكم.

قالت **السماوات والأرض والجبال:** هذه مخاطرة مخيفة نأبى قبولها، ما دام الأمر عرضا لا جبر فيه، فنحن نأبى حمل هذه الأمانة.

الإنسان: قبلت هذا العرض، فأنا أحمل هذه الأمانة الكبرى، وأتحمل تبعتها، وتحلو عندي هذه المخاطرة، ويشدني إليها الطمع بمقام التكريم، وببلوغ المجد العظيم.

العرض: خذ الأمانة أيها الإنسان، وستدخل رحلة الامتحان في الوقت المقدر لدخولك عبر الحياة الدنيا، منذ بلوغك سن التكليف حتى وفاتك، ثم تكون لك حياة أخرى لمحاسبتك ومجازاتك.[1]

إذا كانت العقيدة الإسلامية هي مجموعة من المفاهيم والتصورات، المستنبطة عبر جهد اجتهادي من مصادر الوحي، فلا يصح اعتبارها مكافئة في محتواها المعرفي للتصور الكلي الثاوي في نصوص الوحي، بل يجب النظر إليها على أنها مقاربة للتصور الإسلامي الكلي للوجود، قابلة للتطوير والتعديل والتصحيح والتدقيق. لقد أدرك علماء الكلام الأوائل أن الاجتهاد الفكري المبذول لتحديد أسس العقيدة الإسلامية، لا يرقى إلى مستوى التصور الثاوي في نصوص الوحي، فنسبوا العقيدة لا إلى القرآن أو الإسلام، بل إلى المجتهد الذي حدد أسس العقيدة وفصّل مسائلها. ومن هنا نُسبت المنظومات العقدية المتحصلة من اجتهاد علماء السلف إليهم، فدونت العقيدة الطحاوية، والعقيدة الوَاسطية، والعقيدة النسفية وغيرها.[2]

---

(1) ابتلاء الإرادة بالإيمان، ص 20.

(2) العقيدة والسياسة، لؤي صافي، ص 58.

ومن صور تجديد الدرس العقدي المعاصر، ما قام به عبد الرحمان حسن حبنكة الميداني، الذي استبطن أسئلة العصر ومشكلاته ليجيب عنها انطلاقا من أساليب العصر، لكن تحت مظلة الوحي وفي تربته، وما أحوجنا إلى هذا المسلك من أجل تحقيق كسبنا الذاتي من نور الوحي وهادياته وبصائره، دون أن نبقى عالة على كسب غيرنا.

المحور الثاني: جواب القرآن عن الاسئلة الوجودية من خلال قصص القرآن (قضايا ونماذج)

إن الربط بين الأسئلة الوجودية والقصة القرآنية، لم يكن مجرد ادعاء بدون دليل؛ وإنما لأن موضوع القصة القرآنية هو الإنسان المستخلف في الأرض، وما يدور حوله في الكون وما يحدث له، وما ينبغي أن يكون عليه حاله، وما ينبغي أن يعرفه من أمور العالم المنظور والغيب غير المنظور.

ومن أهم القصص المرتبطة ارتباطا وثيقا بفلسفة الوجود قصة آدم عليه السلام، وما تضمنته من الإشارة إلى الخلق وإلى التكريم وإلى الابتلاء، وإلى الأمانة والاستخلاف وأسباب السعادة والشقاء، ووظيفة الإنسان في الكون، وإلى نعمة اللغة وإلى القيم والجمال واللباس، وإلى التدافع بين الخير والشر، وإلى الحاجة إلى الخالق، والتوبة بعد الخطأ والقابلية للخطأ، وإلى المسؤولية عن الخطأ وتجنب كل أشكال الثقافة الاعتذارية.

أولا: بخصوص أصل البشرية.

قال تعالى: ﴿وإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: 30]؛ يؤكد هذا النص القرآني بأن أصل البشرية كلها زوج واحد، خلقه ربنا تبارك وتعالى خلقا خاصا ب (الخليفة)؛ لأنه تعالى وضع في بنائه القدرة على التزاوج وإنتاج سلالة خصبة ملأت الأرض ببلايين من الأفراد الذين عاشوا وماتوا، وبالبلايين الذين يملؤون جنبات الأرض اليوم، والبلايين الذين سوف يأتون من بعدنا إلى قيام الساعة.

وهذا من معاني لفظ الخليفة لأن البشر يخلف بعضهم بعضا على الأرض، ولأن كل فرد منهم مستخلف من الله تعالى على الأرض، استخلاف تكريم وتشريف مع الابتلاء والامتحان لكل فرد من بني الإنسان.[1]

وحقيقة الخلق الخاص للإنسان طمرتها الحضارة المادية المعاصرة، تحت ركام فكرة التطور العضوي، وهي فكرة أشاعها عدد من ضُلَّال الإنس للتخلص من الإيمان بالخلق ومن السجود للخالق عز وجل في طاعة وعبودية كاملتين. وقد أغواهم الشيطان بذلك عن طريق السجل الأحفوري الذي يشير إلى قدم الحياة على الأرض نحو 3800 مليون سنة فقط، وإلى قصر سلالة الإنسان عليها (نحو أربعين إلى خمسين ألف سنة فقط) وإلى تدرج عمارة أرضنا بموجات متتابعة من صور الحياة، التي بدأت بقلة من العدد وبساطة من البناء والتركيب، ثم تزايدت عددا وتعقدت بناء وتركيبا مع الزمن، على الرغم من عدم تكامل السجل الأحفوري وكثرة الثغرات به.

وهذه الملاحظة العلمية الصحيحة، استخدمتها الحضارة المادية المعاصرة في محاولة يائسة لنفي عملية الخلق، والتنكر للخالق سبحانه وتعالى، انطلاقا من ادعاءات ثلاثة:

1. الادعاء الباطل بعشوائية تخلق الصورة الباكرة للحياة، وقد أثبت العلم استحالة ذلك.
2. الادعاء بعشوائية التدرج في تتابع الحياة، علما بأن هذا التتابع يسير دوما إلى تكامل في الخلق، والعشوائية تعجز عن تحقيق ذلك التكامل.
3. الادعاء الباطل بأن الإنسان منبثق عن سلسلة الحياة الحيوانية السابقة على وجوده، وهذا ما لم يستطع أحد إثباته من أدعياء التطور العضوي حتى اليوم، وذلك لتميز الصفات التشريحية والوراثية الخاصة بالإنسان، عن جميع المخلوقات السابقة على وجوده، مع التسليم بوحدة البناء في الخلائق جميعا، وهي تشهد على وحدانية الخالق سبحانه وتعالى، وإذا أضفنا إلى ذلك الذكاء الواضح في الإنسان، وقدراته الذهنية الحاضرة، وتمكنه من الإدراك والشعور والانفعال بدرجات متميزة، ومن التعبير عن انفعالاته ومشاعره بوضوح، ومن

(1) قصة بدء الخلق، محمد علي الصلابي. ص 291.

النطق بالكلام المنطقي المرتب، بالإضافة إلى قدرته على اكتساب المعارف وتعليمها، وعلى إتقان المهارات وتوريثها، وغير ذلك من القدرات التي اختص بها الله تعالى الإنسان، يتضح زيف المحاولات البائسة لربط الإنسان بسلسلة الحيوانات السابقة على وجوده.[1]

ومن أبرز الأدلة على نفي الفكرة الخاطئة، التي تنادي بأن الإنسان متسلسل عما قبله من الحيوانات، هو حقيقة التسلسل الوراثي الذي ينتهي بنسب البشر جميعا إلى أب واحد وأم واحدة؛ هما اللذان وصفهما ربنا تبارك وتعالى مخاطبا خاتم الأنبياء والمرسلين بقوله العزيز ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: 30]

وأكد ربنا تبارك وتعالى حقيقة خلق أبوينا آدم وحواء من نفس واحدة، فقال عز من قائل: ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ، واحِدَةٍ، وخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء:1].

ثانيا: شمول الخلافة لكل البشر.

كذلك أكد الله الخالق سبحانه وتعالى خلافة البشر بعضهم لبعض وهم من أصل واحد، فقال وقوله الحق: ﴿ياأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: 13]

ويؤكد القرآن الكريم أن البشر جميعا إلى قيام الساعة، كانوا في صلب أبيهم آدم عليه السلام لحظة خلقه، وأن الله تعالى قد أسجد الملائكة لأبي البشر، ونحن جميعا في صلبه، فكأنما أسجدهم لنا جميعا نحن الخلفاء في الأرض، آدم وجميع نسله، إلى آخر فرد من هذا النسل، ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾ [الأعراف: 11].

ومن هنا تتضح ومضة الإعجاز الإنبائي والعلمي في قول ربنا تبارك وتعالى: ﴿وإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة 30]، وذلك يدل بالتأكيد على الحقيقة التاريخية لأبوينا آدم وحواء عليهما السلام، اللذين أرادت الحضارة المادية المعاصرة إنكار

(1) نفسه، ص 293.

وجودهما إنكارا تاما، ورد البشرية إلى عدد من الأصول الحيوانية المختلف عليها دون دليل قاطع.

ويؤكد القرآن الكريم أن آدم عليه السلام هو أبو البشر جميعا، وأول أنبياء الله جميعا، وأن الله خلقه من أديم الأرض بيديه، ونفخ فيه من روحه، وعلمه من علمه، وأسجد له الملائكة سجود احترام وتوقير، وأدخله هو وزوجته الجنة، ثم استخلفه ونسله في الأرض، وفضله على كثير ممن خلق تفضيلا.

ولفظ خليفة في هذا النص القرآني الكريم جاء بالإفراد، ما دفع بعض المفسرين إلى اعتبار الخليفة هو آدم وحده، ولكن لما كانت ذرية آدم جميعها قد خلقت من صلبه لحظة خلقه، كانت خلافة الأرض لآدم لجميع بنيه من بعده إلى قيام الساعة، والخليفة اسم يصلح للواحد والجمع، كما يصلح للذكر والأنثى.

وعلم الوراثة يقول عن الفرد منا، الذي يتكون جسده من ألف تريليون خلية في المتوسط: إنه يرد إلى خليتين تناسليتين لا تريان بالعين المجردة؛ إحداهما من الأب والأخرى من الأم، ويرد جسد كل واحد من الآباء والأمهات بالتسلسل الزمني، حتى يصل بكل واحد منهم إلى خلية تناسلية من أبينا آدم وأخرى من أمنا حواء، عليهما رضوان الله، ومعنى ذلك أن البشر جميعا الذين عاشوا وماتوا، والذين يملؤون جنبات الأرض اليوم، والذين سيأتون من بعدنا إلى قيام الساعة، كانوا في صلب أبوينا آدم وحواء عليهما السلام لحظة خلقهما، لذلك عبر النص الكريم الذي نحن بصدده عن هذه البلايين، التي لا تعد ولا تحصى باللفظ المفرد (خليفة).

ولما كان علم الوراثة من أحدث المعارف المكتسبة، فإن سبق القرآن الكريم بالإشارة إلى تلك الحقيقة العلمية من قبل ألف وأربعمائة سنة، يعد واحدا من أوجه الإعجاز العلمي والإنبائي في كتاب الله، الذي أكد حقيقة وجود بني آدم جميعا في صلب أبيهم آدم عليه السلام لحظة خلقه، وذلك بوصف استخلاف آدم وذريته في الأرض بالإفراد (خليفة)، وزاد القرآن الكريم في تأكيد هذا المعنى بقوله تعالى، ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ

ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: 172].

1) الاستخلاف غاية الخلق، تعليم آدم، والأمر بالسجود له، واستكبار إبليس.

إن قصة آدم بدأت في سورة البقرة والأعراف، بذكر خلق الأرض والسماوات السبع، والذي أتبع بذكر الاستخلاف وخلقِ آدم، قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 29]، وقال: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: 10]، ثم جاء ذِكر النبأ العظيم الذي فيه اختصامُ الملأ الأعلى في لحظة حاسمة من تاريخ الكون، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: 30] أي: بشرًا يخلف بعضُهم بعضًا للقيام بعمارة الأرض على طاعته، أو خَلِيفَة عَنِ الله تعالى في إقامَةِ شَرْعِهِ، ودَلائِلِ تَوْحِيدِهِ، والحُكْمِ في خَلْقِهِ، (قَولُ ابنِ مسعودٍ ومُجاهِدٍ) أو أنَّهُ خَلَفُ مَن سَلَفَ في الأرضِ قَبْلَهُ، (قَولُ ابنِ عَباسٍ والحسنِ)، فقالت الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: 30] وهو سؤال استرشاد واستفهام عن الحكمة، وليس على وجه الاعتراض أو الإنكار منهم، ولا على وَجهِ الحسدِ لِبَنِي آدمَ، وذلك بحسب ظنِّهم أن الخليفة المجعول في الأرض سيحدث منه ذلك، أو أنهم علموا بإعلام الله إياهم بذلك، أو أن الجنَّ أَفسدوا في الأرض قبل بني آدم، فقالت الملائكة ذلك، فَقاسُوا هؤلاء بأولئك. ثم خلق الله جل جلاله آدمَ بيده ﴿بَشَرًا مِنْ طِينٍ﴾ [ص: 71] أي: مادَّته مِن طين، ثم خلق زوجَه، ومنهما يتناسلُ البشرُ إلى يوم الدين: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء: 1].

وفي سياق ذكر خلق الأرض وإتباعها بذكر خلق آدم وذريته، بيان لعظيم منزلة ومكانة آدم وذريته في الأرض، والدور الاستخلافي المنوط بهم فيها، فقد اقتضت حكمة الله أن يُسَلِّم لهذا الكائن الجديد في الوجود زمام هذه الأرض، وتُطلقَ فيها يده، ويُوكَل إليه كشفُ ما في

هذه الأرض مِن قوى وطاقات، وكنوز وخامات، ليُسخِّر هذا كُلَّه -بإذن الله- في المهَمة الضخمة التي وكلها الله إليه.

إن الله خلق آدم وذريته للأرض فقال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ﴾ [البقرة: 30]، ومع ذلك أسكنهم الجنة، وابتلاهم بالشجرة، وأوقعهم فيها، ثم أخرجهم من الجنة: وفي ذلك -والله أعلم- تربية وإعداد لآدم وذريته لطبيعة الحياة في الأرض، وفيه إيقاظ للقوى المدخورة فيهم للتعرف على طبائعهم، كما أن فيه تدريبًا على كيفية تَلَقِّي الغواية، وتذوق العاقبة، وتجرع الندامة، وفيه بيان لأهمية معرفة قَدْر الأشياء ومنزلتها، وتاريخ نشأتها ومراحل تطورها، فجهل الناس بقدرهم وتاريخ نشأتهم وتكريم الله لهم، سبب في ضلالهم وانحرافهم، حتى إنهم سجدوا للأصنام![1]

وفي المشهد التالي يقص الحقُّ سبحانه أمرَ تعليم آدم وتكريمه: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: 31]، علمه سبحانَه الأسماء كلها التي يتعارف بها الناس ذواتها وأفعالها -كما قال ابن عباس-، وذلك لإقامة البيِّنة على عِلم الله الذي لا يعلمه الملائكة، حيث قال لهم: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 30]، ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ [البقرة: 31] أي: عرض تلك المسميات أو الأسماء على الملائكة، ﴿فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: 31] أي: في أن بني آدم يُفسدون في الأرض ويسفكون الدماء، وهنا أقَرَّ الملائكة واعترفوا بعلم الله وحكمته، وتعليمه إياهم ما لا يعلمون ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: 32]، فقال الله: ﴿يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ [البقرة: 33] تبين للملائكة فضلُ آدم عليهم؛ وحكمةُ الباري وعلمُه في استخلاف هذا الخليفة.

فلمَّا تَمَّ خلقُ آدم أمر الله الملائكة بالسجود لآدم، إكرامًا له وتعظيمًا؛ وعبودية لله تعالى، فقال: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر: 29]، فوطَّن الملائكةُ الكرامُ أنفسهم على ذلك، فامتثلوا أمر الله، وبادروا كلهم بالسجود، ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى﴾

---

(1) انظر مقال: هدايات من قصة آدم عليه السلام، عمر النشيواتي عدد 23 مجلة رواء، 6 نونبر 2023.

امتنع عن السجود؛ واستكبر عن أمر الله وعلى آدم، قال: ﴿أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ مدعيًا أنه خير مِن آدم، حيث إنه خُلِق من تراب وخُلِق هو من نار.

وقد اختلف الناس حول معنى تعليم الأسماء، والراجح والله أعلم أنه أعطاه القدرة على وضع المسميات وتسمية الأشياء، بدليل اختلاف الألسن في تسمية الشيء الواحد، واعتبار أن ذلك الاختلاف آية من آيات الله بالنص الصريح في القرآن.

2) الاستعدادات الفطرية التي منحها الله لآدم.

إن الحديث عن آدم – عليه السلام – هو حديث عن الخصائص والميزات، التي خص الله بها هذا الإنسان وميزه بها عن غيره، كما أنه كان حديثا عن تلك الاستعدادات والغرائز التي هيأها الله لهذا الإنسان أرضية كانت أم علوية؛ ولا عجب إذن أن نجد آدم عليه السلام بعد أن يعهد الله إليه أن ينسى، وأن يخور عزمه ويفتر عما عهد الله إليه، ولا عجب إذن أن نجد ربنا تبارك وتعالى يهيئ لآدم عليه السلام ما يصلحه ليصلح لعمارة هذه الأرض، وأن يُزود بهذه الاستعدادات: الاستعداد الجنسي أولا: وكان له بعد أن تم خلقه حيث أمره أن يسكن هو وزجه الجنة. وحب البقاء ثانيا؛ وهو ما طبع الإنسان عليه من هذا الأمل، وحب التملك ثالثا؛ ومن نتيجة هذا التنافس بين الأفراد والشعوب والأمم، والتدين رابعا حتى يستطيع أن يضبط الاستعدادات السابقة، فلا يطغى بعضها على بعض، ولا يبغي أحد على آخر... ومن أجل ذلك يحرص إبليس على أن يغوي هذا الإنسان ويضله ويضعف هذا الوازع الديني في نفسه.(1)

فقضية التدين هي قضية فطرية في الإنسان منذ أن خلقه الله تبارك وتعالى، وعرفه خالقه الواحد القدير، ومن خلاله يمكن الرد على أولئك الذين يسمون علماء الأديان؛ وهم الذين يدرسون الدين على أنه ظاهرة اجتماعية تاريخية، وتنتهي بهم دراستهم الخاطئة إلى أن عقيدة التوحيد لم يصل إليها الإنسان إلا بعد شوط طويل زاول خلاله الخرافة، وتعدد الآلهة وغير ذلك، مما هو بعيد كل البعد عن عقيدة الإله الواحد.

---

(1) قصص القرآن، فضل عباس، ص 133.

إن الله خلق هذا الإنسان سليم الفطرة، حنيفا بعيدا عن الشرك والباطل؛ ولكن هذا الإنسان انحرف عن الفطرة فيما بعد، فقضية الخرافة وتعدد الآلهة قضية عارضة لدى الإنسان، وليست أصلا كما يقول بعض علماء الأديان.[1]

إن الآيات الكريمة التي تحدثت عن قصة آدم، تركز كثيرا على أن هذا الإنسان وقد سخر الله له هذه المادة في الكون كله علويه وسفليه، حري به أن يظل في هذه الحدود، فلا يتجاوزها إلى ما لا خير فيه، ولا قبل له به، فيظل طيني المنشأ والغاية، لكن رحمة الله هي التي ترتفع به من وهدة هذا الطين، إننا ينبغي أن نؤكد تماما سلامة هذه الفطرة في قصة آدم. وصدق الله ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾ [طه: 123 ـ 125].

إن قصة الخلق توجهنا التوجيه السليم في أخطر قضيتين: قضية الفكر والعقيدة، وقضية المسلك ﴿فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى﴾ الضلال في أمور العقيدة والفكر، والشقاء في أمر المسيرة والمسلك، والضلال والشقاء مصدرهما غرور الإنسان وانخداعه بالتزيين الذي أخذه الشيطان على عاتقه؛ ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾ [الحجر: 39] والأمنيات كذلك ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ﴾ [النساء: 120].[2]

ويمكن استخلاص الأبعاد الثلاثة للخلافة الأخلاقية، من الرواية القرآنية لقصة الخليقة، وهذه الأبعاد هي: الإدراك والإرادة، وتربط بينهما نواة قيمية متماسكة، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الربوبية هما بمثابة الإقرار الذاتي بوحدانية الله، بوصفه الخالق والحكم والراعي، وهما جوهر تلك النواة. وهذا هو عهد الإخلاص لله تعالى الذي يمثل الحبل السري الذي يربط الإنسان بمصدر حياته، وبمثواه الأخير، وبالدروس التي يمكن البحث عنها ومعرفتها من أمر الخلق.

---

(1) نفسه، ص 134.

(2) نفسه، ص 140.

وثمة لحظتان بارزتان في خبرة الخليقة في صميم الوعي الإنساني، وحيويتان إرادته في بداية حياته في طورها قبل الطبيعي وقبل الدنيوي. الأولى هي (اللحظة الكونية) والثانية هي اللحظة الوجودية، وكلتا اللحظتين مترابطتان، وتلتقيان في ميزان يوم الحساب. وتؤشر آية الأمانة، وآية الشهادة، على الميثاق الأصلي بين الله تعالى وذرية آدم في العالم ما قبل الطبيعي، وهو مثال معين للحظة الأولى.

أما اللحظة الثانية فتمثلها قصة آدم، وغواية إبليس، وهبوطهما معا وفي الوقت نفسه، إلى الحياة الدنيوية على الأرض، وهي تمدنا بنواة المنظور الوجودي، واسم آدم مشتق من كونه خلق من تراب، ونموذج آدم هو نموذج بشريته في بنيته الجسدية والنفسية والأخلاقية، جنبا إلى جنب مع نموذج رسالته على الأرض. وعبر الخطاب القرآني المتعلق بالخليقة، تتضح مسائل المسؤولية، وحمل الأمانة، والغاية من الوجود ومصير الإنسان ومثواه الأخير، وعلاقته ببقية المخلوقات، بالتأكيد على سمو ونهائية تلك الآصرة الولائية التأسيسية، متمثلة في (العبودية لله) ويؤكد ذلك أن هذا الميثاق الأول هو النموذج الأصلي المحدد لكل ما تلاه من مواثيق، ومن علاقات، ومن ولاءات في مسيرة حياة الإنسان المؤقتة على الأرض.[1]

خاتمة:

أفضى الحديث عن موضوع القصص في علاقته بالأسئلة الوجودية إلى الخلاصات الآتية:

1. أن هناك علاقة وطيدة بين قصص القرآن والأسئلة الوجودية، وهو موضوع جدير بمزيد من العناية من أجل حسن استثمار القصص بما يخدم الفرد والجماعة. ومن شأن البحث في الموضوع أن يسهم في تقديم إجابات عن القضايا والإشكالات المعاصرة من داخل بنية القرآن ونسقه.

---

(1) الرؤية الإسلامية للإنسان، منى أبو الفضل، ص 98.

2. تبين أيضا التناغم بين كون الأسئلة الوجودية أمرا فطريا، وفطرية التدين المعروض من خلال قصة الخلق وما تجلى من خلال آية الذر وآية الأمانة.

3. تبين أيضا أهمية القصص في تجلية مفهوم الاستخلاف، باعتباره مفهوما مؤطرا وناظما في التصور الإسلامي، وما يتيحه من إمكانات في الفهم والتحليل والتركيب من أجل استشراف آفاق معرفية ومنهجية ودلالات تربوية وفكرية.

4. وتجلت أيضا أهمية استثمار قضايا القصص، من أجل تقريب كثير من المفاهيم والتصورات؛ من قبيل ما فعل ابن طفيل في (حي بن يقظان).

5. ينطوي قصص القرآن على كنوز مطمورة، تمكن من عرض الخطاب القرآني بأبعاده العالمية والكونية وهو واجب الوقت اليوم.

على أن نظرة مقارنة بين المعلومات التي يقدمها علم الإنسان، والمعلومات التي يقدمها الوحي حول الوجود الإنساني على الأرض، تجعلنا ندرك أنه شتان بين الصورة التي ينقلها كُتاب مسلمون عن الأنتربولوجيا للإنسان البدائي، وبين الصورة التي يرسمها الوحي للإنسان الأول. إن الإنسان الذي تتحدث عنه الأنتربولوجيا إنسان بدائي همجي متوحش له كل الصفات الحيوانية الخلقية، وكل الصفات التي يذكرها الأنتربولوجيون والتي رددها الكُتاب العرب من باب التبعية، ليس لها وجود في قاموس القرآن حول الإنسان.

إن الأخطاء التي يقع فيها الأنتربولوجي، تأتي من قبل فهم العلمية والموضوعية في البحث بمعناه الوضعي، الذي يختزل عادة في ما هو قابل للإدراك الحسي، في حين ان أصل النشأة تعتبر نشأة غيبية لا تصل إليها وسائل البحث العلمي الحسية. وما لم تتغير الأنتروبولوجيا في مصادرها المعرفية، فستظل تواجه تحديات كبيرة، لن تتجاوزها إلا في مجالات تتجاوز طاقة الإنسان وإمكانياته.[1]

لائحة المصادر والمراجع:

(1)منهج البحث الاجتماعي محمد أمزيان. ص 280.

1. **ابتلاء الإرادة بالإيمان والإسلام والعبادة**، عبد الرحمان حسن حبنكة الميداني، دار القلم، ط1، 1995م.
2. **إشكالية التحيز رؤية معرفية ودعوة للاجتهاد** ج1 تحرير عبد الوهاب المسيري، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هيردن فيرجينيا، ط 2 1996.
3. **الإسلام بين الشرق والغرب**، علي عزت بيجوفيتش، ترجمة يوسف عدس، مؤسسة العلم الحديث، بيروت، ط1، 1994م.
4. **التوحيد ومضامينه على الفكر والحياة**، إسماعيل راجي الفاروقي، ترجمة السيد عمر، مدارات للأبحاث والنشر، 2014م.
5. **خلافة الإنسان بين العقل والوحي**، بحث في جدلية النص والعقل والواقع، عبد المجيد النجار، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط 2- 1993.
6. **رحابة الإنسانية والإيمان دراسة في أعمال مفكرين علمانيين وإسلاميين من الشرق والغرب**. دار الشروق، ط1، 2012م.
7. **الإنسان بين شريعتين `رؤية قرآنية فى معرفة الذات ومعرفة الأخر**، عبد الحميد أبو سليمان، دار السلام، 2007.
8. **الرؤية الإسلامية للإنسان، الفاعلية والعقلانية والأخلاقية في القرآن الكريم**، منى أبو الفضل، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط 1، 2024.
9. **قصة بدء الخلق**، محمد علي الصلابي، دار ابن كثير 2020.
10. **مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي**، مالك بن نبي، ترجمة بسام بركة، دار الفكر، ط،1، 2002م.
11. **قيم الإسلام الحضارية**، محمد عبد الفتاح الخطيب، كتاب الأمة، قطر، عدد 139، 1431هـ.
12. **أصول الاجتماع الإنساني في المفهوم الإسلامي**، مشروع معرفي في الإصلاح الاجتماعي، محمد مجذوب صالح، مركز التنوير المعرفي، ط1، 2005م.

13. **من عقلانية الحداثة الغربية إلى عقلانية الإيمان التوحيدي** عبد الرزاق بلعقروز، مجلة إسلامية المعرفة، عدد 76.

14. **قصص القرآن،** فضل عباس، دار النفائس، ط3. 2010م.

15. **تجديد الفكر الديني** محمد إقبال، ترجمة محمد يوسف عدس، دار الكتاب اللبناني بيروت 2011.

الابتلاء والتمكين

من خلال الممارسة الاستخلافية في القصص القرآني

د. محمد البويسفي

أستاذ باحث في الدراسات الإسلامية

مقدمة

يحتل القصص حيزا كبيرا من الخطاب القرآني، وجزءا مهما من الآيات القرآنية التي جاءت لهداية الناس إلى التي هي أقوم، في كل شيء: في التفكير والتعبير والتدبير. وقد جعل الله تعالى مقاصد عدة في القصص القرآني، ومن أهمها: أخذ الدروس والعبر، مصداقا لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: 111].

وإذا كان للقصص القرآني تأثير قوي على القلوب والعقول، فلِما تتميز به من خصائص ومميزات تربوية فريدة تجمع بين المتعة والإفادة. ولذلك كان القصص القرآني أحسن القصص على الإطلاق.

وهذا ما جعل القصص القرآني يحظى بالاهتمام الكبير من لدن الباحثين قديما وحديثا، لاستنباط الهدايات القرآنية في العقيدة والسلوك، وكذلك لتجلية السنن الإلهية في الخلق. والوقوف على الممارسات الاستخلافية لدى الأنبياء والمرسلين، في حالتي الابتلاء والتمكين،

باعتبارهم خير من فهم مراد الله عز وجل من الخلق، وخير من مارس الاستخلاف على الأرض.

ونجد الابتلاء حاضرا بقوة في أغلب القصص القرآني، وبما أن الأنبياء هم أشد الناس بلاء، كان الابتلاء جليا في سيرهم وقصصهم، وكان منهجهم في الممارسة الاستخلافية أهدى وأقوم وأحق بالاقتداء، من أجل ترشيد الفكر الإسلامي في واقعنا المعاصر، والذي يعرف تدافعا حضاريا، وابتلاء شديدا، وهو في خضم ذلك يتطلع إلى تمكين موعود، يحتاج إلى تبصرة ووعي بحقيقة الابتلاء وبمنهج راشد في الممارسة الاستخلافية، بما يوصل إلى تمكين رباني مكين في الأرض.

وقد تناول البحث المحاور الآتية:

- مدخل تمهيدي حول استخلاف الله للإنسان في الأرض
- **المحور الأول:** مفهوم الابتلاء وأنواعه ومقاصده
- **المحور الثاني:** مفهوم التمكين وأقسامه في القرآن الكريم
- **المحور الثالث:** العلاقة بين الابتلاء والتمكين
- **المحور الرابع:** كيفية التعامل مع مرحلة الابتلاء
- **المحور الخامس:** كيفية التعامل مع مرحلة التمكين

وقبل أن نبدأ بدراسة المحور الأول، أود التمهيد بكلمة موجزة حول الاستخلاف.

مدخل تمهيدي حول استخلاف الله تعالى للإنسان.

لقد خلق الله تعالى الإنسان وكرمه وجعله خليفة في الأرض، حيث قال تعالى: ﴿وإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: 30]، وكلفه بإعمارها وإصلاحها، مصداقا لقوله تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: 60]. والاستخلاف ميزة تميز بها الإنسان، وفق الآية القرآنية الكريمة، وأنه خاص بكوكب الأرض أيضا، وفي حياتنا الدنيا فقط. وقد هيأ الله تعالى الأرضَ وسخرها لخدمة الإنسان وتوفير احتياجاته ومتطلبات حياته. وقد أهل الله تعالى الإنسان للاستخلاف وإعمار الأرض، بما نفخ فيه من الروح، وما

أودعه فيه من شهوات وغرائز، وما ميزه به من عقل وتفكير. وما منحه من حرية الإرادة والاختيار، وتحمله مسؤولية ممارستها، وهذا ما جعل الإنسان بطبيعته وتكوينه الجبلي خليفة في الأرض، وأَنَاطَ الله به تحقيق مهمة الاستخلاف ومقاصده وقيمه.

والناظر في القرآن الكريم يخلص إلى أن القصد من استخلاف الإنسان هو الابتلاء بممارسة العمران في الأرض، وهذا العمران وسيلة الإنسان لعبادة الله أو عصيانه، فيكون العمران نتاجا وغاية للابتلاء بالقرآن.

وبالتأمل في القصص القرآني نجد أن العمران المقبول عند الله تعالى هو ما وافق منهجه وشرعه النازل من السماء، سواء كان هذا العمران إنجازات مادية، أو ممارسات عقائدية دينية، أو أفكارا وتصورات عن الوجود والمصير، وأنه عز وجل دمر نماذج كثيرة من العمران البشري المادي الذي خالف شرع الله وفطرته التي فطر الناس عليها، وقيمه ومقاصده، وأبطل عقائد ضالة وأفكارا خاطئة.

وللقيام بهذه المهمة خلق الله تعالى الإنسان من مكونات الطين، ونفخ فيه من روحه، وكرمه وفضله على مخلوقات كثيرة، فقال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: 70]، والكريم من له حرية وعليه مسؤولية يحاسب عليها، وأيضا من غلبت عليه الصفات الحميدة، ولقد أسجد الله له الملائكة، ثم علمه ودربه على التكليف وحمل الأمانة، إعدادا له لمهمة الاستخلاف، وهذا تكريم وتشريف ومنة كبيرة من الله تعالى، لأن بهذا العلم والقدرة على التعلم امتلك الإنسان نصيبا من الحكمة ميزته ورفعته عن منزلة الملائكة، وتميز عن باقي المخلوقات الأخرى. وهذا العلم والنفخ من روح الله تعالى من مؤهلات ومستلزمات الاستخلاف والسيادة في الأرض.

وبعد الخلق من الطين والنفخ من الروح والتعليم والتكريم، جاء التدريب على مواجهة الابتلاء في الجنة: ابتلاء آدم وحواء بالشريعة والقانون الإلهي، مع وجود شهوات النفس وشبهات إبليس، تماما كما هو الواقع في الأرض، حتى إذا أخطأ آدم في مرحلة التدريب على الابتلاء علمه الله تعالى كيف يُصلح خطأه. قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ

الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: 35-37]. يقول سيد قطب في بيان الآية: "لعلني ألمح أن هذه التجربة كانت تربية لهذا الخليفة وإعداداً، كانت إيقاظاً للقوى المذخورة في كيانه، كانت تدريباً له على تلقي الغواية، وتذوق العاقبة، وتجرع الندامة، ومعرفة العدو، والالتجاء بعد ذلك إلى الملاذ الأمين (..) إنها هي تجربة البشرية المتجددة المكرورة. لقد اقتضت رحمة الله بهذا المخلوق أن يهبط إلى مقر خلافته مزودا بهذه التجربة التي سيتعرض لمثلها طويلا، استعدادا للمعركة الدائبة وموعظة وتحذيرا"[1]. ولقد ابتلى الله الإنسان في الأرض بتحمل الأمانة والمسؤولية، وفي مركزها اختيار الإيمان بالله تعالى وعبادته وطاعته أو اختيار الكفر به وتنكب نهج دينه، وهذا الاختيار هو لب مقاصده الله من الخلق، لأن الإنسان كائن مخلوق حر مكلف من لدن خالقه، وابتلاه الله بالاستخلاف في الأرض، وهي المهمة التي حددها تعالى للإنسان قبل أن يخلقه وينفخ فيه من روحه. قال تعالى: ﴿وإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[البقرة: 30]، فحدد الله تعالى للإنسان وظيفته ومكان القيام بهذه الوظيفة، وهي الاستخلاف في الأرض، وحدد مقصد هذا الاستخلاف ألا وهو إعمار الأرض وإصلاحها بإصلاح نفسه، وذلك وفق العهد الرباني، ثم أنزل تعالى منهاج هذه الخلافة ودليل تسخير الأرض والاستفادة منها، قال تعالى حين أنزل آدم وحواء وإبليس إلى الأرض، وبعد أن مهّد تعالى هذه الأرض وأصلحها وجعلها مهيأة لحياة بشرية. ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: 123]، وهدى الله هو منهاج الاستخلاف ودليل تسخير الأرض، وهو "المنهاج الوحيد الذي تستقيم

---

(1)- في ظلال القرآن، سيد قطب، ط30، مجلد 1، دار الشروق، القاهرة، 2001، ص 59.

في ظله الحياة، وتستقيم في ظله النفوس، وتجد الفطرة في ظله السلام مع ذاتها، والسلام مع الكون الذي تعيش فيه"[1].

وهذا المنهاج هو الذي صار عليه الأنبياء والرسل، ودعوا إليه البشرية كلها، منذ آدم عليه السلام، إلا ما حدث من انحراف عن المنهاج الرباني بسبب تدخل إبليس وجنوده، من الجن والإنس، وما أحدثه الطغاة والجبابرة، الذين أغواهم الشيطان، حينما تعهد أمام الله عز وجل فقال: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [ص:82-83]، من انحراف عن دين الله وفطرته، وعلو في الأرض، واستعباد الناس، والتسلط عليهم، وعلى أرزاقهم وأقواتهم.

ولقد نَذَر الأنبياء والرسل، عليهم السلام، والعلماء الربانيون، والمصلحون، وباقي عباد الله المؤمنين، أنفسهم لبيان مهمة الاستخلاف وإعمار الأرض، وفق منهج الله تعالى، وتحقيق مراده من الخلق، وهو عبادة الله وتوحيده، وإقامة شرعه ومراده عز وجل. في كل ظروف وأحوال الابتلاء، سواء في حالة التمكين لهم في الأرض، وبسط النفوذ والسلطة، أو حالة المحن والفتن والاستضعاف. حتى يكونوا من الناجحين في ابتلاء الحياة الدنيا، والفائزين في الآخرة.

وذلك من خلال التمسك بالكتاب النازل من السماء، باعتباره حبل الله المتين المدود من السماء إلى الأرض، والذي يشكل سبيل النجاة والنجاح في الابتلاء، وباعتباره مرجعا للإصلاح في الأرض، وهذا الإصلاح الذي يبدأ بإصلاح النفس ومجاهدتها حتى تستقيم على أمر الله تعالى، ومقاومة شهوات النفس وشبهات شياطين الإنس والجن، فتنقاد لأمر الله، وتهتدي بهديه. وإصلاح النفس منطلق وشرط للإصلاح المجتمعي الشامل، وتحقيق لأمر الله بإعمار الأرض وإصلاحها المؤهل لاستحقاق الاستخلاف الموعود به في القرآن الكريم، ومانع من الإفساد في الأرض المنهي عنه والموجب لغضب الله وعقابه.

---

(1) - نفسه. 486/1

ولهذا كان اختيار القصص القرآني ليكون مجال دراسة الممارسة الاستخلافية، نابعا من قناعة مفادها أن أفضل من فهم مراد الله ومقصده من الاستخلاف، وأنجح التجارب البشرية في الابتلاء بالاستخلاف هي سير الأنبياء والرسل، وإن تأمل القصص القرآني واستثمار هدي الأنبياء في مواجهة الابتلاء بممارسة الاستخلاف، كفيل بترشيد الفكر الإسلامي المعاصر في تبين مركزية الابتلاء في الممارسة الاستخلافية، سواء في مرحلة التمكين، والتي هي صورة من صور الابتلاء، أو في مرحلة الضعف واشتداد المحن، وهي ابتلاء كذلك كما هو حاصل اليوم.

وبيان ذلك بالدراسة والتحليل، من خلال القصص القرآني، فيما يأتي من محاور البحث.

المحور الأول: مفهوم الابتلاء وأنواعه ومقاصده.

يدل الابتلاء في اللغة على الاختبار والامتحان، والمحنة، والتجريب[1]، والابتلاء في الاصطلاح هو: "الاختبار من الله عز وجل لعباده عن علم منه سبحانه بباطن أمرهم وظاهره، وإنما يبتليهم ليظهر منهم سابق علمه فيهم"[2].

والابتلاء هو سر وجود الإنسان في هذه الحياة الدنيا، وسر خلق السماوات والأرض، وقد صرح الله تعالى بذلك في كتابه الكريم فقال عز وجل: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُور﴾ [الملك: 2]، والابتلاء اختبار من الله لعباده في جميع أمور الإنسان وتفاصيل حياته الكبيرة والصغيرة. فالحياة ابتلاء، والموت ابتلاء، والصحة والمعافاة ابتلاء، والذرية ابتلاء، والمصائب ابتلاء...

فالابتلاء يكون بالخير والشَّرّ، حيث قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: 35]، كما يكون الابتلاء بالتكليف الذي يشمل جميع الأوامر والنواهي، ويمكن أن يكون الابتلاء بالعقوبة أيضا، قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ

---

(1) - لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين بن مكرم الإفريقي المصري، ابن منظور، دار صادر- بيروت، د. ط، 1990، 90/18، والمعجم الوسيط، مصطفى إبراهيم وآخرون، مجمع اللغة العربية- مطبعة مصر، 1961، 1/ 70.

(2) - الجواهر الحسان، في تفسير القرآن، عبد الرحمن الثعالبي، تحقيق: أبو أحمد الغماري، ط 1 سنة 1996م، دار الكتب العلمية، بيروت. 111/1

كَثِيرٍ﴾ [الشورى: 30]، وقال النبي ﷺ: (إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدِهِ الْخَيْرَ عَجَّلَ لَهُ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا، وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ أَمْسَكَ عَنْهُ بِذَنْبِهِ حَتَّى يُوَافِيَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)(1).

وفي الابتلاء أسرار لا يحيط بها إلا الله تعالى، منها ما يعلمه الإنسان ومنها ما يخفى عليه، ومن الأسرار التي ذكرها الله تعالى في كتابه الحكيم: التمييز بين المؤمن والمنافق لقوله تعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾[العنكبوت: 3-2]، وتأديب العباد لعلهم يرجعون إلى ربهم، قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[الروم: 41].

ومنها تكفير الذنوب والخطايا، قال الرسول ﷺ: (فَمَا يَبْرَحُ البَلَاءُ بِالعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الأَرْضِ مَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ)(2)، ومنها التربية والإعداد للتمكين: فقد يبتلي الله عز وجل عباده بأنواع من الابتلاءات تربية لهم وإعدادا لهم لاستحقاق قادم، حتى يتم صقلهم وتدريبهم على الشدائد وعظائم الأمور، فيشتد عودهم، وترتفع جاهزيتهم، يقول ابن القيم: "فلولا أنه سبحانه يداوي عباده بأدوية المحن والابتلاء لطغوا وبغوا وعتوا، والله سبحانه إذا أراد بعبد خيراً سقاه دواء من الابتلاء والامتحان على قدر حاله، يستفرغ به من الأدواء المهلكة، حتى إذا هذبه ونقاه وصفاه: أهَّله لأشرف مراتب الدنيا، وهي عبوديته، وأرفع ثواب الآخرة وهو رؤيته وقربه"(3).

وبتتبع القصص القرآني، نجد أن الابتلاء حاضر بشكل مطرد، حيث إن كل الأنبياء ابتلوا، أثناء الممارسة الاستخلافية، سواء في المحن والشدائد أثناء الدعوة والتبليغ والإصلاح ومحاربة الإفساد، وهو الغالب، أو أثناء التمكين والغلبة والسلطة.

---

(1) - سنن الترمذي، أبواب الزهد، باب ما جاء في الصبر على البلاء، رقم الحديث: 2396، الحديث حسن صحيح.

(2) - سنن الترمذي، أبواب الزهد، باب ما جاء في الصبر على البلاء، رقم: 2398، صححه الشيخ الألباني.

(3) - زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن القيم، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية بيروت، سنة 2006م، 197/3.

ولذلك خلَّد الله تعالى قصص بعض أنبيائه لتبقى مرجعا معياريا للممارسة الاستخلافية الراشدة، وعبرة وإنذارا من الممارسات الاستخلافية المنحرفة.

المحور الثاني: مفهوم التمكين وأقسامه في القرآن الكريم

يدل لفظ التمكين في اللغة على الإقدار على الفعل والهيمنة والمكانة والمنزلة(1)، أما في الاصطلاح القرآني فقد ورد بمعنى النصر والاستخلاف والملك والهيمنة، وظهور الدين في قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ [النور: 55]، والثبات والاستقرار في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ [المؤمنون: 12-13]. والمنزلة الرفيعة في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ [يوسف: 54-56].

وبتتبع ورود لفظ التمكين في القرآن الكريم، نخلص إلى أن التمكين في القرآن الكريم ينقسم إلى قسمين: تمكين حسي مادي، وتمكين معنوي روحي. أما التمكين الحسي المادي فيكون بالإقدار على استغلال الأرض والتحكم في مقدراتها وفي تلبية لوازم المعاش فيها. ويظهر ذلك في قول الله تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: 8]، وفي قوله تعالى في سورة الأحقاف: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾ [الأحقاف: 24].

ويتضمن هذا التمكين مقتضيات الاستمرار في الحياة من طعام وشراب ولباس ونحوه. ويدخل في هذا المستوى تمكين المال والقوة والأولاد(2). وهذا يشمل الأمم المؤمنة والكافرة معا، كل حسب سعيه، وأخذه بأسباب القوة. فمن المؤمنين يوسف عليه السلام، في قوله

---

(1) - القاموس المحيط، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، مؤسسة الرسالة- لبنان، ط8/ 2005، 4/ 267. ولسان العرب لابن منظور، مادة مكن.

(2) - مفهوم التمكين في القرآن الكريم، فريدة زمرد، نشر في الجريدة الإلكترونية: ميثاق الرابطة، العدد 238 بتاريخ 2016/10/27.

تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ [يوسف: 56-57]، وذو القرنين الذي قال فيه تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ [الكهف: 84]. ومحمد ﷺ وأمته، حيث قال تعالى مذكرا حال المسلمين قبل التمكين لهم من ضعف وخوف وقلة حيلة: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال: 26]. وأما الأمم الكافرة التي مكّن الله تعالى لها في الأرض فنذكر منها: قوم عاد حيث وصف الله تعالى ما مكنهم به من قوة وعمران مادي، فقال عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ﴾[الفجر: 6-10]، وقال تعالى عنه في سورة الشعراء: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾[الشعراء: 128 - 134]، وغير ذلك من الأمم الكافرة التي مكّن الله تعالى لها في الأرض لكنها كفرت بنعمه، فاستحقت غضب الله تعالى ومقته، وعذابه الدنيوي قبل الأخروي، وخلّد ذكرها في القرآن الكريم حتى تكون عبرة لمن بعدها من الأمم، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾[الأنعام: 6]. وقد جعل الله تعالى هذا التمكين المادي متاحا لكل الأمم، سواء كانت مؤمنة أم كافرة، بشرط أن تأخذ بالأسباب المادية والمعنوية، التي سنها عز وجل في الكون، من بذل للجهد في البحث العلمي، وإقامة للعدل وتجنب للظلم، والسعي في الأرض...

ويخضع هذا التمكين للسنن والقوانين الإلهية المستمرة في الزمن، والحاكمة للأفراد والجماعات، لا محاباة فيه لأحد، ولو كان مؤمنا، قال ابن تيمية: "الجزاء في الدنيا متفق عليه أهل الأرض، فإن الناس لم يتنازعوا في أن عاقبة الظلم وخيمة، وعاقبة العدل كريمة، ولهذا يروى: (الله ينصر الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا ينصر الدولة الظالمة وإن كانت

مؤمنة)[1]. ويدخل هذا في ضمن قانون التدافع بين الناس في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دِفَاعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ [البقرة: 251]. وقانون التغيير، الذي قال الله تعالى عنه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: 11]. وهذا التغيير يكون في اتجاهين: الحسن والسيء، فكم من أمة مكن الله لها في الأرض فكفرت بنعم الله وأظهرت الفساد وحادت عن الصلاح، فعجل الله لها العقاب حتى صارت في أسفل الأمم، بعد أن أزال الله نعمه عنها. وكم من أمة كانت ضعيفة بسوء فعلها فغيرت وضعها بالإصلاح والمثابرة، حتى صارت في مقدمة الأمم. وخير مثال على ذلك ما حدث للمسلمين في غزوة أحد التي عصى فيها بعض الصحابة أمر النبي ﷺ، وتخلى الرماة عن حماية ظهر المسلمين، ونزلوا لجمع الغنائم، فقال الله تعالى واصفا حال المسلمين: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ [آل عمران: 152]. وقال عز وجل في شأن أمم سابقة: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[الأنعام: 44-45]، فقد فتح الله على هذه الأمة بالنعم حتى مكَّن لها في الأرض من أسباب القوة والعيش الرغيد، ثم أصابها العذاب بسبب تناسيها لعهد الله ومخالفتها له وإعراضها عنه، فكان هذا التمكين استدراجا وإملاء من الله تعالى لها[2]. وإذا كان التمكين داخل بصفة عامة في الابتلاء، فإن الله تعالى صرح بأن تمكين بني إسرائيل كان ابتلاء منه تعالى، فقلَّبَهم تعالى من النعم إلى النقم لعلهم يتوبون ويرجعون إليه، فقال تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: 168]. فقطَّع الله تعالى بني إسرائيل في الأرض وكتب عليهم الشتات، فمنهم الصالحون والطالحون، وابتلاهم بالخيرات والنعم، والتمكين في

---

(1)- مجموع الفتاوى، ابن تيمية، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، سنة 2011م، ج16/ ص 31

(2) - تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، سنة 1419، 228/3.

الأرض، ثم بالنقم والمصائب لعلهم يرجعون إلى الله ويتوبون إليه. والذي حدث لبني إسرائيل من الابتلاء بالتمكين في الأرض وإقدارهم عليها، وبالمصائب والمحن، وقد كان منهم الصالحون والطالحون، هو نفسه الذي يسري على باقي الأمم الأخرى.

وإذا كان الابتلاء بالمصائب هو المتبادر إلى أذهان كثير من الناس، فإن الابتلاء بالخيرات والتمكين في الأرض قد يغيب عن بعضهم، وهو الأشد لأنه قد يكون فيه استدراج، أو تعجيل للنعم، ثم إن الإغراق في النعيم المادي يعمي البصيرة، ويُشغل عن الشكر أو يُشعر الإنسان بالاستغناء عن الله تعالى صاحب النعم. وهذا يجعل الرجوع عن الباطل إلى الحق أصعب، والعقاب الإلهي أشد، سواء في الدنيا أو الآخرة.

والتمكين المادي بصفة عامة منَّةٌ وتفضلٌ من الله تعالى، يعطيه الله تعالى للمستحق وغير المستحق، ما دام أنه يدخل ضمن الابتلاء، غير أن التمكين المعنوي والديني لا يعطيه الله تعالى إلا للمستحقين له، الذين لزموا أمر الله تعالى، وساروا على نهجه القويم، وهو الهدى المنزل من السماء، وهو الذي جاء به القرآن الكريم: ﴿إِنَّ هَـٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: 9]، والذي قال فيه عز وجل: ﴿فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾[طه: 123]، وقد مكن الله تعالى للصالحين من عباده بتثبيتهم على الدين الحق، والمنهج الصحيح، وجعلهم أئمة في الدين، يهتدي الناس بهداهم، فقال عز وجل: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾[السجدة:24]. وهذا هو التمكين الموعود في قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الذِي اِرْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً﴾ [النور: 52]. وهو التمكين المعنوي والروحي فيكون بالتمكين للدين الصحيح والقيم الأخلاقية، وهذا المستوى من التمكين يخولٍ للإنسان الحصول على أهم الأسس الداعمة للحياة الطيبة، وهي الدين بكل القيم الروحية والخلقية والاجتماعية التي ينطوي عليها، والأمن الذي يضمن له ممارسة سائر حقوقه الطبيعية[1].

(1)- مفهوم التمكين في القرآن الكريم، فريدة زمرد. جريدة: ميثاق الرابطة، مرجع سابق.

والتمكين كما يكون للأشخاص، يكون للأفكار والعقيدة الصحيحة، وذلك بأن يمكن الله تعالى للدين والعقيدة في عقول الناس وقلوبهم، وينصر الحق على الباطل، فتضعف الشبهات في عقول الناس وتضمحل حتى تزول، ويبقى الحق واضحا جليا ومهيمنا، لا تشوبه شائبة.

ويمكن أن يكون التمكين للدين الحق وأهله، وقد يكون التمكين للدين الحق في الأرض دون أهله، ويكون مصير أهل الحق إما موتا وشهادة في سبيل الله، أو مزيدا من الابتلاء والمحن كالسجن أو التعذيب أو النفي، وغير ذلك. ويكون جزاء المبتلين الصابرين هو الجنة والفوز الكبير في الآخرة، وأما في الدنيا فالجزاء هو التمكين للفكرة والعقيدة، وقد مكن الله تعالى للدين بعد وفاة أو قتل كثير من الأنبياء، كما مكن لفكر كثير من المصلحين بعد موتهم أو استشهادهم، وذلك جزاء الذين عاشوا لأجل دينهم وعقيدتهم، وقدموا أموالهم وأنفسهم في سبيل الحق، متعالين عن شهواتهم وذواتهم، ومخلصين قصدهم لله عز وجل.

ومن الأنبياء من قُتِلَ في الابتلاء، فمَكَّن الله لدينه وخلد ذكره في القرآن الكريم، وقد ذكر الله تعالى أن كفار بني إسرائيل قتلوا الأنبياء بغير حق، فقال تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: 87]. وقوله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [آل عمران: 21]. فهؤلاء الأنبياء تعرضوا للابتلاء حتى قُتِلوا، دون أن يغير ذلك من عزيمتهم في الثبات على دينهم، وبغض النظر عن أسماء هؤلاء الأنبياء، فإن الثابت بالنص القرآني أن هناك أنبياء كثر قُتِلوا ظلما وعدوانا، أثناء الابتلاء بالدعوة والتبليغ. وهذا يبين أن التمكين ليس بالضرورة للأشخاص، ولكن للدين الحق، والفكرة الصحيحة، والمنهج القويم، وهذا قد يغفل عنه كثير من المشتغلين في مجال التربية والإصلاح، فيظن أن التمكين يكون ماديا فقط، فيُعد نفسه أو أصحابه وأتباعه للحكم والخلافة السياسية والسلطة، وقد يكون له ذلك، لكن من الخطأ حصر التمكين في الجانب المادي فقط. وفي التاريخ وفي قصص القرآن ما يشهد ويؤكد هذا التمكين للدين والفكر دون الأشخاص. ولذلك وجب التنبيه لهذا الأمر حتى يُعد المؤمن نفسه وأصحابه لكل أنواع الابتلاءات وأشكال التمكين.

ومن القصص المؤكدة لما ذُكر، قصة الغلام والراهب وأصحاب الأخدود، التي وردت في السنة النبوية، ورواها صهيب الرومي، حيث أجبر ملك غلاما على تعلم السحر من ساحر كافر، ليكون خليفة له في السحر، وكان الغلام مؤمنا يمر في طريقه على راهب يتعلم منه الإيمان والتوحيد، وكان هذا حاله كل يوم، يمر على راهب يعلمه الدين، وساحر يعلمه الكفر بالله تعالى، حتى انكشف أمره، فقال له الراهب: "إنك ستبتلى فإن ابتليت فلا تدل علي، وكان الغلام يبرئ الأكمه والأبرص ويداوي الناس من سائر الأدواء، فسمع به جليس للملك كان قد عمي، فأتاه بهدايا كثيرة فقال ما هاهنا لك أجمع إن أنت شفيتني، فقال إني لا أشفي أحدا إنما يشفي الله، فإن أنت آمنت بالله دعوت الله فشفاك فآمن بالله فشفاه الله، فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلس فقال له الملك من رد عليك بصرك؟ قال ربي، قال: ولك رب غيري، قال ربي وربك الله، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام، فجيء بالغلام، فقال له الملك أي بني قد بلغ من سحرك ما تبرئ الأكمه والأبرص وتفعل وتفعل، فقال: إني لا أشفي أحدا إنما يشفي الله، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الراهب، فجيء بالراهب فقيل له ارجع عن دينك فأبى، فدعا بالمئشار فوضع المئشار في مفرق رأسه فشقه حتى وقع شقاه، ثم جيء بجليس الملك فقيل له ارجع عن دينك فأبى، فوضع المئشار في مفرق رأسه فشقه به حتى وقع شقاه، ثم جيء بالغلام فقيل له ارجع عن دينك فأبى، فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا، فاصعدوا به الجبل فإذا بلغتم ذروته فإن رجع عن دينه وإلا فاطرحوه، فذهبوا به فصعدوا به الجبل، فقال اللهم اكفنيهم بما شئت فرجف بهم الجبل فسقطوا، وجاء يمشي إلى الملك فقال له الملك ما فعل أصحابك قال كفانيهم الله، فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال اذهبوا به فاحملوه في قرقور فتوسطوا به البحر، فإن رجع عن دينه وإلا فاقذفوه، فذهبوا به فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت، فانكفأت بهم السفينة فغرقوا، وجاء يمشي إلى الملك فقال له الملك ما فعل أصحابك قال كفانيهم الله، فقال للملك إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به قال وما هو، قال تجمع الناس في صعيد واحد، وتصلبني على جذع ثم خذ سهما من كنانتي ثم ضع السهم في كبد القوس، ثم قل باسم الله رب الغلام، ثم ارمني فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني، فجمع الناس في صعيد واحد

وصلبه على جذع ثم أخذ سهما من كنانته ثم وضع السهم في كبد القوس، ثم قال باسم الله رب الغلام، ثم رماه فوقع السهم في صدغه فوضع يده في صدغه في موضع السهم فمات، فقال الناس آمنا برب الغلام، آمنا برب الغلام، آمنا برب الغلام، فأتي الملك فقيل له أرأيت ما كنت تحذر قد والله نزل بك حذرك قد آمن الناس، فأمر بالأخدود في أفواه السكك فخدت وأضرم النيران، وقال من لم يرجع عن دينه فأحموه فيها أو قيل له اقتحم، ففعلوا حتى جاءت امرأة ومعها صبي لها فتقاعست أن تقع فيها، فقال لها الغلام يا أمه اصبري فإنك على الحق"[1]. فاستشهد الغلام المؤمن، لكن الله تعالى مكن لدينه، وانتشر الحق، وضعف الباطل وهزل في عقول الناس. وقد يكون التمكين للدين متأخرا، وهذا يتطلب عدم استعجال النصر والتمكين، مثل ما حدث في قصة نبي الله يونس عليه السلام، الذي ذهب مغاضبا، بعدما كذبه قومه، وتماطلوا في الاستجابة، لكن التمكين جاء بعد خروج نبي الله يونس وذهابه غاضبا. قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ [يونس: 98]. فالنصر والتمكين خاضع لإرادة الله، لا أحد يتحكم في ذلك إلا هو سبحانه وتعالى، ومصير المعرضين والمكذبين بيد الله تعالى: يعذبهم أو يعفو عنهم. وما على الأنبياء والمصلحين إلا تبليغ الدين، وبيان الحق للناس المأمور به في الوحي المنزل.

وفي تأخير التمكين للمؤمنين أسرار لا يعلمها إلا الله تعالى، مثل عدم استكمال شروط التمكين، لأن استعجال جني الثمار قبل إبانها موجب لحرمانها، ولأن التمكين المادي مع وجود الانحراف لا يحقق مقاصد الاستخلاف الذي يرضاه الله تعالى، بل يعود بنتائج عكسية. ولأن تأخير التمكين مع تحقق الاستقامة لا شك أن فيه فوائد كثيرة، مثل تمحيص صف المؤمنين، والتمييز بين من يكون همه طلب الدنيا، وبين من همه طلب الآخرة.

(1) - صحيح مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب قصة أصحاب الأخدود والساحر والراهب والغلام، رقم الحديث: 3005

المحور الثالث: العلاقة بين التمكين والابتلاء.

إذا كان الابتلاء هو سر الوجود البشري، وأن الله تعالى خلق الموت والحياة لأجل ابتلاء الناس، وأن هذا الابتلاء يكون بالخير والشر، وأن الناس اتجاه هذا الابتلاء قسمان: فائز وخاسر، وأن الغاية من الابتلاء هي كشف معادن الناس، وإظهار حقيقتهم، حتى يفوز الفائز عن بينة واستحقاق، ويخسر الخاسر عن بينة واستحقاق.

وإذا كان التمكين مِنَّةٌ وتَفَضُّلٌ من الله تعالى ابتداء، وأن هذا التمكين منه ما هو معنوي؛ يخص التمكين للدين الحق والفكر الصحيح والمنهج القويم، ومنه ما هو مادي يخص التمكن من الأرض والقدرة عليها وعلى معايشها، وأن منه ما يشمل النوعين معا.

فإن العلاقة بين التمكين والابتلاء علاقة ترابط وتلازم، ويتأكد ذلك من خلال الوقوف على نماذجَ من القصص القرآني، الخاص بالأنبياء والصالحين، ممن تعرضوا للابتلاء، وممن مَكَّن الله لهم في الأرض. لأن القصص القرآني يتضمن سننا وقوانين إلهية في الحياة، ويتضمن دروسا وعبرا تفيد المتبصر الباحث عن الحق، وصدق الله تعالى القائل في محكم آياته: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: 111].

ولقد كان الابتلاء منذ آدم عليه السلام، وابتلاء ابنيه بتشريع قوانين الزواج، فنجح هابيل في الامتحان، حيث ثبت على الحق، حتى قدم حياته فداء للشريعة الصحيحة، وفشل قابيل الذي استسلم للشهوات. وخلد الله ذكرهما في القرآن الكريم، ليكون أحدهما قدوة، والآخر عبرة. فقال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ﴾ [المائدة: 27].

وابتلي نبي الله نوح عليه السلام، وكان ابتلاؤه بدعوة قوم كافرين بالحق، ومكذبين له، ومستهزئين به، وابتلي بابنه العاصي، فوصفه الله بأنه عمل غير صالح، وابتلي بزوجته الخائنة له في الدين والدعوة، فصبر على هذا الابتلاء وثبت على الحق، مجاهدا ومحتسبا، فأنجاه الله تعالى ومن معه من المؤمنين، وأغرق القوم الكافرين، فقال تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن

مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ [الشعراء: 119]، وجعل الله تعالى قصته عبرة وآية لمن يأتي بعده، فقال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ [المؤمنون: 30]. ليكون الابتلاء والاختبار سابق عن التمكين، فلا تمكين دون ابتلاء واختبار، والتمكين للناجحين فقط، دون الراسبين والفاشلين. وقد جعل الله عز وجل سنة الابتلاء جارية في خلقه، سارية المفعول لعموم الخلق، وشاملة للزمان الماضي والحاضر والمستقبل. سنة ماضية مطردة لا تتخلف.

وإذا كان الابتلاء قبل التمكين سنة الله في خلقه، فإنها لا تنطبق على الأنبياء والرسل، لخصوصية النبوة، وما عُلم من حكمة الله في تصرفاتها وفي اختياره واصطفائه لأنبيائه، وما خص الله به الأنبياء من عصمة وتأييد، وفي هذا المعنى يقول المفسر صاحب البحر المديد: "إذا أراد الله أن يصافي عبده بخصوصية النبوة، أو الولاية، كلأه بعين الرعاية، وجذبه إليه بسابق العناية؛ فإذا امتحنه أيده بعصمته، وسابق حفظه ورعايته، ولا يلزم من ثبوت الخصوصية عدم وصف البشرية؛ فالشهوة في البشر أمر طبيعي وبمجاهدتها ظهر شرفه. لكن النفس المطمئنة لا تحتاج في دفعها إلى كبير مجاهدة. والنفس اللوامة لا بد في دفعها من المكابدة والمجاهدة؛ فالهواجم والخواطر ترد على القلوب كلها، لكن النفس المطمئنة لها قوة على دفعها."[1]

وفي التكليف بالدعوة والتبليغ والإصلاح ابتلاء كبير، فقد ابتلى الله تعالى نبيه إبراهيم عليه السلام، في قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: 124]، فنجح إبراهيم في هذا الابتلاء وقام بكل ما طلبه منه ربه من أوامر ونواه، وقال تعالى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ﴾ [النجم: 37]، أي وفى بكل التشريعات التي كُلِفَ بها، فلما صبر في المصائب وشكر في المسرات، فقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [النحل: 120-122].

---

(1) - البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، لأحمد بن عجيبة، تحقيق أحمد الراوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط الأولى، 232/3

وقد ابتلى الله تعالى نبيه يوسف عليه السلام بشتى أنواع الابتلاءات، فنجح عليه السلام في تلك الابتلاءات كلها، بدءا من كيد الإخوة، إلى الإلقاء في الجب، وفراق الأحبة، والعبودية، والإغراء الجنسي، حتى جاءه نصر الله، فانتقل به من ابتلاء الاستضعاف إلى ابتلاء التمكين، فقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يوسف: 56-57]، وجعل الله تعالى التمكين في الأرض جزاء المحسنين الصابرين المتقين، الذين نجحوا في الابتلاء، سنة وقانونا حاكما للأفراد والجماعات عبر الزمان، والجزاء يشمل الدنيا والآخرة كذلك.

ووجب التنبيه إلى أن قاعدة التمكين بعد النجاح في الابتلاء سنة سارية إلى قيام الساعة، غير أنها ليست مطردة، لأن التمكين نعمة وهبة من الله تعالى، وقد رأينا في القصص القرآني من الأنبياء والمصلحين من لم يُمكن لهم رغم صبرهم وإحسانهم في الابتلاء والمحن، وتم تأجيل جزائهم، وتجربة عيسى مع قومه خير مثال كما هو شأن غالبية الأنبياء مع أقوامهم.

وبتتبع القصص القرآني نجد، أحيانا، تقَدُّم التمكين على الابتلاء[1]، فهناك من الأنبياء من مكن الله لهم ابتداء وابتلاهم انتهاء فنجحوا في الابتلاء بعد التمكين منهم داوود وسليمان فقد آتاهما الله الملك مع التمكين دون أن نعرف شيئا عن ابتلائهما من قبل، ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص: 26] وكان سليمان واعيا بأن تقديم التمكين يستدعي الابتلاء بعده، فتفطن لذلك حين أحضر له عرش بلقيس: ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: 40] ونفس النهج اتبع بالنسبة لطالوت ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ

---

(1) - هذا التنبيه لأستاذي سيدي عبد السلام الأحمر حفظه الله تعالى ومد في عمره

مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 247] وهذا الأمر يصدق على ذي القرنين، ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ [الكهف: 84].

وإذا كان الابتلاء سنة الله تعالى في خلقه، يبتلي الله عباده ليختبرهم، ويكشف حقيقتهم، ليكون جزاؤهم استحقاقا، في الخير أو الشر. فإن الابتلاء مرحلة ضرورية قبل التمكين للمؤمنين، وقد مر منها دعاة ومصلحون كثر، وهي سنة جارية إلى قيام الساعة.

وإذا كان زمن النبوة قد ولى بلا رجعة، ولا نبي بعد محمد ﷺ، فإن المعول عليه هو الإيمان والعمل الصالح والإعداد الجيد، للنجاح في الابتلاء، بما يحقق الاستخلاف الموعود والمقرون بالتمكين في الآية الكريمة: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾[النور: 55] وهذا الذي يجب أن تعيه أجيال المسلمين: من دعاة ومصلحين وشباب وعلماء، لا يمَكَّن لفرد أو جماعة حتى يحصل اختبار وتمحيص وتمييز، فلا يبقى غير الصدق والإخلاص، وتزول المثبطات، ويتم التغلب على الشهوات والشبهات، فينصهر ذلك أمام الأحداث الصعاب، ويبقى الإيمان الخالص، الذي لا تشوبه شائبة، فلا يكون التمكين في الدين الحق إلا للصالحين من الخلق، ممن ابتلاهم الله واختبرهم، ونجحوا في هذا الاختبار والامتحان، فظهر صدقهم وإخلاصهم وصلاحهم، وقد نقل ابن القيم في كتابه الفوائد، بعد أن سرد آيات تقرر أن التمكين يأتي بعد النجاح في الابتلاء والاختبار: "سأل رجل الشافعي فقال: يا أبا عبد الله، أيما أفضل للرجل أن يُمكن أو يُبتلى؟ فقال الشافعي: لا يمكن حتى يُبتلى، فإن الله ابتلى نوحًا وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمدًا صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فلما صبروا مكنهم، فلا يظن أحد أن يخلص من الألم البتة"(1).

(1) - كتاب الفوائد، لابن القيم، دار الكتب العلمية، بيروت، سنة 1973، ص: 208

ولماذا الابتلاء شرط في التمكين؟ لأن الابتلاء يُعِدّ الفرد أو الجماعة للتمكين، ويؤهله له، حتى يؤدي أمانة الاستخلاف في الأرض على أحسن وجه، ولأن التمكين قبل الابتلاء ينتج عنه اختلاط الخبيث بالطيب، والمؤمن بالمنافق، والمصلح بالمفسد، وقد يمكَّن للمنافق والخبيث فيفسد في الأرض ولا يُصلح، والله لا يحب المفسدين.

وليس في الابتلاء تعذيب أو مقت للمؤمنين، يقول سيد قطب: "ولكنه الإعداد الحقيقي لتحمل الأمانة، فهي في حاجة إلى إعداد خاص لا يتم إلا بالمعاناة العملية للمشاق، وإلا بالاستعلاء الحقيقي على الشهوات، وإلا بالصبر الحقيقي على الآلام، وإلا بالثقة الحقيقية في نصر الله أو في ثوابه، على الرغم من طول الفتنة وشدة الابتلاء. والنفس تصهرها الشدائد فتنفي عنها الخبث، وتستجيش كامن قواها المذخورة فتستيقظ وتتجمع، وتطرقها بعنف وشدة فيشتد عودها ويصلب ويصقل، وكذلك تفعل الشدائد بالجماعات، فلا يبقى صامدا إلا أصلبها عودا وأقواها طبيعة، وأشدها اتصالا بالله، وثقة فيما عنده من الحسنيين: النصر أو الأجر، وهؤلاء هم الذين يسلمون الراية في النهاية، مؤتمنين عليها بعد الاستعداد والاختبار"[1].

المحور الرابع: كيفية التعامل مع مرحلة الابتلاء

إذا كان الابتلاء اختبار وامتحان، وتصفية وتمييز، وكشف لمعادن الناس، وأن في الابتلاء تدريب وإعداد للتمكين، فإن المطلوب خلال الابتلاء هو تحقيق الشروط المؤهلة للتمكين، سواء كان هذا التمكين ماديا أو معنويا.

وإذا تأملنا في القصص القرآني، وخاصة قصص الأنبياء والصالحين، نجد أن التمكين الروحي والمعنوي القائم على التمكين للدين الحق، والقيم النبيلة والفطرة السليمة هو الغالب، وقد لقي الأنبياء والعلماء الربانيون في سبيل إظهار الحق وترسيخ الدين في عقول الناس وقلوبهم معاناة شديدة، وبذلوا في سبيل ذلك الغالي والنفيس، فقُتِلَ منهم من قُتِل،

(1) - في ظلال القرآن، سيد قطب، 2720/5

وسُجِنَ من سُجِن، وعُذِّبَ من عُذِّب، فصبروا وثبتوا على الحق، فاستحقوا الإمامة في الدين، وخَلَّدَ الله ذكرهم في الصالحين.

وأما الذين جمع الله لهم بين التمكينين: المادي والمعنوي، وكانوا أئمة في الدين وملوكا وقادة في الدنيا فقليلون، مثل نبينا محمد ﷺ، وأنبياء الله: يوسف وسليمان وداوود، عليهم السلام. ومن الصالحين مثل ذي القرنين.

وإذا كان مطلوب من المؤمن التحلي بالأخلاق الحسنة التي جاءت في القرآن والسنة، فإن التركيز في مرحلة ابتلاء المحن والشدائد على خلقي الصبر واليقين، لاستحقاق التمكين الذي وعد الله به عباده المؤمنين، ولا بد من حصول وعي تام بماهية الممارسة الاستخلافية المطلوبة شرعا، والتي تقوم أساسا على أداء الأمانة العظمى التي ابتلى الله تعالى بها بني آدم، وتفاصيل الوفاء بالأمانة والمسؤولية يشمل حياة الإنسان كلها، ابتداء من الإيمان بالله تعالى واليقين في موعوده، واستحضار مراقبته في السر والعلن، وتعظيم شأنه في القلوب، بما ينعكس على سلوك المؤمن طاعة وانقيادا لأمره عز وجل؛ إقبالا على أوامره، واجتنابا لنواهيه. وتخلقا بأخلاق الأمانة المحققة للنصر والتمكين والاستخلاف كالصدق والصبر والإخلاص والإحسان..

1) الأمانة والقوة

ونقصد بمفهوم الأمانة: الإيمان الصادق ومراقبة الله في السر والعلن والحرص على ابتغاء مرضاته ومخافة حسابه وعقابه والتحلي بأخلاق الأمانة من إتقان وإخلاص وعدل وصدق ونصح للمسلمين، وكل ذلك قابل للتحصيل والاكتساب.

ونقصد بمفهوم القوة: قوة البدن والفكر والعلم ورجاحة العقل وأسباب القوة المادية المتاحة.

وقد جرت سنة الله أن يُمكن في إقامة دينه للأمناء الأقوياء، القادرين على النهوض بأعباء أمانة الاستخلاف الإيماني، وحديث النبي ﷺ في هذا الاتجاه واضح بين، عندما قال

لأبي ذر رضي الله عنه: (يا أبا ذر، إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة، إلا من أخذها بحقها، وأدى الذي عليه فيها)(1).

وقد اتصف نبي الله موسى عليه السلام بالقوة والأمانة، وشهدت له بذلك بنت الرجل الصالح، في قوله تعالى: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [القصص: 26]. وتجلت كذلك في طالوت، الذي اختاره الله تعالى ليكون ملكا على بني إسرائيل، حيث قال تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ [البقرة: 247]. فأبطل الله تعالى المعايير الدنيوية للتمكين وتحمل المسؤولية، وأقر المعايير الحقيقية، المؤهلة للتمكين، حسب ظروف الزمان والمكان والأحوال.

وتحققت القوة والعلم والأمانة كذلك في نبي الله يوسف عليه السلام، عندما تقدم ورشح نفسه لتولي منصب تدبير خزائن مصر، حيث قال: ﴿اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: 55].

والمتأمل لشخصية يوسف يجدها شخصية جامعة لأمهات الأخلاق والمروءة، ففي عز الابتلاء تحلى يوسف عليه السلام بالصدق والإحسان إلى الناس وخدمتهم، وقضاء حوائجهم، حتى عُرف عنه ذلك، وشهد له بذلك من خالطه من الناس، داخل القصر، وداخل السجن، حيث قال السجينان: ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: 36]، وقال الذي نجا منهما: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ [يوسف: 46]، وقالت امرأة العزيز معترفة: ﴿وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [يوسف: 51].

وهذا ما ينبغي أن يتصف به المؤمن خلال فترة الابتلاء، أن يتحلى بالأخلاق الحسنة، ولو في أحلك الظروف، لا يفرط المؤمن في كريم الخلق، وطيبة النفس. فلا يمنعه ظلم

---

(1) - صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب كراهة الإمارة بغير ضرورة رقم الحديث: 4719

الظالم من الصدق، والإحسان، والحفاظ على الأمانة، والحرص على السمعة الطيبة، والانفتاح على الناس وخدمتهم قدر المستطاع، وتقديم النصح وبيان الحق.

2)الصبر واليقين

يجب على المؤمن التحلي بالصبر واليقين بصفة عامة، وبصفة خاصة في الابتلاء، ويشمل الصبر: تحمل مشاق لزوم الطاعة، ومكاره مخالفة الشهوات، وتقبل المصائب والابتلاءات، ومعلوم أن من انتصب داعيا إلى الحق، ومحاربا للباطل، معرضٌ للأذى ومستهدف بكل أنواع الاستهداف. ولذلك لما سُئل رسول الله ﷺ عن أشد الناس بلاء؟ قال: (الأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَل، فَيُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ دِينُهُ صُلْبًا اشْتَدَّ بَلاؤُهُ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ ابْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ)[1]. أما اليقين فهو معين على الصبر، وهو الإيمان في أعلى مستوياته، والأمل في نصر الله تعالى وموعوده.

وهذه سنة الله في خلقه، سنة التدافع بين الخير والشر، بين الحق والباطل، وأن الله ينصر الثابتين على الحق والصابرين على أذى الباطل، ومشاق طريق الله، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُون﴾ [السجدة: 24]، وسياق الآية الحديث عن بني إسرائيل الذين جعل الله منهم أئمة يهدون إلى الحق، وذلك ببيان الشريعة والكتاب، وتوظيف العلم الذي علمهم الله، في إخراج الناس من ظلمات الباطل إلى نور الحق، فجزاهم الله بأن جعلهم قدوة للناس وأئمة لهم في الخير، قال ابن عاشور: "وفي هذا تعريض بالبشارة لأصحاب رسول الله ﷺ بأنهم يكونون أيمة لدين الإسلام وهداة للمسلمين إذ صبروا على ما لحقهم في ذات الله من أذى قومهم وصبروا على مشاق التكليف ومعاداة أهلهم وقومهم وظلمهم إياهم"[2]. وفي عبارة جامعة مانعة مبينة لمعنى الآية رواها ابن القيم عن شيخه ابن تيمية: "بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين"[3].

(1) - سنن الترمذي، أبواب الزهد، باب ما جاء في الصبر على البلاء، رقم الحديث 2398، صححه الألباني.

(2) - التحرير والتنوير، ابن عاشور دار سحنون للنشر والتوزيع - تونس – 1997. 237/22

(3) - مدارج السالكين بين إياك نعبد وإياك نستعين، لابن القيم، الجوزية، دار الكتاب العربي، سة 1996، 153/2

وقد حصل في قوم موسى شك وريب وتردد، حتى قالوا لموسى إنا لمدركون، عندما التقى الفريقان: فريق موسى ومعه بنو إسرائيل، وفرعون ومعه المصريون، ودقت ساعة المواجهة والحسم، في تلك اللحظات العصيبة ظهرت طينة بني إسرائيل، فقال تعالى عنهم: ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء: 61]، وفي هذا إشعار منهم بشك وريب في موعود الله تعالى، وتذمر وتشاؤم من موسى، وسوء ظنهم بالله تعالى. في حين أن الشك والتردد لا يليق بالفئة المؤمنة المرجوة للتمكين، ويقابل ذلك موقف نبي الله موسى عليه السلام، الذي يمثل القدوة والنموذج الصالح في موقف الابتلاء، حيث وقف موسى عليه السلام ثابتا متيقنا من موعود الله، صادقا مع الله، ومصدقا لكلامه، ومستحضرا معية الله. فقال: ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: 62]، في رد قاطع على ظنهم السيء، مذكرا إياهم بوعد الله الصادق بالنصر، ومثبتا لهم في هذا الموقف الحاسم.

وبعدما أمر موسى عليه السلام بني إسرائيل بالاستعانة بالله والصبر أثناء الابتلاء، كان ردهم فيه تضجر وتبرم، حيث قال تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا ۖ إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: 128-129].

وتجلى الأذى الذي لحق بني إسرائيل قبل مجيء موسى عليه السلام في تعذيب فرعون لهم واستضعافهم وقتل أبنائهم، فلما جاء موسى إليهم تطلعوا لرفع هذا الضرر عنهم بسرعة، دون أخذ بأسباب المدافعة، لكن لما رأوا وعيد فرعون لهم خافوا، وقالوا هذا الكلام، قال سيد قطب في تفسير هذه الآية: "إنها كلمات ذات ظل! وإنها لتشي بما وراءها من تبرم! أوذينا قبل مجيئك وما تغير شيء بمجيئك. وطال هذا الأذى حتى ما تبدو له نهاية!

ويمضي النبي الكريم على نهجه. يذكرهم بالله، ويعلق رجاءهم به، ويلوح لهم بالأمل في هلاك عدوهم واستخلافهم في الأرض. مع التحذير من فتنة الاستخلاف. ﴿قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: 129]. إنه ينظر بقلب النبي فيرى سنة الله، تجري وفق وعده، للصابرين، وللجاحدين! ويرى من خلال سنة

الله هلاك الطاغوت وأهله، واستخلاف الصابرين المستعينين بالله وحده. فيدفع قومه دفعاً إلى الطريق لتجري بهم سنة الله إلى ما يريد.. وهو يعلمهم - منذ البدء - أن استخلاف الله لهم إنما هو ابتلاء لهم. ليس أنهم أبناء الله وأحباؤه - كما زعموا - فلا يعذبهم بذنوبهم! وليس جزافاً بلا غاية. وليس خلوداً بلا توقيت. إنه استخلاف للامتحان: ﴿فينظر كيف تعملون﴾.. وهو سبحانه يعلم ماذا سيكون قبل أن يكون". ولكنها سنة الله وعدله ألا يحاسب البشر حتى يقع منهم في العيان، ما هو مكشوف من الغيب لعلمه القديم[1]. وعند التأمل في قصة بني إسرائيل نستنتج أهمية الصبر واليقين عند الابتلاء، وأن اليأس يحول دون النصر والتمكين، وأن الله تعالى لا يمَكّنُ لأمّة أصابها الإحباط والانهزام النفسي والجبن أمام العدو، والهوان والاستكانة للظلم والطغيان، وهذا ضعف داخلي ممهد للضعف أمام العدو الخارجي، وقد عبر عنها مالك بن نبي بالقابلية للاستعمار، في كتابه: "شروط النهضة".

ونفس الموقف اليأس والفشل والشك في موعود الله، والجبن عند لقاء العدو والهزيمة النفسية، عندما دعا موسى بني إسرائيل إلى مقاتلة عدوهم ووعدهم بالنصر إن هم اقتحموا المدينة على العدو، لكنهم رفضوا وعصوا أمر نبيهم، فكان عقابهم أن حرم الله عليهم دخول تلك المدينة أربعين عاما. قال تعالى: ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَاۖ فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِيۖ فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْۛ أَرْبَعِينَ سَنَةًۛ يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾[المائدة: 24-26]. قال عبد الرحمن السعدي معقبا على هذا الموقف، ومقارنا بينه وبين موقف صحابة النبي محمد ﷺ: (فما أشنع هذا الكلام منهم، ومواجهتهم لنبيهم في هذا المقام الحرج الضيق، الذي قد دعت الحاجة والضرورة إلى نصرة نبيهم، وإعزاز أنفسهم. وبهذا وأمثاله يظهر التفاوت بين سائر الأمم، وأمة محمد ﷺ حيث قال الصحابة لرسول الله ﷺ حين شاورهم في القتال يوم "بدر" مع أنه لم يحتم عليهم: يا رسول الله، لو خضت بنا هذا البحر لخضناه معك، ولو بلغت بنا برك الغماد ما تخلف عنك أحد. ولا نقول كما قال قوم موسى لموسى:

---

(1) - في ظلال القرآن، سيد قطب، 1356/3

﴿اذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُون﴾، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، من بين يديك ومن خلفك، وعن يمينك وعن يسارك)[1].

وقد ضرب الله تعالى مثالا إيجابيا للفئة المؤمنة التي صمدت عند الابتلاء، فقال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُواۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: 146]، وفي هذا تسلية للمؤمنين، وحث على الاقتداء بهم، والفعل كفعلهم، وأن هذا أمر قد كان متقدما، فما ضعفت قلوبهم، ولا وهنت أبدانهم، ولا استكانوا، أي: ذلوا لعدوهم، بل صبروا وثبتوا، وشجعوا أنفسهم[2].

المحور الخامس: كيفية التعامل مع مرحلة التمكين.

يبقى الابتلاء مستمرا في مرحلة التمكين، وسنة الله في خلقه ماضية، فمتى حاد الممكّن لهم في الأرض عن منهج الله في تقواه وإقامة العدل ونفع الناس وفعل الخير، أزال الله نعمه عنهم، وأركسهم في أسفل سافلين. فالتمكين لا يعني انتهاء الابتلاء، أو تمكين نهائي أبدي، وإنما تمكين خاضع لسنة التدافع بين الحق والباطل. وهذا يتطلب يقظة ووعيا وجاهزية كبيرة لدى المؤمنين الممكن لهم، لأن سنن الله وقوانينه في الخلق لا تحابي أحدا. وبالرجوع إلى الهدي الرباني في القصص القرآني نجد أن الأنبياء والصالحين الذين مكن الله لهم في الأرض، كانوا على درجة كبيرة من الوعي واليقظة، فعملوا بما كانوا يدعون إليه من قيم العدل والإحسان والرحمة والخير. وبيان ذلك فيما يلي:

1. إقامة الدين والعبودية لله تعالى.

وهذا ما أمر الله عز وجل به في قوله: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [الحج: 41]. فهذه من مقاصد التمكين في الأرض: إقامة الدين وتمكين الناس من حرية العبادة، حتى يعبدون الله تعالى في حرية وأمان، ثم الأمر

---

(1) - تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن السعدي، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، سنة 2000، ص: 228.

(2) - نفسه، ص: 151.

بالمعروف والنهي عن المنكر بالمفهوم الواسع. وإقامة الدين وتحقيق العبودية لله تعالى وحده هو المقصد الأعظم للاستخلاف والتمكين الإيمانيين، قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور: 55].

2. الأخذ بأسباب القوة والتقدم والازدهار

وهي من الأمور المطلوبة باستمرار، سواء في مرحلة الاستضعاف أو مرحلة التمكين، وإذا كان الأخذ بالأسباب في مرحلة الاستضعاف لأجل التمكين، فإن الأخذ بالأسباب في مرحلة التمكين يكون لأجل استمرارها وامتدادها في الزمن، ومن أجل تحقيق مقاصد التمكين: من تيسير الحياة للناس، وتوفير احتياجاتهم، وحماية الدين والوطن من أطماع الطامعين، وتحقيق الأمن والسلم، مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: 60]. والمقصود بالأسباب: أسباب القوة بتجلياتها المتعددة: العلمية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية والعسكرية.

ونجد في القصص القرآني مثالا ناجحا للذين مَكّن الله لهم، واستمروا في الأخذ بالأسباب بعد التمكين، لتوطين الحكم ونشر الحق، والإصلاح في الأرض، ومحاربة الفساد والمفسدين، ومساعدة الضعفاء والتعاون معهم، وإشراكهم في المشاريع التنموية بما يمكنهم من الإفادة من الخبرات العلمية في الصناعة وغيرها. وهذا المثال هو ذو القرنين الذي مكّن الله له في الأرض، وآتاه أسباب القوة والتمكُّن، فاستمر في الأخذ بالأسباب، قال تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ [الكهف: 84].

وقصة ذي القرنين جاءت في سورة الكهف، وهي السورة التي تعالج أربع ابتلاءات وفتن كبرى تعترض الإنسان في حياته، وهي: الفتنة في الدين والتوحيد، وفتنة المال، وفتنة العلم، وفتنة السلطة والقوة، وهذه الأخيرة تكون في مرحلة التمكين، وسبيل النجاة من

هذه الفتنة هو الإخلاص لله تعالى والتجرد من حظوظ النفس، وإرجاع الفضل لله تعالى: ﴿هَـٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾ [الكهف: 98]. وإلا فإن الاغترار بالقوة والسلطة يؤدي إلى الطغيان المؤذن بالخراب.

3. إقامة العدل والإحسان

وهذا مقصد مهم، لأن العدل به قامت السماوات والأرض، والإحسان من القيم الكبرى في الإسلام، وتحقيق هاتين القيمتين دليل على التوفيق، وشرط استمرار التمكين. وقد عمل الأنبياء والصالحون الذين مكن الله لهم على تحقيق ذلك، فهذا نبي الله يوسف عليه السلام عندما مكن الله له في أرض مصر، حرص على إقامة العدل والإنصاف في تدبير ثروات دون تمييز بين غني أو فقير، وبين مصري وغيره، لكل حمل بعير. والتزم الوسطية والاعتدال في الإنفاق والاستهلاك خلال سنوات الأزمة والرخاء على السواء، كما حرص على عدم تبذير المحصول الزراعي وصرفه في غير ما خصص له. وكان صاحب التخطيط الاقتصادي والمشرف على تنفيذه، مما حقق الازدهار الاقتصادي والأمن الغذائي. كما حرص على الإحسان إلى الناس وإكرامهم، حتى ظهر ذلك وشهد له به القريب والبعيد، قال تعالى: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ [يوسف: 59]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: 78].

4. التحلي بالعفو والتسامح

ومن صفات المؤمنين العفو عن أخطاء الناس والتجاوز عنهم، وعدم الأخذ بالجريرة أو الانتقام والثأر، ممن أساء في حق المؤمنين في المرحلة السابقة للتمكين. لأن المؤمن يتصف بالصفاء النفسي، والترفع عن الأحقاد والضغائن، وعن كل المشاعر السلبية، التي تُصنف ضمن أمراض القلوب، والتي من المفترض أن يطهر المؤمن قلبه منها. فيبقى قوي الشخصية، متحكما في نفسه ونزعاتها وشهواتها.

وصفة العفو والتسامح تُعطي لصاحبها قوة ومكانة في نفوس الناس، وتقلب العداوة إلى محبة، وتسهم في تحقيق السلم الاجتماعي، وتزيد لُحمة المجتمع تماسكا رغم اختلاف مكوناته، وتكون صمام أمان للصدامات الاجتماعية.

وبالرجوع إلى القصص القرآني نجد تحقق هذه الصفة، صفة العفو والتسامح، في نبي الله يوسف عليه السلام، حين عفا عن إخوته الذين أساؤوا إليه وكادوا له المكائد، وكان يومئذ صغيرا ضعيفا، وكانوا هم عصبة قوية. ودار الزمن حتى مكن الله ليوسف وصار في موقع قوة وسلطة، وصار إخوته في موقع ضعف وفقر وحاجة، واعتراف بخطئهم، لكنه عليه السلام عفا عنهم، وخلد القرآن هذا العفو في القرآن الكريم، حتى يبقى قدوة لمن بعده حيث قال الله تعالى: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: 92]. وفعلا اقتدى نبينا محمد ﷺ بأخيه يوسف، يوم الفتح والنصر والتمكين، فعفا عن قريش، ولم يعاقبها على تفريطها في حقه وحق المؤمنين المستضعفين في مكة وشعابها، فقال النبي ﷺ: "يا معشر قريش، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية، وتعظمها بالآباء، الناس من آدم، وآدم من تراب، ثم تلا هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ الآية كلها. ثم قال: يا معشر قريش، ما ترون أني فاعل فيكم؟ قالوا: خيرا، أخ كريم، وابن أخ كريم. قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء"[1].

والابتلاء يكون بعد التمكين للمؤمنين في الأرض، ويبسط الله لهم من الخيرات والأمن والاستقرار، أو السلطة والقوة، وأي انحراف عن منهج الله تعالى في تدبير مرحلة التمكين، فإن سنة الله في خلقه لا تحابي أحدا.

وأخطر التحديات التي تواجه الفئة الممكَّنِ لها، تحديان: تحدي الشهوات، وتحدي الشبهات. أما الشهوات فأولها شهوة المال والسلطة والنساء. وأما الشبهات فمثل الغرور والتكبر والاختلاف والغلو والتطرف، أو البدع والشرك ومظاهره المختلفة. وقد تعصف هذه التحديات بمرحلة التمكين وهي في بدايتها، كما في حالة بني إسرائيل الذين سقطوا في شبهة الشرك والوثنية حين طلبوا من موسى عليه السلام أن يجعل لهم صنما يعبدونه، ونسوا عبادة الله الذي نجاهم من عدوهم، لولا أن موسى عليه السلام، تدخل وأرجعهم إلى

---

(1) - السيرة النبوية لابن هشام، مؤسسة علوم القرآن، تحقيق وضبط وشرح ووضع فهارس مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي، بيروت، سنة 1983، 412/2

رشدهم، وذكرهم بنعم الله وفضله عليهم. قال تعالى واصفا حالهم: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[الأعراف: 138].

أما الشهوات فخطرها عظيم على الأفراد والجماعات والدول، وصدق الله العظيم القائل في كتابه المجيد: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: 16]. وتحذير النبي ﷺ واضح في خطورة الإغراق في ملذات الدنيا وزينتها، فقد قال ﷺ: (فَوَاللهِ مَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنِّي أَخْشَى أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا، كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ)[1]، وقوله ﷺ: (إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون فاتقوا الدنيا واتقوا النساء فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء وفي حديث ابن بشار لينظر كيف تعملون)[2].

وأمثلتها كثيرة، ونذكر منها سبب هلاك كثير من الأمم السابقة، كقوم لوط الذين أغرقوا في الشهوات إلى حد الشذوذ الجنسي، فسلط الله عليهم عذابا أليما وردم عليهم قريتهم، وما حدث للمسلمين في الأندلس، من هزيمة وضياع ملك، كان سببه الإغراق في الملذات واتباع الشهوات.

خاتمة

وفي ختام هذا البحث وجب التأكيد على أن الابتلاء سنة الله في خلقه، وأن الابتلاء هو الغاية من الوجود البشري على هذه الأرض، وأن التمكين في الأرض يكون بعد النجاح في الابتلاء، وأن في القصص القرآني هدي رباني ينير طريق السائرين إلى الله، الذي هو طريق الابتلاء بالشدائد والمحن، أو التمكين والنصر. والمطلوب من خيار هذه الأمة ومصلحيها،

---

(1) - صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب حدثني خليفة، رقم الحديث: 4015

(2) - صحيح، مسلم، كتاب الرقائق، باب أكثر أهل الجنة الفقراء وأكثر أهل النار النساء وبيان الفتنة بالنساء، رقم الحديث: 2742

وهي تعيش اليوم ابتلاءات متعددة، أن يرجعوا إلى الهدي القرآني لإبصار الطريق، واستنباط منهج التعامل مع الابتلاءات، من أجل التحقق من أسباب التمكين، والنجاح في الدنيا، والفوز في الآخرة. والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل.

لائحة المصادر والمراجع

1. **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن،** للشنقيطي، دار الفكر، بيروت، سنة 1994.
2. **البحر المديد في تفسير القرآن المجيد،** لأحمد بن عجيبة، تحقيق أحمد الراوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط الأولى.
3. **التحرير والتنوير،** ابن عاشور دار سحنون للنشر والتوزيع - تونس – 1997
4. **تفسير الشعراوي،** محمد متولي الشعراوي، د 1، أخبار اليوم، دار الكتب.
5. **تفسير القرآن العظيم،** ابن كثير، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، سنة 1419.
6. **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان،** عبد الرحمن السعدي، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، سنة 2000.
7. **جريدة ميثاق الرابطة،** بتاريخ: 12 - 03 – 2010.
8. **الجواهر الحسان،** في تفسير القرآن، عبد الرحمن الثعالبي، تحقيق: أبو أحمد الغماري، ط 1 سنة 1996م، دار الكتب العلمية، بيروت.
9. **روضة المحبين ونزهة المشتاقين،** لابن القيم، دار الكتب العلمية، بيروت، سنة 2012م.
10. **زاد المعاد في هدي خير العباد،** لابن القيم، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية بيروت، سنة 2006م.
11. **سنّة التمكين في ضوء القرآن الكريم،** رمضان زكي خميس الغريب، بحث، المملكة العربية السعودية.

12. **السيرة النبوية لابن هشام**، مؤسسة علوم القرآن، تحقيق وضبط وشرح ووضع فهارس مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي، بيروت، سنة 1983.
13. **في ظلال القرآن**، سيد قطب، دار الشروق، سنة 2003 م.
14. **القاموس المحيط**، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، مؤسسة الرسالة- لبنان، ط8/ 2005.
15. **كتاب الفوائد**، لابن القيم، دار الكتب العلمية، بيروت، سنة 1973،
16. **لسان العرب**، أبو الفضل جمال الدين بن مكرم الإفريقي المصري، ابن منظور، دار صادر- بيروت، د. ط، 1990.
17. **مجموع الفتاوى**، لابن تيمية، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، سنة 2011م.
18. **مدارج السالكين بين إياك نعبد وإياك نستعين**، لابن القيم، الجوزية، دار الكتاب العربي، سنة 1996.
19. **المعجم الوسيط**، مصطفى إبراهيم وآخرون، مجمع اللغة العربية- مطبعة مصر، 1961.

التزكية أساس صلاح الممارسة الاستخلافية
من خلال القصص القرآني

د. حفيظ غياط

أستاذ باحث في التربية والفكر الإسلامي

وأستاذ زائر بالمركز الجهوي لمهن التربية والتكوين بالقنيطرة

عضو المكتب التنفيذي لمركز الأمانة

مقدمة

خلق الله تعالى الإنسان وجعله خليفة في الأرض، فقال سبحانه: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة:30]؛ كما بين له بأن الغاية من وجوده تحقيق العبودية الخالصة لله رب العالمين، فقال عز وجل: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ [الذاريات:56]، ولتحقيق النجاح في الوفاء بأعباء هذه المسؤولية الجسيمة، على الوجه الذي يُرضي الخالق العظيم، كان مضطرا لخوض تجربة الاستخلاف المريرة على وجه هذه الأرض -بما تنطوي عليه من تحديات وابتلاءات- لبلوغ المطلوب وفق إرادة المستخلِف، إلا أن النجاح في تحقيق هذا المسعى لا يتم إلا عن طريق تزكية الإنسان لنفسه، وانتصاره على أهوائها، وعلى وسوسة الشيطان وتحريضه، لذلك علق الله تعالى فلاحَ هذا الإنسان وسعادته الأبدية بتزكية النفس

وتقواها، كما ربط خيبته وشقاءه بتدسيتها وفجورها وانحرافها عن نهج الاستقامة والتقوى، فقال تعالى: (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا) [الشمس: 9-10].

ولما كان مصير الإنسان مرتهن بتحقيق هذا المقصد العظيم، أرسل الله تعالى الأنبياء والمرسلين عليهم السلام لتزكية نفوس أقوامهم، وتأهيلهم للاضطلاع بأمانة الاستخلاف، فكانت التزكية من أعظم مقاصد بعثتهم، وعلى رأسهم رسول الله ﷺ، لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: 129].

من هنا يأتي هذا البحث للتأكيد على أهمية التزكية من خلال القصص القرآني، لكونه يمثل تجربة واقعية لتاريخ البشرية عبر مسارها الطويل، يصف لنا قصة النفس البشرية خلال سعيها الاستخلافي على وجه هذه الأرض، سعيٌ في اتجاهين متقابلين: اتجاه التزكية المفضي إلى الفلاح، واتجاه التدسية المفضي إلى الخسران، تُصوره لنا حلقات زمنية متعاقبة لقصص أقوام مرت فوق هذه الأرض، تاركة بصماتها وآثارَها من الخير أو الشر، مسجلة بذلك حضورها الاستخلافي المشرف أو المُخزي، فيها من الدروس والعبر التربوية ما يتزكى به الإنسان، فيتحقق وعد الله له بالاستخلاف والتمكين، لقوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً﴾ [النور: 55].

من خلال ما سبق تظهر لنا العلاقة الوثيقة بين التزكية والاستخلاف، فالتزكية إذن منهاج عملي مُوَجِهٌ للممارسة الاستخلافية للإنسان على ظهر الأرض، في الاتجاه الذي يحقق سعادة الإنسان ويبعده عن الشقاء والخُسران، الأمر الذي تسعى هذه الورقة لتأكيده من خلال نماذج عملية عرضها علينا القصص القرآني.

1) إشكالية البحث:

يعتبر القصص القرآني من أبرز مصادر التربية والتوجيه، حيث لا تخلو قصة من قصص القرآن من دروس وعبر تتزكى بها النفوس، لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي

الأَلْبَابِ﴾ [يوسف: 111]، وعليه، فالإشكال الذي يروم البحث الإجابة عنه يكمن في السؤال الآتي:

كيف نستفيد من القصص القرآني في تحقيق التزكية التي بها فلاح الإنسان وسعادته في الدارين؟ أو بمعنى أدق: كيف نتمكن من خلال التدبر الأمثل لما ورد في القصص القرآني من تجارب استخلافية -ناجحة أو فاشلة- من تحصيل الدروس والعبر التربوية التي تبلغنا مقام التزكية، وتقودنا إلى النجاح والفلاح في معركة الابتلاء؟

2) أهداف البحث:

يهدف هذا البحث بلوغ الأهداف الآتية:

1. التأكيد على مكانة التزكية باعتبارها عملية تأهيلية لهذا الإنسان، لابد منها لتحقيق فلاحه وسعادته، والنجاة من الخسران والشقاء، فكان تحقيق هذا المقصد من أعظم ما بُعث لأجله جميع الأنبياء والمرسلين عليهم السلام.
2. التأكيد على مركزية مقصد التزكية وصلته الوطيدة بمقصد الاستخلاف في الأرض، وذلك لأن تحقيق التمكين في الأرض، والوفاء بأعباء أمانة الاستخلاف لا يتم إلا عن طريق نجاح الإنسان المستخلَف في معركة التزكية.
3. التأكيد على أن تدبر القصص القرآني من أبرز أساليب التزكية، لكونه يمثل تجربة حقيقية وواقعية لتاريخ البشرية الطويل، بما فيه من رصد دقيق لقصة النفس البشرية خلال سعيها الاستخلافي على وجه هذه الأرض، فكان تتبع ملامح هذه الممارسة الاستخلافية -بصورها المتقابلة- من داخل القصص القرآني عملا تربويا بالغ الأهمية.

3) منهج البحث:

يعتمد هذا البحث على المنهج الوصفي، عند بسط بعض أحداث القصص تمهيدا لدراستها، كما يعتمد المنهج الاستقرائي التحليلي، الذي يقوم على رصد وتتبع جزئيات القضية المدروسة -مقصد التزكية-من خلال القصص القرآني، وتحليل أثرها في ترشيد الممارسة الاستخلافية؛ قصد الخلوص إلى نتائج ومبادئ يمكن تعميمها.

4)خطة البحث:

تضمن هذا البحث مقدمة، ومبحثين، وخاتمة.

اشتملت **المقدمة** على بيان أهمية البحث و**إشكاليته**، والمنهج المتبع فيه، وخطته.

المبحث الأول: في بيان المفاهيم الأساسية للبحث والعلاقات بينها.

المبحث الثاني: في بيان مقصد التزكية في القصص القرآني من خلال الممارسة الاستخلافية: نماذج وأمثلة.

الخاتمـة: وتتضمن أهم النتائج والخلاصات.

المبحث الأول: في بيان المفاهيم الأساسية للبحث والعلاقة بينها.

المطلب الأول: في بيان مفهوم التزكية وكونه مقصداً من مقاصد الوحي.

أولاً-في بيان مفهوم التزكية:

1) التزكية لغة:

هي الطهارة والنماء والزيادة، فهي مأخوذة من زكا يزكو زكاء، أي نما وطهر، فالتزكية هي النماء والطهارة والبركة[1]. وزكى الشيء: أزكاه وأصلحه وطهره[2] قال تعالى: ﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها﴾ [التوبة:103]. وقال الإمام الألوسي في تفسيره: "وأصل التزكية التطهير والتنزيه من القبيح"[3]. وقال ابن تيمية: "وَالزَّكَاةُ فِي اللُّغَةِ النَّمَاءُ وَالزِّيَادَةُ فِي الصَّلَاحِ. يُقَالُ: زَكَا الشَّيْءُ إذَا نَمَا فِي الصَّلَاحِ، فَالْقَلْبُ يَحْتَاجُ أَنْ يَتَرَبَّى فَيَنْمُو وَيَزِيدُ حَتَّى يَكْمُلَ وَيَصْلُحَ، كَمَا يَحْتَاجُ الْبَدَنُ أَنْ يُرَبَّى بِالْأَغْذِيَةِ الْمُصْلِحَةِ لَهُ، وَلَا بُدَّ مَعَ ذَلِكَ مِنْ مَنْعِ مَا يَضُرُّهُ فَلَا يَنْمُو الْبَدَنُ إلَّا بِإِعْطَاءِ مَا يَنْفَعُهُ وَمَنْعِ مَا يَضُرُّهُ، كَذَلِكَ الْقَلْبُ لَا يَزْكُو فَيَنْمُو وَيَتِمُّ صَلَاحُهُ، إلَّا بِحُصُولِ مَا يَنْفَعُهُ وَدَفْعِ مَا يَضُرُّهُ"[4].

---

(1) ابن منظور "لسان العرب":358/14 مادة (زكا).

(2) مجموعة من المؤلفين، "المعجم الوسيط"، 824/1 مادة (زكا).

(3) أبو الفضل الألوسي، "روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني"، 54/5

(4) تقي الدين ابن تيمية، "مجموع الفتاوى"، 96/10

وأصل الزكاة الزيادة في الخير، ولن ينمو الخير إلا بترك الشر، كما أن الزرع لا ينمو حتى يزال عنه الدغل[1]. ف "التَّزْكِيَةُ جَعْلُ الشَّيْءِ زَكِيًّا: إمَّا فِي ذَاتِهِ وَإِمَّا فِي الِاعْتِقَادِ وَالْخَبَرِ؛ كَمَا يُقَالُ عَدَّلْته إذَا جَعَلْته عَدْلًا فِي نَفْسِهِ أَوْ فِي اعْتِقَادِ النَّاسِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النجم:32] أَيْ تُخْبِرُوا بِزَكَاتِهَا"[2].

2)- أهم المعاني التي وردت لكلمة التزكية في القرآن الكريم[3]:

تارة تنسب التزكية إلى الله تعالى، وتارة تنسب إلى العباد، ويمكن تلخيص هذه المعاني التي وردت فيها كلمة ﴿التزكية﴾ في آيات القرآن الكريم في أربع وهي:

1-**نُسبت التزكية إلى الله سبحانه وتعالى،** بمعنى الهداية والتوفيق في الدنيا، ومنه قوله تعالى: ﴿بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: 49]، كما نسبت إليه سبحانه في الآخرة، بمعنى التطهير من دنس الذنوب للمؤمنين الطائعين، ومنه قوله تعالى عن الكفار: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[البقرة: 174].

2-**نُسبت التزكية إلى الرسول ﷺ** لأنه المربي والمزكي لأمته والمرشد إلى طريق الخير، وهذه هي المهمة التي كلفه الله بها وأمره بأدائها. قال سبحانه: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [البقرة: 151]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [آل عمران: 164]، وقال عز وجل: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة: 103].

3-**نسبت التزكية إلى العبد،** لأنه يزكي نفسه بالإيمان والمجاهدة، لقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ [الشمس: 9]، ويزكي أمواله بدفع التي هي حق الفقير، لقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا

---

(1) الدغل: الدَّغَلُ بفتحتين الفساد مثل الدخل، أبو عبد الله محمد الرازي، "مختار الصحاح"، ص 218

(2) راجع، "مجموع الفتاوى"، 10/98-97

(3) ذكر الإمام الفيروز أبادي في كتابه "بصائر ذوي التمييز"، 134/3، ما ورد في القرآن الكريم من الآيات التي فيها الحديث عن التزكية والمعاني المقصودة بها، وقسمها إلى أربعة عشر وجها، لكنها جميعها ترجع إلى المعاني الأربعة المذكورة، نقلا عن أنس كرزون، "منهج الإسلام في تزكية النفس وأثره في الدعوة إلى الله تعالى"، ص14-15.

الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة:43]، ويزكي طعامه بالبحث عن الحلال الطيب، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا﴾ [الكهف: 19]. وهذا المعنى هو المقصود والمراد عند استعمالنا لمصطلح التزكية.

4-وردت التزكية في القرآن الكريم في معرض الحديث عن دعوى التزكية، كأن يمدح الإنسان نفسه تفاخرا وتظاهرا بالصلاح والتقوى، وهو شيء مذموم ومنهي عنه، لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: 49]، وقوله سبحانه: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم: 32].

فالمراد بالتزكية إذن: إصلاح النفس وتطهيرها من الآثام والشرور وكل الصفات القبيحة المهلكة، وتحليتها بالفضائل المنجية، عن طريق العلم النافع، والعمل الصالح، وفعل المأمورات وترك المحظورات، حتى تبلغ درجة الإحسان، وتستقيم على الصراط المستقيم. فهي عملية تحويل وتغيير وانتقال بالإنسان من حال إلى حال، تتطلب من العبد جهداً ومجاهدة، وعزيمة وإرادة وإخلاصا، حتى يظفر بالمطلوب ويُحَصِل الثمرة، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبوت: 69].

وفي ذات السياق يشير عز الدين توفيق إلى أن القرآن والسنة كما أمرا بالتفكر في النفس، أمرا كذلك بتزكيتها، لأنها قابلة في كل وقت للتغيير، والتغيير المضاد ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا، قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس:7-10]... وقد جاء في دعائه عليه الصلاة والسلام إشارة إلى ثوابت التزكية في الإسلام: «اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل، والجبن والبخل، والهرم، وعذاب القبر، اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها، اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها»[1]. فلا أفضل من تزكية الله تعالى للنفس، "زكها أنت خير من زكاها"، فكيف تكون التزكية من الله؟ وكيف يتولى تزكية من دعاه وسأله إياها؟ إن هذا لا يفيد أن التزكية تكون عطاءً مباشرا خاليا من جهد الشخص ومحاولته،

(1) مسلم بن الحجاج، "صحيح مسلم" كتاب الذكر، باب: التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل، حديث رقم: 7081.

ولكن التزامَه بمضمون التزكية القرآني، واقتداءَه في المجاهدة بالنموذج النبوي، مع دعم ذلك كله بالدعاء هو الذي يُبَلغ العبد هذه المرتبة: أن يزكي الله نفسه[1].

وضد التزكية التدسية: قال تعالى: ﴿قد أفلح من زكاها. وقد خاب من دساها﴾ [الشمس: 9-10] قال ابن القيم -رحمه الله-في التعليق على هذه الآية: "والمعنى: قد أفلح من كبرها وأعلاها بطاعة الله وأظهرها، وقد خسر من أخفاها وحقرها وصغرها بمعصية الله، وأصل التدسية الإخفاء، ومنه قوله تعالى: ﴿أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾ [النحل: 59]، فالعاصي يدس نفسه في المعصية ويحقرها"[2].

ثانيا-في بيان مكانتها وأهميتها وكونها من مقاصد الدين العظمى:

مما سبق تتأكد أهمية تزكية هذا الإنسان، وتأهيله للقيام بوظيفته الاستخلافية التي لأجلها خلق، ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلأَرضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: 30]. كما تتأكد مسؤوليته الكاملة عن مصيره ومستقبله الأخروي فلاحا بتزكيتها، أو خسرانا بتدسيتها، فتزكية الإنسان لنفسه من أعظم الأمانات التي أنيطت به، وهو من يتحمل مسؤولية قراره واختياره عن علم وبينة، قال عز وجل: ﴿قَد جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُم فَمَن أَبصَرَ فَلِنَفسِهِۦۖ وَمَن عَمِيَ فَعَلَيهَا وَمَا أَنَا عَلَيكُم بِحَفِيظ﴾ [الأنعام: 104]، ونظراً لهذه الطبيعة الابتلائية للأمانة فقد زوده الله تعالى بأسباب النجاح في مهمته، فأرسل الرسل، وزودهم بالبينات ليرسموا للناس الطريق السالكة لتحقيق الفوز والفلاح، ولإقامة الحجة الكاملة عليهم، قال تعالى: ﴿رُّسُلا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُ بَعدَ ٱلرُّسُلِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيما﴾ [النساء: 165]، فكانت هداية هذا الإنسان محورَ رسالاتهم، وغايةَ بعثتهم.

1) اختيار الإنسان لحمل الأمانة دليل على قيمته الوجودية وكرامته عند الله:

إن تدبرنا لقوله عز وجل: ﴿إِنَّا عَرَضنَا ٱلأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلأَرضِ وَٱلجِبَالِ فَأَبَينَ أَن يَحمِلنَهَا وَأَشفَقنَ مِنهَا وَحَمَلَهَا ٱلإِنسَـٰنُ إِنَّهُۥكَانَ ظَلُوما جَهُولا﴾ [الأحزاب: 72]، يفتح أمامنا

---

(1) محمد عز الدين توفيق، "التأصيل الإسلامي للدراسات النفسية"، ص68-70 بتصرف.

ابن قيم الجوزية، "الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي"، ص 52(2)

آفاقاً رحبة للتساؤل عن سر اختيار الله تعالى لهذا الإنسان، لحمل الأمانة العظمى دون غيره من المخلوقات؟ وإنه من مظاهر الحكمة الإلهية أن توجد مناسبةٌ بين حجم هذه الأمانة المعروضة لتُحْمَل بمسؤولية عالية، وبين الطرف المؤهل للقيام بها والوفاء بمقتضياتها، وهذا التكليف الثقيل هو ما عبر عنه القرآن الكريم بالأمانة.

إنها مهمة صعبة وأمانة ثقيلة، تتطلب لحملها والوفاء بها حساً عاليا بالمسؤولية، وعزيمة قوية على الفعل والإنجاز المتقن، وتوطيناً للنفس على الصبر والمجاهدة بقصد بلوغ المقاصد والغايات، فكان الإنسان هو المرشح الأكفأ والأجدر بهذه الوظيفة الوجودية، ولتحقيق الاستخلاف الراشد المسعِد للبشرية التائهة الحائرة. يقول عبد المجيد النجار: "إن الإنسان هو الكائن الذي اختير لأن يكون مُكلفا، فقد انتخبه الله تعالى من بين الموجودات، ليقوم بمهمة الاستخلاف وفق أوامر ينبغي أن يقوم بها، ونواه ينبغي أن ينتهي عنها، ومكنه من إرادة حرة تكون على أساسها المحاسبة على الإيفاء بما أمر به ونُهي عنه"[1]..

ولقد فُسرَتِ الأمانة تفسيرات كثيرة بين ما هو جزئي كتفسيرها بالصلاة والصوم والطاعة (...) وبين ما هو كلي كتفسيرها بمعنى التكليف، لِما في هذا المعنى الأخير من المغالبة للنفس ومجاهدتها حتى تستقيم على طريق الحق والهدى، ومخالفة الهوى ووسوسة الشيطان، "وإنما وُصف التكليف بأنه الأمر بخلاف ما في الطبيعة لأن في تحمله مشقة تعاكس بعض ما خُلق عليه الإنسان من الغرائز والطبائع"[2]، وقد ناقشت عائشة عبد الرحمن المقصود بالأمانة من خلال عرض مفصل ومناقشة مستفيضة[3]، ردت من خلالها الكثير من تأويلات المفسرين، مستندة في ذلك إلى دلالة السياق القرآني، ثم خلصت إلى القول: "أفلا تكون هذه الأمانة هي الابتلاء بتبعة التكليف وحرية الإرادة ومسؤولية الاختيار؟ بلى! فكل الكائنات عدا الإنسان مُسَيرة بمقتضى سنن كونية على وجه التسخير والامتثال، دون تحمل لتبعة ما تعمل

---

(1) عبد المجيد النجار، "قيمة الإنسان"، ص25-26.

(2) نفس المصدر، ص27

(3) راجع مناقشتها القيمة لأمانة الإنسان ابتداء من الصفحة 63، عائشة عبد الرحمن، "القرآن وقضايا الإنسان".

(...) الإنسان وحده هو المسؤول عن عمله، المحاسب عليه ثوابا وعقابا، ولا يَحمل أحد عنه تبعة مسعاه"[1]

من هنا تبرز قيمة هذا الإنسان الوجودية، باعتباره المقصود بالبناء والإعداد والتزكية، والقادر على ممارسة التكليف بكفاءة عالية ومسؤولية كاملة، وهو ما يفسر لنا حجم الاهتمام بهذا المخلوق العجيب، ومقدار الاحتفاء والتكريم اللذَيْن حظي بهما من بين سائر المخلوقات، كل ذلك بعلم الله وحكمته، ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: 30]، فالله عز وجل أعلم بمخلوقاته، وبمدى كفاءة هذا الإنسان وأهليته لأداء الوظيفة التي خُلق لأجلها، وهي وفاؤه بأمانة الاستخلاف التي عجزت السماوات والأرض عن حملها، يقول عبد المجيد النجار: "والإنسان قد خُلق لأعلى غاية بالنسبة لموجودات الكون كلها، وهي غاية الخلافة في الأرض لتطبيق أوامر الله فيها، وقد أخبر القرآن الكريم في الآية الآنفة الذكر[2] أنه خُلق على أحسن تقويم لتأدية ذلك الغرض، وكان ذلك تكريما إلهيا له"[3].

وفي سياق حديثه عن مظاهر الرفعة في قوام الإنسان المختار لأداء مهمة الخلافة، بين بأن المقصود بالتقويم في بنية الإنسان هو التقويم الشامل الذي يتناول كلاً من البنية المادية والبنية المعنوية، وبعد بيان وتفصيل لمظاهر حسن التقويم في البنية المادية للإنسان-على مستوى البناء الخارجي والداخلي-وما انطوت عليه من عجائب التسوية، انتقل النجار إلى التأكيد على قيمة البعد المعنوي في هذا الإنسان المستخلف، وقدرته على القيام بمهام الاستخلاف، يقول: "فإن البنية المعنوية هي أعلى شأناً -أي مقارنة مع البنية المادية-، لأن

---

(1) نفس المصدر، ص72-73 بتصرف.

(2) وهي قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾ [التين: 4]

(3) عبد المجيد النجار، "قيمة الإنسان" ص19

هذه البنية هي التي تَتَقوم بها ماهية الإنسان، وهي التي تدبر سيرة الاستخلاف، وتسوق الجسم لتنفيذ تدبيرها"[1].

ثم بين مكانة العقل ضمن عناصر البنية المعنوية التي يقوم بها التكليف، عندما ذكر بأن "العقل أشرف العناصر في هذه البنية، فهو مناط التكليف لإنجاز وظيفة الخلافة أصلاً، ولذلك فقد بني على خصال عجيبة لأداء تلك الوظيفة على أكمل الوجوه، ومن أظهر تلك الخصال ما اختص به من قدرة على التمييز بين الحق النافع وبين الباطل الضار، فكان بذلك العاصمَ للإنسان من المآل إلى ما فيه الهلكة، والدافع له إلى ما فيه المصلحة المحققة للغرض من الوجود"[2].

إن اختيار الإنسان - بالصفات السالفة الذكر- لتحمل أمانة الاستخلاف دون غيره من المخلوقات الأخرى، هو أكبر دليل على مكانته الوجودية المرموقة، التي جعلته يحظى بالسجود له، أمراً من الله تعالى لا يقبل الامتناع والرفض. "ويبدو أن المعنى الأسمى الذي تضمنه التعبير بالأمانة على التكليف، هو بيان قيمة الإنسان ورفعته من بين سائر الكائنات، لأن الأمانة من شأنها ألا تُعرض من بين الناس إلا على من عُرف بالتمييز والعلو الخُلُقي، كما كان الرسول صلى الله عليه وسلم في مكة، فإنه كانت تودع عنده الأمانات لما كان من رفعته في قومه حتى سمي بالأمين"[3]

وعن التعقيب على حمل الإنسان للأمانة بقوله تعالى في نهاية الآية: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُوما جَهُولا﴾ [الأحزاب: 72]، يقول عبد المجيد النجار: "فليس فيه ما ينقص هذا المعنى المتضمن لرفعة الإنسان، لأنه وصفٌ لما في طبيعة الإنسان من الظلم والجهل كمظهرين من مظاهر النوازع النفسية الدافعة إلى اقتراف الشرور، في مقابل النوازع الدافعة إلى أعمال الخير،

---

(1) نفس المصدر، ص21-22

(2) نفس المصدر، ص22

(3) نفس المصدر، ص28

وهي المعادلة التي رُكب عليها الإنسان مع تزويده بإرادة الاختيار، والتي كانت أساساً للتكليف"[1].

فهذا التحليل الذي بسطه عبد المجيد النجار يؤكد ما سبقت الإشارة إليه بخصوص هذه المكانة السامية التي يحظى بها الإنسان بين سائر الموجودات، باعتباره المخلوق الأجدر بالوفاء بأمانة الاستخلاف التي ابتُلي بحملها، والاضطلاع بأعبائها الثقيلة، لأجل ذلك كان بناؤه بإتقان، وتزكيته تزكية شاملة، مشروعَ كل الأنبياء عليهم السلام، وغاية بعثة سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم.

2) تزكية الإنسان وتأهيله من مقاصد البعثة النبوية

تزكية النفس وتنقيتها من عاهاتها وقبائحها، وتصفيتها من أدرانها وكدوراتها، والارتقاء بهذا الإنسان في مدارج الكمالات الأخلاقية بقصد إكسابه الأهلية للوفاء بمهام الاستخلاف، من أعظم ما بُعِث لأجله رسول الله صلى الله عليه وسلم، ونزل بسببه القرآن الكريم. يقول أبو الحسن الندوي: "ومهمة تهذيب الأخلاق، وتزكية النفوس، تشغل مكانا كبيرا في دائرة الدعوة النبوية، ومقاصد البعثة المحمدية، وقد ذكر النبي ﷺ هذا الغرض العظيم الذي كانت له البعثة، بكلمة الحصر، فقال: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[2]، وقد كان خيرَ مثال له، وأفضل أسوة فيه"[3].

ولنُبْل هذه الغاية التي بعث لأجلها ﷺ، وأهميتها في حياة الأفراد والمجتمعات، كان لابد من جعل: "وظيفة كل مدرسة إسلامية، أو جامعة إسلامية، أو مركز إسلامي للتعليم والثقافة،

---

(1) نفس المصدر والصفحة

(2) رواه البيهقي في سننه الكبرى، كتاب الشهادات، باب بَيَانِ مَكَارِمِ الأَخْلاَقِ وَمَعَالِيهَا الَّتِى مَنْ كَانَ مُتَخَلِّقًا بِهَا كَانَ مِنْ أَهْلِ الْمُرُوءَةِ الَّتِى هِىَ شَرْطٌ فِى قَبُولِ الشَّهَادَةِ: رقم 21301

(3) أبو الحسن الندوي، "العقيدة والعبادة والسلوك..."، نقلا عن "التربية الإسلامية عند العلامة أبي الحسن الندوي" إعداد محب الدين أبو صالح، ص39.

أن تخرج رجالاً يقومون عن جدارةٍ ومقدرةٍ، بالتلاوة، وبتعليم الكتاب والحكمة، وبالتزكية: الأركان الأربعة والمقاصد الأولى، التي كانت لها البعثة"[1].

ولقد توالت آيات القرآن الكريم مؤكدة أهميةَ تزكية النفس، وتقوى القلب، طلباً للسعادة والفلاح، ومُبينة أن كل الأنبياء جاءوا لتحقيق هذا المقصود في أقوامهم، ومن هذه الآيات الدالة على أن إلزام النفس بتقوى الله تعالى فيه زكاتُها وفلاحُها، قوله سبحانه: ﴿ونفس وما سواها، فألهمها فجورها وتقواها، قد أفلح من زكاها، وقد خاب من دساها﴾ [الشمس: 7-10]. كما حكى القرآن عن دعوةِ الأنبياءِ أقوامَهم إلى تقوى الله، وإخلاص العبادة له سبحانه بما يكون مزكياً لنفوسهم، ومطهراً لقلوبهم، من الرذائل الأخلاقية، والعقائد الفاسدة التي توجب الشقاء لمن تلبس بها، من ذلك قوله عن نوح عليه السلام: ﴿إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون﴾ [الشعراء: 106]، وقوله عن هود عليه السلام: ﴿إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون﴾ [الشعراء: 124]، وقوله عن صالح عليه السلام: ﴿ألا تتقون. إني لكم رسول أمين. فاتقوا الله وأطيعون﴾ [الشعراء: 142-144]، وموسى عليه السلام يخبر فرعون بأن مقصودَ دعوته وحقيقتَها تزكية النفوس من الرذائل-ومن أعظمها الشرك والكفر- والهداية إلى طريق الله تعالى، قال تعالى عنه: ﴿فقل هل لك إلى أن تزكى. وأهديك إلى ربك فتخشى﴾ [النازعات: 18-19]. وكذلك كانت بعثته ﷺ كغيره من الأنبياء ترمي إلى تزكية أخلاق من بعث فيهم[2]، وتأهيلهم للقيام بدور الخلافة في الأرض، وتحقيق العبودية لله رب العالمين.

يقول الإمام ابن القيم-رحمه الله-: "تزكية النفوس مسلم إلى الرسل، وإنما بعثهم الله لهذه التزكية، وولاهم إياها، وجعلها على أيديهم دعوة وتعليما وبيانا وإرشادا...فهم المبعوثون لعلاج نفوس الأمم، قال الله تعالى: ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾ [الجمعة: 2]. وتزكية

---

(1) نفس المصدر، ص25.

(2) سبقت الإشارة إلى ذكر آيات التزكية عند الحديث عن نسبة هذه المهمة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، راجع الآيات: [آل عمران: 164] و [البقرة: 151].

النفوس أصعب من علاج الأبدان وأشد، فمن زكى نفسه بالرياضة والمجاهدة والخَلوة التي لم يجيء بها الرسل، فهو كالمريض الذي يعالج نفسه برأيه، وأين يقع رأيه من معرفة الطبيب، فالرسل أطباء القلوب، فلا سبيل إلى تزكيتها وصلاحها إلا من طريقهم وعلى أيديهم، وبمحض الانقياد والتسليم لهم، والله المستعان"[1].

فمقصود التزكية إذن تنقية القلوب وإصلاحها، وتطهيرها على منهج الأنبياء والمرسلين، ولذلك اهتم السلف الصالح بالسلوك الشرعي، وتهذيب الأخلاق علما وعملا، لأن السلوك الخارجي انعكاس للإيمان القلبي، وصلاح الأعمال الظاهرة ثمرة الاعتقاد الباطن، ولذلك كانت الأخلاق والسلوكات الظاهرة من شعب الإيمان، قال رسول الله ﷺ: «الإيمان بضع وستون شعبة، والحياء شعبة من الإيمان»[2].

وعن هذه العلاقة الوثيقة بين الظاهر والباطن يقول الإمام الشاطبي: "ومن هنا جُعلت الأعمال الظاهرة في الشرع دليلاً على ما في الباطن، فإن كان الظاهر مُنخرماً حُكِم على الباطن بذلك، أو مستقيماً حُكِم على الباطن بذلك أيضا"[3]

إن تصورنا لبناء الإنسان المؤهل لحمل أمانة الاستخلاف-انطلاقا من مرجعية الوحي الإلهي الحكيم- ينبني على رؤية شمولية تستوعب هذا المخلوق المكرم في أبعاده كلها، ومن هنا تطلب بناؤه مراعاةَ هذه الطبيعة في تكوينه، فيكون المقصود من العملية التربوية تطهير هذا الإنسان من كل الصفات الخبيثة والرذائل المُردية، باعتبارها عوائق وحواجز مانعة له من أداء وظيفته الاستخلافية، والمتمثلة في جلب المصالح ودرء المفاسد، ثم تنميتُه وترقيته في مدارج الكمال على جميع الأصعدة، ليكون أهلا للوفاء بمسؤولياته المختلفة في هذه الدنيا، وبهذا الإعداد الشمولي يكون مؤهلاً للانخراط في تحقيق النهضة العمرانية الشاملة، والنجاح في ممارسة الاستخلاف الراشد برسالية عالية، بما تعنيه هذه الرسالية من إيجابية

---

(1) ابن قيم الجوزية، "مدارج السالكين": 315/2

(2) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الإيمان، باب أمور الإيمان، رقم الحديث 9 .

(3) أبو إسحاق الشاطبي، "الموافقات في أحكام الشريعة": 233/1

وفعالية في الإنجاز الحضاري. فحركة الإنسان الرسالي حركة راشدة قاصدة، مؤسسة على العلم، ومؤطرة بتوجيهات الوحي الرباني حتى لا يزيغ عن الهدف والغاية.

المطلب الثاني: في بيان مفهوم القصص القرآني وأغراضه ومقاصده

1) في المراد بالقصص القرآني

يعبر معنى القص لغة عن تتبع الأثر وتقصيه، يقال: خرج فلان قصصاً في أثر فلان، إذا اقتص أثره، وقيل القاص يقص القصص لاتباعه خبرا بعد خبر، وسوقه الكلام سوقا[1]، يقول الفخر الرازي: "الْقَصَصُ إِتْبَاعُ الْخَبَرِ بَعْضُهُ بَعْضًا، وَأَصْلُهُ فِي اللُّغَةِ الْمُتَابَعَةُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ﴾ [الْقَصَصِ: 11] أَيِ اتْبِعِي أَثَرَهُ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَارْتَدَّا عَلى آثارِهِما قَصَصاً﴾ [الْكَهْفِ: 64]، أَيِ اتِّبَاعًا، وَإِنَّمَا سُمِّيَتِ الْحِكَايَةُ قَصَصًا لِأَنَّ الَّذِي يَقُصُّ الْحَدِيثَ يَذْكُرُ تِلْكَ الْقِصَّةَ شَيْئًا فَشَيْئًا"[2]، وقال في موضع آخر: "والقصص هو مجموع الكلام المشتمل على ما يهدي إلى الدين، ويرشد إلى الحق، ويأمر بطلب النجاة"[3]. قال مناع القطان: "قصص القرآن: أخباره عن أحوال الأمم الماضية، والنبوات السابقة، والحوادث الواقعة - وقد اشتمل القرآن على كثير من وقائع الماضي، وتاريخ الأمم، وذكر البلاد والديار، وتتبع آثار كل قوم، وحكى عنهم صورة ناطقة لما كانوا عليه"[4].

2) في الإشارة إلى أنواع القصص في القرآن

ذكر مناع القطان بأن القصص في القرآن على ثلاثة أنواع:

النوع الأول: قصص الأنبياء، وقد تضمن دعوتهم إلى قومهم، والمعجزات التي أيدهم الله بها، وموقف المعاندين منهم، ومراحل الدعوة وتطورها وعاقبة المؤمنين والمكذبين، كقصص نوح، وإبراهيم، وموسى، وهارون، وعيسى، ومحمد، وغيرهم من الأنبياء والمرسلين، عليهم جميعًا أفضل الصلاة والسلام.

---

(1) ابن منظور، "لسان العرب"، 7/74-75

(2) فخر الدين الرازي، "التفسير الكبير"، 18/417

(3) نفس المصدر، 8/250

(4) مناع القطان، "مباحث في علوم القرآن" ص316-317

النوع الثاني: قصص قرآني يتعلق بحوادث غابرة، وأشخاص لم تثبت نبوتهم: كقصة الذين أخرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت. وطالوت وجالوت، وابنيْ آدم، وأهل الكهف، وذي القرنين، وقارون، وأصحاب السبت، ومريم، وأصحاب الأخدود، وأصحاب الفيل ونحوهم.

النوع الثالث: قصص يتعلق بالحوادث التي وقعت في زمن رسول الله ﷺ: كغزوة بدر وأحد في سورة آل عمران، وغزوة حنين وتبوك في التوبة، وغزوة الأحزاب في سورة الأحزاب، والهجرة، والإسراء، ونحو ذلك"[1]

3) في بيان مقاصد القصص القرآني وأغراضه

يعتبر القصص القرآني وسيلة فعالة في التربية الحكيمة، فكتاب الله تعالى كتابُ تزكية وهداية لطريق الحق، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَ فِيهِ هُدى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: 2]، وقال عز وجل: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾ [الإسراء: 9]، وليس من قبيل المصادفة أن يحتل محور القصص القرآني مساحة شاسعة في كتاب الله تعالى، الذي أنزله هدى للعالمين في كل الأعصر والأزمنة، فالله أحكم الحاكمين والقرآن كلامه المبين، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ومن هنا ندرك مقدار قيمته التربوية، والحِكم والمقاصد التي ينطوي عليها[2]، وقد توقف محمد حسين فضل الله للحديث عن بعض هذه الأغراض والأهداف التي سيق لأجلها القصص القرآني، وكان مما أشار إليه: أن القرآن الكريم قد استخدم من أجل الوصول إلى عقل الإنسان وشعوره، أكثر من أسلوب رسالي لإقناعه بالفكرة الحق التي ترتبط بالله، وبالطريق الحق الذي يصل به إلى الله، في أجواء رائعة تمتزج فيها العقيدة بالإحساس والشعور(...) وكان القص من بين الأساليب التي استخدمها القرآن في هذا السبيل (...) ولم تكن القصة القرآنية، في أغراضها وأهدافها، تسعى

---

(1) نفس المرجع، ص317

(2) راجع -لمزيد من الفائدة- كلاما نفيساً للعلامة الطاهر بن عاشور رحمه الله ضمن المقدمة السَّابعة من المقدمات العشر التي صدر بها تفسيره الكبير "التحرير والتنوير"، وقد خصصها لبيان المقاصد والأغراض التي سيق لأجلها القَصَصُ الْقُرْآنِي، فهي وافية بالمقصود في هذا الباب. (الطاهر بن عاشور: 64/1 وما بعدها).

لعرض التاريخ لمجرد العرض، من أجل إعطاء صورة عن الواقع فحسب (...) بل كانت مرتبطة بالخط القرآني العريض، وهو الدعوة إلى الله، وإرشاد الناس إلى الحق، وهدايتهم إلى الإيمان بالله والإسلام له، وإخراجهم من الظلمات الحالكة التي يتخبط فيها واقعهم الفاسد المرتبك، إلى النور المنطلق من قِبَل الرسالة في آفاق الله ورحابه. لذا سعت القصة القرآنية إلى تحقيق هذه الأغراض في كل ما عرضه القرآن من تاريخ وصوره من واقع[1].

كما أشار محمد الغزالي-رحمه الله-أيضا، إلى اعتبار القصص القرآني من أبرز الوسائل والأدوات التربوية الفعالة، القادرة على تحقيق أهداف التربية وغاياتها، حين قال: "وقد قص علينا القرآن الكريم أهم أخبار الماضين، وسواء كانت القصص مفردة أو مكررة، فهي في السياق القرآني أداة تربية، ومصدر توجيه ووعظ يدعم الفرد والجماعة (...)، قصص القرآن قطع من الحياة الماضية، استرجعها الوحي الأعلى للتعليم والاعتبار"[2]

ثم عرض محمد الغزالي-رحمه الله-بعض هذه الفوائد والدروس المقصودة من القصص القرآني، ومدى ارتباطها بحياة الناس رغم تباعد الأزمنة والأمكنة، ولأهميتها التربوية، نختصرها في النقاط التالية:

"-إن القرآن الكريم عندما يقص، ينفخ الحياة في القرون الهامدة فإذا هي حية تسعى، نسمع فيها ضجيج العراك بين المحقين والمبطلين، فشريط الأحداث يتحرك ليُعيد علينا مراحل مضت من تاريخ الدنيا.

-إن الله تعالى يعرض علينا في كتابه الخاتم نماذج من القصص في رواية صادقة، لنرى من سبقونا في هزلهم، وجدهم، وغيهم ورشدهم، واعتدالهم وكبريائهم، واستقامتهم واعوجاجهم، إنها روايات للواقع المضبوط لا مكان فيها للخيال.

-إنما نريد–من خلال الحديث عن القصص القرآني-التماس بعض الأشفية الإلهية للعلل البشرية، وذلك بالتفرس في أحوال الماضين، وتقلبهم في البلاد إلى أن استكانوا تحت الثرى

(1) محمد حسين فضل الله، "الحوار في القرآن"، ص229-230 بتصرف.

(2) محمد الغزالي، "المحاور الخمسة للقرآن الكريم"، ص: 89

(...) ونحن نعلم أن الإنسان هو الإنسان، قد يختلف في ريفه وحضره وأميته وثقافته (...)، أما غرائزه فهي هي أصلها ثابت، وقلما يعروها تغيير (...)، إن عُرام الشهوات في هوليود لا يقل عن أمثاله من عشرات القرون في أسواق النخاسة ومواطن البغاء مهما تقدم العلم.

ومخازي الاستعمار، لا تقل عن أمثالها أيام جبروت الأباطرة والفراعنة، وإن لُطِفَت الأسماء، ورقت العناوين"[1]

وفي إشارة لطيفة إلى أزمة الحضارة الحديثة–التي ترى ما فوق القمر ولكنها تعمى عما تحت قدميها، يسوق-رحمه الله-بعض الأمثلة التي تصور فقر الحضارة الحديثة من الناحية القيمية، ثم يقول: "إن العالم يبحث عن "مصل" يأخذه المريض ليبقى صحيح الجسد، معتل الروح والخُلق، معتاداً للتسول الجنسي والشذوذ الهابط! إنه لم يفكر في العلاج من المنبع (...) لقد استبقى هذه الشهوات تمضي في طريق الإثم، واستبقى القوانين التي تحميها (...) إن الارتقاء العلمي لا يُغني فتيلاً عن الارتقاء النفسي، بل إنه سيضاعِف الوسائل المُعِينة على الاسفاف والشرود"[2]، وفي ذات السياق الذي يؤكد على دور القصة في غرس القيم وترسيخها وتزكية النفوس وإصلاحها، يقول الباحث سليمان المشعلي: "تعد القصة من الوسائل الأكثر فعالية في تنمية القيم، وقد استخدمها الرسول ﷺ في تربية وتوجيه أصحابه رضي الله عنهم"[3]، ثم ساق جملة من نصوص الباحثين لتأكيد ذلك، منها: ما ذكره علي خليل أبو العينين من أن القصة: "قادرة على تأكيد الاتجاهات المرغوبة وترسيخ القيم، وذلك عن طريق استثارة مشاركة الإنسان العاطفية لنماذج السلوك والقيم، التي تقوم القصة بتقديمها وللمواقف التي تصورها، وقد كانت القصة القرآنية وسيلة من وسائل التربية وتنمية القيم الإسلامية، وذلك باستخراج العبرة من التجربة السابقة، واستخراج المُثل وشرح طرق

---

(1) نفس المصدر، 89-90 بتصرف.

(2) نفس المصدر، ص91.

(3) سليمان المشعلي، "المضامين التربوية في قصص الأنبياء في سورة هود"، رسالة ماجستير في التربية الإسلامية، ص 111

الخير، والتحذير من الكفر والجحود والجمود"[1]، وكذلك ما أشار إليه سيد طهطاوي بقوله: "والقصة القرآنية يمكن أن تكون عملا تربويا هاما في نشر الاتجاهات والقيم المرغوب فيها، والدعوة إلى الإصلاح، والتحلي بكريم الأخلاق بما لها من أثر عميق وعظيم في نفوس المتعلمين، ولما لها من قدرة على التأثير والتغيير والتوجيه"[2].

انطلاقا مما سبق نتبين مقدار الفوائد التربوية، التي يكتنزها القصص القرآني، والتي تعد مصدرا عظيما لترسيخ القيم التربوية وغرسها في النفوس، وأداة فعالة للتزكية والتوجيه والإصلاح، وتحقيق التنمية الشاملة والاستخلاف الراشد.

المطلب الثالث: في بيان مفهوم الاستخلاف والعمران والعلاقة بينهما.

أولا-في بيان مفهومي الاستخلاف والعمران:

1-مفهوم الاستخلاف: أصل الاستخلاف في اللغة من الجذر (خ ل ف)، وهو يرجع إلى معان منها: مجيء شيء بعدَ شيءٍ يقومُ مقامَه، ومنه الخلَف: العوض عن شيء فائت، ومنه الخلافة. والاستخلاف: جعل الخَلف عن الشّيء، والسين والتاء فيه للتأكيد[3]. وقد ناقش كثير من الباحثين هذا المفهوم مناقشة مستفيضة، ومما خلص إليه عبد الفتاح خياري-بعد مناقشة مفصلة لمفهوم الاستخلاف-: "الاستخلاف هو: قيام الخليفة-وهو الإنسان عامة وليس آدم فقط- بمراد الله في الأرض، الذي يتجلى في تنفيذ أحكامه، وتحقيق الغاية التي من أجلها خلق، وهي عمران الأرض بكل ما يقيم الحياة عليها، لتحقيق مصالح العباد في المعاش والمعاد"[4].

نستفيد مما ذُكر أن الاستخلاف نيابة عن الله تعالى في تنفيذ مراده من منطلق الأمانة التي هي محل السؤال يوم القيامة.

2-مفهوم العمران

---

(1) نفس المصدر، ص 112

(2) نفس المصدر، ص 113

(3) فريدة زمرد، مقال بعنوان: "مفهوم الاستخلاف في القرآن الكريم"، منشور بجريدة ميثاق الرابطة، العدد 238.

(4) عبد الفتاح خياري، "العمران والإنسان المفهوم والدلالة"، ص66.

الإعمار لغة؛ من (عَمَر) يقال: أعمره المكان واستعمره فيه: جعله يَعْمُره، وفي التنزيل: ﴿هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها﴾ [هود: 61]، أي أذن لكم في عمارتها واستخراج قوتكم منها، وجعلكم الله عُمّارَها، واستعمر عباده في الأرض: طلب منهم العمارة فيها[1].

واصطلاحا: جعلُ "الأرض عامرة بالبناء والغرس والزرع، لأن ذلك يعد تعميراً للأرض، حتى سُمي الحرث عمارة، لأن المقصود منه عَمْرُ الأرض"[2]، فهذه المفاهيم تصب جميعا في نفس الاتجاه؛ وهو العمل على حسن استثمار كل الموارد والإمكانات، التي سخرها الله للإنسان في هذه الدنيا، وترشيدها وِفق توجيهات الوحي الحكيم، لتحقيق أعلى مستويات الزيادة والتطوير والبركة، مما يكون سببا في تحقيق مصالح الإنسان وبلوغ سعادته وأمنه وفاءً بأمانة الاستخلاف.

ثانيا-في بيان العلاقة بينهما

يعتبر الاستخلاف من المفاهيم وثيقة الصلة بالعمران أو الإعمار، وقد فصل عبد الفتاح خياري الحديث في هذه المسألة، وخلاصة ما ذكره أن الله تعالى قدر بمشيئته "أن يكون الإنسان مستخلفا في الأرض ليقيم عمرانها، فكرمه وعظمه ورفع من شأنه، وأمر الملائكة بالسجود له، فكانت تلك بداية التقدير له، بجعله محورا لما سيجري على الأرض من أحداث جسام، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: 30]، هنا بدأت القصة، واستمرت حلقات مسلسلها، وانطلقت المهمة الشاقة التي أشفقت منها كثير من المخلوقات التي تبدو-من حيث عظمة الخلقة- أقدر لها من الإنسان، قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ﴾ [الأحزاب: 72]. من يومئذ والإنسان مستخلَف في الأرض، باعتباره سيد المخلوقات، لما أوتي من خصائص وصفات أهلته للقيام بتلك الوظيفة الثقيلة، إن هو استرشد بهدايات المستخلِف سبحانه وتعالى وفقا لنواميس الكون الذي كُلف بعمرانه، (...)

---

(1) مرتضى الزَّبيدي، "تاج العروس من جواهر القاموس"، 129/13.

(2) الطاهر ابن عاشور، "التحرير والتنوير": 108/12.

إذن فالخلافة مقام سامٍ لكنها ذات أعباء ثقيلة لا يجرؤ على حملها إلا الرجال أولوا العزم المخلصون (...)، إن الاستخلاف الإلهي للإنسان في الأرض موضوع عميق الجذور، شديد التشعب، له علاقة وطيدة بالعمران (...) فالإنسان وفقا للمنظور الإسلامي مستخلَف في الأرض لعمارتها وعمرانها، على أسس وقواعد الاستخلاف"[1]. ثم -بعد تعريفه لكل من المفهومين- خلص إلى القول: "يتضح لنا بجلاء أن العمران هو عملية استخلافية، يقوم بها الخليفة على الأرض وفقا لمراد الله تعالى، فيكون العمران بذلك الجانبَ التنزيليَ أو الحركة التطبيقية لمبدأ الاستخلاف من لدن المكلف-الإنسان- لتنفيذ مراد الله سبحانه وتعالى"[2].

المطلب الرابع: في بيان صلة التزكية بالاستخلاف والعمران

مما سبق تتضح الصلة بين التزكية والاستخلاف والعمران، فمحور بعثة الأنبياء تزكية الإنسان، ومدار عملية التزكية إعداد الإنسان المستخلَف، وتأهيله لتحمل أعباء الأمانة العظيمة، وأداء وظيفته الاستخلافية التي أرادها الله منه عندما خلقه، وهي أن يكون خليفة أمينا على ما استخلف عليه، محققا للعبودية الكاملة لله رب العالمين بمفهومها الشامل، وباعتبارها الغاية من خلقه، وكل انحراف عن هذا الخط المستقيم يفضي إلى الإفساد في الأرض بعد إصلاحها، مما يعد خيانة وجريمة ومصادمة لإرادة الله تعالى، فالتزكية أساس الاستخلاف الإيماني الراشد المؤسس على الإيمان بالله تعالى، والسير على صراطه المستقيم، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: 153]، إنه أمر واضح من المستخلِف الحكيم لتوجيه مسار هذا المخلوق المُستخلَف في ممارسته الاستخلافية على ظهر الأرض، حتى لا يزيغ عن الوجهة المرسومة التي تتحقق بها سعادته وفلاحه، وحتى لا يشقى بسبب الانحراف عن منهج الله اللطيف بعباده، ولتحقيق هذا الفوز والفلاح كان مطالبا باتباع منهج الأنبياء، وتزكية نفسه ومجاهدتها حتى تستقيم على طريق الهدى. فكانت الحياة الدنيا المجال الزمني

---

(1) عبد الفتاح خياري، "العمران والإنسان المفهوم والدلالة"، ص60-61 بتصرف

(2) نفس المصدر، ص66

لهذه الممارسة الاستخلافية، وكانت الأرض هي المكان الذي يمارس فيه التكليف بحمل الأمانة، وكان الابتلاء بالتكاليف الثقيلة امتحانا لإرادة هذا الإنسان، الذي أعطاه الله حرية الاختيار وتحديد مصيره مع تحمل المسؤولية الكاملة بعد ذلك، قال سبحانه: ﴿وَنَفس وَمَا سَوَّىٰهَا فَأَلهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقوَىٰهَا قَد أَفلَحَ مَن زَكَّىٰهَا وَقَد خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: 7-10].

إن التدبر للقصص القرآني يعكس تجليات هذه العلاقة بين عملية التزكية والاستخلاف، فعند التأمل والمتابعة لشخصيات القصص القرآني، تتضح لنا تجليات هذه الممارسة الاستخلافية في اتجاهاتها المتقابلة، حيث تصور لنا حلقات القصص القرآني سعي هذا الإنسان وممارسته لإرادته واختياره المرتبط بمسؤوليته، فهو في امتحان وابتلاء، فإما أن يكون محسنا فيما استؤمن عليه وإما أن يكون مسيئا، إما مصلحا أو مفسدا، ومن هنا كان اتباعه لمنهج الله وسيرُه على هدي المرسلين، الذين أُرسلوا لبيان الطريق المنجي والدعوة لتزكية النفوس سبيلا للفلاح والسعادة، وكان انحرافه –بالمقابل- عن هذا المنهج المستقيم سببا لضلاله وانحرافه وشقائه، بعد أن استبان له الطريق وعرف المطلوب منه، قال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَينَـٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: 3]. من هنا نلمح في سياق القصص القرآني مظاهر هذه الممارسة الاستخلافية ببعديها المحمود والمذموم، طريق يمثله الصالحون المصلحون في الأرض أتباع المرسلين، وطريق يمثله المفسدون في الأرض، الذين يحادون الله ورسله وعبادَه المؤمنين، فهذا هو

الاستخلاف الشيطاني الذي يفضي إلى الإفساد في الأرض بما هو ممارسة تدميرية إفسادية مصادمة لمراد الله تعالى التكليفي، فيها اتباع لطريق إبليس، في مقابل الاستخلاف الرباني الذي يفضي إلى الإصلاح والتعمير بما هو ممارسة تعميرية موافقة لمراد الله تعالى ومرضاته، ومن هنا تكون القصة وسيلة فعالة في حصول هذا التزكي لمتدبر القصص القرآني، بحيث تساهم النماذج الإيجابية التي تعرضها القصة -نموذج الإنسان المُزكى، المستقيم المصلح المعمر للأرض بالخير-، وكذلك النماذج السلبية -نموذج الإنسان الذي دسى نفسه وكان سعيه في الأرض في الاتجاه المعاكس لمراد الله تعالى-، يساهم كل ذلك في تزكية الإنسان

بما يحصل له من الاتعاظ والاعتبار بوقائع القصص، وما ينطوي عليه من دروس وتوجيهات تربوية مجسَدة في شخصيات القصة، ومآلات أصحابها في الدنيا والآخرة.

وفيما يلي عرض لبعض الأمثلة من القصص القرآني، تؤكد ما سبقت الإشارة إليه حول مقصد التزكية، في سياق الممارسة الاستخلافية من خلال القصص القرآني.

المبحث الثاني: أساس التزكية في صلاح الممارسة الاستخلافية من خلال القصص القرآني: نماذج وأمثلة.

سنخصص هذا المبحث لعرض نماذج من القصص القرآني، تجلي ما ألمحنا إليه سابقا في الإطار النظري، كالآتي:

المطلب الأول: قصة ابني آدم، قابيل وهابيل

إن تدبر القصة القرآنية كفيل بأن يُبَلغ المتدبر لها الدرسَ التربويَ البليغ، الذي تنطوي عليه، فتتزكى نفسه وتحصل له الموعظة، بما تشخصه القصة من مشاهد حية، تجسد ممارسات استخلافية متباينة لأحوال الناس ومواقفهم المختلفة، العاكسة لمواقفهم الإيمانية فجورا أو تقوى، فيكون التالي للقصص القرآني المتدبر له وجها لوجه، أمام أحداث تنبض بالحياة، فتحصل له العبرة إن استطاع فهم الرسالة واقتناص العبرة منها، ليستفيد منها فيما يصادفه من مواقف الحياة الواقعية.

ومن الأمثلة المجسدة لهذا التقابل بين الممارسة الاستخلافية الراشدة والممارسة الاستخلافية الفاسدة، ما ساقه القرآن الكريم من **قصة ابني آدم**، في تصوير حواري بديع لشخصيتين[1]، كنموذج يُحتذى ونموذج يُرفض، في وضعين متقابلين (...) في حادثة معينة (...) ثم ينطلق الحوار الناطق كلمة بكلمة، والحوار الصامت عملا بعمل، ليعبر عن المعاني التي تجيش في نفس كل منهما إزاء الموقف، ليفتح من خلال ذلك للإنسان الطريق الصحيح لممارسة الحياة. وهو ما حدثنا عنه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ

(1) راجع، محمد حسين فضل الله، "الحوار في القرآن: قواعده-أساليبه-معطياته"، من ص331 إلى333 بتصرف.

بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاء الظَّالِمِينَ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ [المائدة: 27-31].

إن تدبرنا لهذا الحوار القصصي بين الأخوين، يجلي لنا الكثير من الفوائد التي انطوت عليها هذه الممارسة الاستخلافية من الطرفين بما فيها من ابتلاء وممارسة لإرادة الاختيار، وبيانٍ للنتيجة والمآل، فقد انطلقت القصة بمشهد تقريب ابني آدم كل منهما قربانا إلى الله تعالى، أملا في أن يتقبله الله عز وجل، للحصول على رضاه، أو لتحقيق ما يطلبه كل منهما من حاجة، فكانت النتيجة رفض قربان أحدهما وقبول قربان الآخر. ولم يتقبل المرفوض النتيجة الربانية برضا وخضوع، بل واجهها بتمرد واحتجاج اتجه به إلى البغي والعدوان. وهو الأمر الذي سيظهر في حوار المشهد الثاني، فقد بدأ أحدهما -الذي رُفض قربانه- بالتهديد والوعيد لأخيه المؤمن- الذي تقبل الله منه القربان- وقال له لأقتلنك، في لهجة تنضح بالحقد والحسد الذي يتفجر في صدره مثل الحمم، ولم يكن أي مبرر لهذا الموقف منه، لأن النتيجة ليست من صنع أخيه حتى يستحق العقوبة عليها، بل القضية من صنع الله في هذا وذاك، فهو الذي رفض من هذا وتقبل من ذاك، إنه الحسد الذي يواجه فيه الحاسد المحسود من غير ذنب جناه، إلا أن الله أنعم عليه ولم يُنعم على الحاسد.

فماذا كان رد فعل أخيه المؤمن؟ إننا نلمح الوداعة الإيمانية والمشاعر الطاهرة، وملامح السلام في كلامه، وفي رده على تهديدات أخيه له، وهذا السلوك السلمي الرشيد منه تجاه أخيه ينم عن نفس مزكاةٍ وقلب سليم، هو أثرٌ لقوة الإيمان والاستقامة، واستحضارٌ لرقابة الله في كل موقف، وهو ما ظهر جلياً في رده على أخيه حيث قال: ﴿لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة:28]، إنه "موقف اللاعنف" أو "إرادة السلام" الذي يعبر عن نفسه بهذه البساطة الموحية، فهو لم

يواجه موقفه التهديدي بموقف تهديدي مضاد-لأن ردود الفعل في مواطن الغضب لا تكون محمودة، ويغيب معها صوت العقل_ ولأنه لا يؤمن بالمبدأ الذي يدفع الإنسان إلى قتل أخيه الإنسان، قريبا كان أو بعيدا، لمجرد نزوة عارضة أو مزاج انفعالي، بل يؤمن بالمبدأ الذي يعطي للمواقف الحادة فرصة التراجع أمام هدوء الفكر ورحابة الصدر، ثم يحاول أن يربط ذلك كلَه بالإيمان بالله الذي من شأنه أن يحقق للإنسان السلام في الحياة، فالإيمان بالله أساس للتزكية وموجه للسلوك، والمؤمن الموصول بالله تعالى محب للسلام والإصلاح، مدافع لكل أشكال الظلم والفساد، صابر في الضراء وشاكر في السراء، ولذلك كان التعبير عنه بأنه يخاف الله رب العالمين، الذي يطلع على كل أقواله وأفعاله فيحاسبه على كل شيء. وهنا تظهر آثار النفس الزكية والقلب السليم الموصول بالله تعالى، كما يظهر أثر فقه المراقبة في توجيه السلوك وترشيده.

إنها قصة تجلي لنا تجربة الاستخلاف بما يقتضيه من مواجهة الابتلاء الذي ارتبط بوجود الإنسان على هذه الأرض، لقد فشل قابيل في الابتلاء لأنه لم يُسلم أمره إلى الله ولم يرض بحكمه، ولم يحاسب نفسه بمعرفة سبب رفض قربانه، حتى يتوب إلى الله ويزكي نفسه بما هي مفتقرة إليه من لوم واتهام ومحاسبة، بل مال مع هواه، وسيطر عليه الحسد والحقد فأعمى بصيرته، وأوقعه في سوء عمله، حيث سولت له نفسه قتل أخيه فقتله فخان الأمانة باعتدائه على حق أخيه في الحياة، واعتدى على حق الله الذي بيده الموت والحياة، فأصبح من النادمين الخاسرين. وفي المقابل يقدم لنا هابيل الصورة المشرقة، لمن استطاع الثبات في الابتلاء الشديد، وتفضيل الموت على خيانة الأمانة مخالفة لشرع الله.

***القيمة التربوية والعبرة المستفادة:** إن التدبر لأحداث هذه القصة في القرآن الكريم يُوقِفنا على مواطن العبرة التي من شأنها أن تُرَشّد سعينا، وتوجه مسارنا في مواقف الحياة المختلفة، بما تنطوي عليه من مظاهر التجربة الاستخلافية، وما فيها من مواقف الابتلاء والاختبار التي تعرض للإنسان، وبما تُلمحُ إليه أحداثها - المشابهة لكثير من مواقف حياتنا- من دروس تربوية بليغة تشكل زادا نافعا في سلوكنا لطريق الله تعالى، وتزكي نفوسنا وترقيها في مدارج السالكين طريقَ رب العالمين، يقول محمد حسين فضل الله: "إن هذه القصة

القصيرة التي رواها لنا القرآن، تجسد لنا الصورة الحية لشخصية الإنسان الشرير، مقابل شخصية الإنسان الخير، لتربطنا بفكرة الخير، وتبعدنا عن فكرة الشر، في موقف يوحي للناظر والمستمع بفظاعة موقف ذاك(=قابيل) إزاء روعة موقف هذا(=هابيل)، حيث نرى الجريمة خالية من كل مبرراتها التي تجعل منها عملا عادلاً، لأنها نشأت في حالة نفسية معقدة بالحسد. فليس للضحية فيها أي ذنب، بل نجد-في جو الآية- أن الضحية لم تحاول أن تجعل من قبول قربانها ورفض قربان المجرم، أساساً لأي تصرف استعراضي يُسيء إلى كرامته (...) لأن خُلق الأخ المؤمن كان بعيدا عن ذلك كل البعد، ولعل قيمة هذه القصة (...) تتمثل فيما تخلقه في نفس القارئ أو السامع من تأثير نفسي ضد الجريمة والمجرم، وتعاطف مع الضحية، مما يترك آثاره على السلوك الإنساني العام، فيما يريد أن يُقدم عليه من عمل أو يحكم عليه من أعمال الآخرين"[1].

فبهذا التدبر الحكيم لمسيرة الإنسان وسيرته -انحرافا أو استقامة، فجورا أو تقوى- كما حكاها الله تعالى في القصص القرآني، تحصل التزكية للنفوس وتتهذب الطباع على منهج الحق والهدى الذي جاءت به الرسل.

المطلب الثاني: قصة موسى عليه السلام

لما كان القصص القرآني جزءا من القرآن الكريم، فإنه في تقديمه للنماذج البشرية من الأمم السابقة، ورسمه لأحوالهم ومواقفهم، يهدف أيضا إلى تدبرها، من أجل أن "يتجنب المسلمون الوقوع في شَرَك الأسباب، التي تسوق إلى أخطاء تلك الأمم. وإذا أخذنا قصة موسى مع فرعون مثلاً، فإننا نجدها كما يقول الشيخ رضا، ذكرت في القرآن 120 مرة، ولم يكن ذكرها للتسلية، وإنما ذكرت حتى لا يتحول الخلفاء إلى فراعنة، وحتى تعرف الشعوب أيضا أن عبادة غير الله جريمة، وأن الرضا بالذل ستكون عقباه الهوان في الدنيا وفي الآخرة"[2].

---

(1) أنظر، "الحوار في القرآن"، ص334-335

(2) محمد إقبال عروي، "التدبر في القرآن الكريم بين الواجب الإلهي والحق الإنساني"، مقال منشور بمجلة دعوة الحق، عدد343، ص68.

إن قصة موسى عليه السلام بتفاصيلها المثيرة، ومواقفها الكثيرة- كغيرها من القصص القرآني- تجسيد لحقيقة الابتلاء الذي يتعرض له أهل الحق من الأنبياء ومن سار على دربهم، ليكون في قصصهم عبرة لأولي الألباب، وتربية للإنسان وتزكية لنفسه، وتحميله مسؤولية اختيار مصيره بعد أن بلغه الحق وقامت عليه الحجة.

أولاً-موسى عليه السلام ودعوته لفرعون الطاغية أن يتزكى

تصور لنا قصة موسى عليه السلام مع فرعون الطاغية، المدعي للألوهية حواراً يواجه فيه الحقُ الباطلَ، ويقابل فيه أهل الصلاح أهل الفساد، وما يكتنف هذا الصراع من مظاهر الفتنة والابتلاء، ومن مآلات ونهايات متقابلة لكل طرف من الطرفين، ليكون في قصصهم عبرا ودروسا تربوية لمن أراد أن يتذكر ويتزكى.

1) موسى في مواجهة الابتلاء الشديد

لقد طغى فرعون وتعاظم طغيانه حتى ادعى الألوهية لنفسه، ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النازعات: 23-24] فأرسل الله إليه كليمه موسى عليه السلام لتبليغه رسالة الله تعالى، فقال له: ﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ [النازعات: 17]. وأيده سبحانه بالآيات البينات، وأرسل معه أخاه هارون وزيراً، وعلمهما طريقة مجابهة الطغيان بالرفق واللين، والدعوة القوية الهادئة إلى التذكير والخشية، فقال لهما: ﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُولا لَهُ قَوْلا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى قَالا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَى قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: 43-46]. فدخل موسى وهارون على فرعون، وبينا له أنهما رسولان من عند الله، ابتعثهما الله ليخرجا الناس من الظلمات إلى النور، ويرفعا الظلم عن المقهورين والمستضعفين، فقالا: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾ [طه: 47]. وواضح من دعوتهما أنهما يريدان السلام والهدى، وذلك مقصود رسالة الإسلام إلى الناس، ولكنهما

حذراه من عذاب الله إذا لم يقبل بتنفيذ أوامره، حيث قالا: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ [طه: 48].[1]

فقد جمعا في دعوتهما بين أسلوبي الترغيب في الهداية، والترهيب من مآلات العماية والضلال. وفي هذا الموقف ما فيه من مظاهر الابتلاء الشديد الذي يرتبط بتبليغ أمانة الدعوة إلى الله، خصوصا بين يدي طاغية متأله، لكن في ذات الوقت بيان لقوة أهل الحق وصبرهم وثقتهم في معية الله ونصره للمؤمنين، قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾ [غافر: 51]. وقد حاول فرعون في حواره لموسى، أن يُفهم الحاضرين بأن الإله هو من حكم البلاد وسيطر عليها، قائلا لمن حوله: ﴿يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾ [الزخرف: 51]. وهو بهذا المعنى يعد نفسه إلهاً، ﴿وَقَالَ فِرعَونُ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلمَلَأُ مَا عَلِمتُ لَكُم مِّن إِلَـٰهٍ غَيرِي﴾ [القصص: 38]. ثم حاول فرعون إسكات موسى لما رآه يوقظ العقول بقوة منطقه وحسن حديثه وقدرته على الإقناع، متهما إياه بالجنون، ﴿فَقَالَ لَهُۥ فِرعَونُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَـٰمُوسَىٰ مَسحُورا﴾ [الإسراء: 101]. وقد أفحمه موسى إفحاما، فكان فرعون يريد إسكات صوت الحق حتى لا يتبعه الآخرون ويؤمنوا به، فهو في عماية تحجبه عن الانصات لدعوة الحق وتصديقها والإيمان بها، لأن الغرور والاستكبار وظلمة النفس تحول بينه وبين اتباع الهدى، ولذلك كان يلجأ إلى التهديد بقوله: ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذتَ إِلَـٰهًا غَيرِي لَأَجعَلَنَّكَ مِنَ ٱلمَسجُونِينَ﴾ [الشعراء: 29].[2]

2) نتيجة المواجهة بين موسى عليه السلام وفرعون الطاغية

وبعد هذه المواجهات بين فرعون المتكبر المتأله، الذي يمثل نموذج الطغيان في أجلى صوره، وبين موسى عليه السلام الداعية الحكيم الصابر على ظلم فرعون، يخبرنا الله تعالى بنتيجة هذه المواجهة بين أهل الحق وأهل الباطل، بأن العاقبة للمتقين الذين تزكت نفوسهم بتوحيد الله وطاعته والاستقامة على منهجه، وفي المقابل خسران الظالمين

---

(1) راجع بسام رشدي، "مدرسة الأنبياء، عبر وأضواء" ص201 بتصرف

(2) نفس المصدر، من 202-205 بتصرف

المستكبرين وسوء عاقبتهم، بما يحقق الدرس والعبرة من سَوْق القصص وأن العاقبة للتقوى، وأن الله تعالى ينصر عباده وأولياءه في الدنيا والآخرة، وينتقم من الكافرين المكذبين الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون. وقد صورت لنا الآيات البينات النهاية البئيسة المخزية، لهذا الظالم المتجبر حتى يكون عبرة للعالمين، قال تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ [يونس: 90-92].

إن في هذا المشهد الختامي ما فيه من الدروس والعبر، التي تترك في النفس بصماتها العميقة، حيث يدرك المتدبر للقصص القرآني سوء عاقبة الظلم والاستكبار، في مقابل النهاية السعيدة لأهل الحق وعباد الله الصابرين المحتسبين، الذين تزكت نفوسهم بالإيمان والعمل الصالح والإصلاح في الأرض، إن في تدبر مآل الفريقين تزكيةً للنفوس وموعظة للمؤمنين.

ثانياً- موقف السحرة مع فرعون قبل أن تتزكى نفوسهم بالإيمان وبعد تزكيها

ومما يرتبط بالقصة السابقة، ويؤكد تأييد الله للمؤمنين، وأن حجة أهل الحق أقوى مهما كانت قوة الظالمين، موقف السحرة مع فرعون، حيث يصور لنا هذا المشهد القصصي انتصار الإيمان على الكفر، والحق على الباطل، وصبر المؤمنين عند الابتلاء الشديد، وقوة اليقين بموعود الله كثمرة للإيمان باليوم الآخر، والاستهانة بالعذاب والتهديد والوعيد، كل هذه الدروس التربوية التي تتزكى بها النفوس المؤمنة المتدبرة للقصص القرآني، نجدها جلية واضحة في هذه المواجهة بين فرعون والسحرة، وكيف تغير موقفهم تغيرا كاملا من الكفر بالله إلى الإيمان به، ومن الإيمان بفرعون إلى الكفر به.

فقد جاء بهم فرعون ليتحدى المعجزة الإلهية، التي وعد موسى بها دليلا على صدق رسالته، ومَنىَ فرعونُ السحرة بالوعود المعسولة على عملهم ونجاحهم، فجاؤوا وألقوا ما عندهم من سحر عظيم، وجاء دور موسى بعد ذلك فألقى عصاه فإذا هي أفعى تلقف ما

يأفكون، فما كان منهم إلا أن آمنوا بموسى لأنهم وجدوا أن ذلك ليس من قبيل السحر، بل هو شيء فوق ذلك كله، مما لم يألفوه ولم يعرفوا له مثيلاً في كل ما شاهدوه من أساليب السحر، فعرفوا أن ذلك من الله سبحانه، لا من موسى عليه السلام، فانفتحوا على الإيمان بكل قوة وخشوع وإقبال، وهال هذا الأمرُ فرعونَ واعتبر ذلك مؤامرة مدبرة ضده، ورفض أن يصدّق أن القضية قضية إيمان صادق، ينبعث من مواجهتهم للحجة الواضحة والبرهان القوي، (...) فبدأت حرب الأعصاب، بالتهديد بالعذاب وقطع الأيدي والأرجل والصلب، ليتراجعوا، فلم يتراجعوا وواجهوه بالإيمان القوي الصامد الذي لا يتزلزل ولا ينهار ولا يتراجع أمام كل أساليب التهويل والتهديد، فكان موقفهم من أسمى المواقف التي تجسد الثبات على العقيدة أمام قوى الكفر والطغيان حتى الموت[1].

إنه موقف بطولي خالد لأهل الإيمان في مواجهة أهل الباطل، موقف يصور لنا أثر الإيمان بالله واليوم الآخر في تزكية النفس واستقامتها، وفعاليتها في مواجهة الكفر، والصبر على البلاء الشديد، في مقابل موقف فرعون الظالم المتجبر، ضعيف الحجة والبرهان العاجز عن مقارعة الحجة بالحجة، المائل مع أهواء النفس الأمارة بالسوء، مما يجعل من هذا الحوار القصصي عبرة تتزكى بها النفوس، وتتوب إلى الله الذي إليه عاقبة الأمور.

وقد صور لنا القرآن الكريم هذا الموقف المشحون بالدروس والعبر، في هذا المقطع القصصي البليغ: ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُواْ إِنَّ لَنَا لأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ قَالُواْ يَا مُوسَى إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ قَالَ أَلْقُواْ فَلَمَّا أَلْقَوْاْ سَحَرُواْ أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاؤُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَانقَلَبُواْ صَاغِرِينَ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ قَالُواْ آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَن آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لأُقَطِّعَنَّ

---

(1) راجع، "الحوار في القرآن"، ص280-281 بتصرف

أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ قَالُواْ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: 113-126].

ومن أهم الدروس والعبر المستفادة من هذا الموقف:

1) الإيمان الراسخ لا يزعزعه شيء.

فقضية الإيمان لا تتوقف على الإذن الفرعوني، وأن الإيمان إذا دخل القلب، لا يملك أحد نزعه، ومهما تعرض المؤمن للتعذيب في سبيل إيمانه فإنه يواجه ذلك بالصبر على البلاء[1]، وهذا ما جعل السحرة - الذين كانوا بالأمس قبل دخول الإيمان قلوبَهم وحصول التغيير العجيب فيها، يسألون فرعون عن المكافأة والعطاء الجزيل، إن كانوا هم الغالبين- جعلهم بعد الإيمان يقولون: ﴿قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه: 72-73]. لقد أثمر الإيمان الراسخ في نفوسهم قوة وصمودا، جعلهم يستهينون بالتهديد والوعيد المحدود بحدود الدنيا الفانية، طمعا في وعد أكيد من رب كريم لا يخلف وعده، إنه موقف المؤمن الذي وفى بأمانة الاستخلاف.

2) النصر للأعلى لا لمن استعلى

إن فرعون تولى فجمع كيده ثم أتى، وقال للسحرة في تكبر وغرور: اجمعوا كيدكم ثم أتوا صفا وقد أفلح اليوم من استعلى، وقد استرهبت السحرة الناس بسحرهم وجاءوا بسحر عظيم، وخيل إلى موسى أنهم فتنوا الناس بسحرهم وظن أن حبالهم تسعى، وأوجس في نفسه خيفة. لكن لما تجلى الموقف كان النصر للحق، وزهق الباطل، إذ إن النصر دائما للأعلى-الذي يكون في معية الله متوكلا عليه- لا لمن استعلى.[2]

إن التكبر والغرور الذي ملأ نفس فرعون، دفعا به إلى التجبر والطغيان، وانتهاك حقوق الإنسان واستعباده، فجعل من القوة والسلطان وسيلة للظلم وادعاء الربوبية

---

(1) راجع، بسام رشدي، "مدرسة الأنبياء"، ص214

(2) نفس المصدر، ص215

والألوهية، فمات ضعيفا عاجزا، ليكون لمن خلفه آية. وإن الإيمان بالله الواحد الأحد هو أساس التزكية والاستقامة على الخط المستقيم، حيث يبقى المؤمن موصولاً بربه، يلتزم أمره ويستجلب رحمته وتوفيقه، ويصبر على البلاء ليقينه أن عاقبة الصبر محمودة، وعاقبة الظلم أن مصيره إلى زوال.

فمن سنن الله في الخلق والحضارات أن العاقبة دائماً وأبداً لأهل الحق والتقوى، لا لمن تجبر واستقوى، قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ [طه: 132]، أي: وحسن العاقبة في الدنيا والآخرة، وهي الجنة، لمن اتقى الله.

ثالثاً-قصة قارون وفتنة المال

إن من الفتن المهلكة التي يُبتلى بها الإنسان في الحياة الدنيا، حتى يُصاب بالغرور والطغيان فتنة المال، ومن المبادئ القرآنية الثابتة التي جاءت بها الشريعة الإسلامية، والتي تؤطر علاقة الإنسان بالمال، مبدأ الاستخلاف في المال، أي أن المال مال الله والإنسان مستخلف فيه، والمال أمانة ووديعة بين يدي صاحبه، امتحنه الله به، ووجهه إلى حسن توظيفه فيما يتوافق مع إرادة الله المالك الحق، وأمره بالإنفاق منه في وجوه الخير، وحذره من استعماله في معصية الله وظلم الناس، قال تعالى: ﴿ وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ [النور: 33]. وقال سبحانه: ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الحديد: 7].

وهذه القصة تجلي كيف تضيع أمانة الاستخلاف في المال ويشتد الابتلاء بها:

1) ابتلاء قارون بالمال الكثير وأثرُ ذلك في سلوكه وسعيه

كان قارون من قوم موسى من بني إسرائيل، وقد آتاه الله بسطة في العيش، وكثرة في الأموال، حتى إن خزائنه قد فاضت بالأموال، وصار رمزا للغنى الفاحش، وقد دفعه ذلك إلى الغرور، وأفضى به إلى البغي والتجبر بماله، وهو ما أشارت إليه الآيات البينات: ﴿إِنَّ قَارُونَ

كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾ [القصص: 76].

وقد سار قارون في ركب المتجبرين الظالمين بتكذيب موسى عليه السلام، ذلك أن فتنة المال والسلطة والمنصب تتحد في مجابهة الحق، لأنه يُذكرها بالله وضرورة الامتثال لأمره والاستقامة على طريقه، الأمر الذي يتعارض مع أهوائهم وإخلادهم إلى الأرض وركونهم إلى الدنيا، قال تعالى: ﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ﴾ [العنكبوت: 39]. وقال أيضا: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: 23-24].

2) مواقف القوم من قارون المغتر بماله

لقد شكلت سلوكيات قارون فتنة كبيرة لبعض القوم، بما كان عليه من ترف وسرف وسوء التعامل مع نعم الله، فكان من الكافرين ولم يكن من الشاكرين، وقد وقف القوم منه موقفين، كل منهما يعبر فيه أصحابه عن قناعاتهم الإيمانية، وتصوراتهم للأمانة والمسؤولية حفظا أو خيانة:

1. موقف النصيحة والتذكير.

فهؤلاء وجهوا له النصح بألا يفرح بمتاع الحياة الدنيا، وأن يُسخر ما آتاه الله من أموال وكنوز في سبيل الله، وألا يستخدم غناه للإفساد في الأرض، وأن يقابل إحسان الله إليه بالإحسان إلى العباد، ففي ذلك شكرٌ للنعم واستجلابٌ للمزيد، وإلى ذلك الإشارة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: 76-77].

2. موقف المغترين بغنى قارون.

الذين اغتروا بما رأوا من زينة قارون وكثرة أمواله، تمنوا أن يكون لهم كما لقارون، غافلين عن حقيقة الابتلاء، وأن المال مجرد امتحان للعبد، قال تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [القصص: 79]. وفي هذا إشارة إلى أثر الغفلة عن الآخرة باعتبارها دار الجزاء، وأنها الحياة الحقيقية مقارنة مع هذه الحياة الفانية، دار الغرور. وهنا يتدخل المؤمنون الذين قدموا النصيحة لقارون، للقيام بنفس الدور مع هؤلاء المغترين وتوجيههم إلى ما وعدهم الله في الآخرة، قال سبحانه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ﴾ [القصص: 80].

3)مآل قارون وعاقبته السيئة وما فيها من موعظة وتزكية للنفوس.

من سنة الله في الخلق إهلاك الظالمين بعد إقامة الحجة عليهم، وإعطائهم الفرصة الكاملة للتوبة والتزكي بدعوة المرسلين، فكانت نهاية قارون المخزية تأكيدا لهذه السنة الإلهية، وتزكية للنفوس بما تضمنته من دروس وعبر، وبما أن قارون كان من المستكبرين، ورفض النصح والتزكي والتوبة إلى الله، كما رفض أداء حق الله في المال الذي آتاه إياه ابتلاء، فرد عليهم في غرور: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي﴾ [القصص: 78]. فلما أنكر فضل الله عليه، ولم يرد الفضل إلى صاحبه، مدعيا أن ذلك من عنده ومن صنع يده ولا فضل لأحد عليه، ذكره الله بسنة الإهلاك فيمن مضى ممن كانوا مثله إنكارا، بل أقوى منه وأغنى، لعله يتوب ويرجع، ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: 78]. لكنه لم يتعظ ولم يتزكى بهذا التذكير، فخسر في هذا الابتلاء، وسَلب منه المالك الحق كل ما استخلفه عليه، لأنه لم يكن من الشاكرين، بل كان من الكافرين الجاحدين، قال تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾ [القصص: 81].

4)حدث إهلاك قارون تزكية لنفوس الذين اغتروا بغناه من قبل.

لقد كان في إهلاكه درسا عظيما لأولئك الذين اغتروا به من قبل، وتزكية لنفوسهم بأن ما عند الله باقٍ، وأن الإنسان ممتحن في هذه الدنيا، وهو ما أكدته الآيات التالية: ﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [القصص: 82].

وبعد أن ذكر الله قصة قارون، ذكّر الخلق بالدرس والعبرة التي بها تتزكى النفوس المؤمنة، فيزيد يقينها في الله تعالى، وتتوب النفوس المترددة فيستقر إيمانها ويزيد يقينها، وذلك أن العاقبة الحسنة دائما للمتقين، وأن سوء العاقبة للمفسدين الكافرين، وإلى ذلك الإشارة في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [القصص: 83-84].

المطلب الثالث: قصة طالوت الملك مع قومه وفتنة الشرب من النهر

هذه القصة من قصص أحد الأنبياء مع قومه من بني إسرائيل، حيث جاء هؤلاء القوم لنبيهم هذا يطلبون منه أن يبعث لهم ملكا يقاتل في سبيل الله ليقاتلوا معه، فهم جنود الله الذين يفتشون عن القائد.

وكان هذا النبي في شك من جدية هذا الطلب، فقال لهم إنه يخشى ألا يستجيبوا للقتال إذا فُرض عليهم، وأعلنوا-في جوابهم له-تصميمهم على القتال، وبينوا واقع الاضطهاد الذي تعرضوا له، من إخراج الظالمين لهم من ديارهم وأهاليهم، مما يجعل من قضية القتال، قضية ترتبط بالذات من جهة وبالعقيدة من جهة أخرى.

وبدأت التجربة الاستخلافية بابتلاء للتمحيص: فقد عين النبي القائدَ، وأوضح لهم أن التعيين من الله لا منه، ولم يُخفوا اعتراضهم على ذلك القائد المعين، لأنهم لا يحسبونه أهلاً للقيادة لعدم تمتعه بالقدرة المالية، التي يعتبرونها أساسا للمُلك والقيادة، فحاورهم النبي ليؤكد لهم شروط ومعايير ترشيحه لهذه المسؤولية، وهي **الكفاءة** والمتمثلة في قوة الجسم والعلم.

الابتلاء بعدم الشرب من النهر إلا غَرفة: انطلق طالوت ومضى معه جنوده، وبدأت التجربة بين القائد وجنوده، فقد أعلن لهم بأن الله قد ابتلاهم وامتحنهم ليختبر انقيادهم بالنهر، الذي يمرون منه فلا يشربون منه إلا بمقدار غَرفة مهما بلغ عطشهم. وسقط الأكثرون في الامتحان، ووهنت عزائمهم، ودب الضعف فيهم، وصبر المؤمنون المخلصون، ليكون النصر لهم في نهاية المطاف[1].

المستفاد من القصة: أن قضية النصر والهزيمة ليست بالقلة والكثرة، بل على قدر زكاة النفوس بصدق الإيمان والطاعة للقائد والأخذ بالتخطيط والمتاح من أسباب القوة، واليقين في نصر الله تعالى، وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: 249].

الاستعانة بالله العلي القدير: حيث يبقى المؤمن المجاهد في موقف الاستعانة بالله والشعور الدائم بالافتقار إليه، فيما يحصل عليه من قوة، وما يحتاجه من الصبر والثبات، لاعتقاده بأن النصر من عند الله، فلا يغتر بقوته كما هو حال المتجبرين[2].

وقد صور لنا القرآن هذه القصة البليغة في الآيات التالية، قال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُواْ قَالُواْ وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوَاْ أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاء وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلآئِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ

(1) راجع، "الحوار في القرآن"، ص336-337 بتصرف

(2) نفس المصدر، ص338 بتصرف

مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ قَالُواْ لاَ طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُواْ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: 246-251].

إنها قصة ترصد لنا مظاهر الممارسة الاستخلافية في اتجاهين متقابلين، اتجاه من تزكت نفوسهم بالإيمان وتزينت بالتقوى، فكانت الثمار استقامة في السلوك ورشدا في السعي، في مقابل من تدست نفوسهم وغرتهم العاجلة، ورجحوا لذة فانية عن اللذات الباقية، فرسبوا في محك الابتلاء، وكانوا من الخاسرين. قصة زاخرة بمواقف تجسد تدافع المبادئ والقيم، بين المؤمن القوي بإيمانه ومعنوياته العالية، التي تتجاوز كل العوائق والمحن عندما يتزكى بالصبر والتوكل والاستعانة بالله العلي القدير، فيسمو فوق كل الأهواء والشهوات الزائلة، ليقينه أن ما عند الله خير وأبقى، فيؤثر الآخرة على العاجلة، فهذا الصنف هو الذي يفلح في الامتحان، ويخرج من التجربة الابتلائية منتصرا، أما الصنف المقابل فهو الذي يسقط في تجربة الابتلاء لأنه أخلد إلى الأرض ورضي بالعاجلة فتكبل بسلاسل الدنيا وزينتها، ففشل في الامتحان ورضي بالأدنى دون الأسمى وبالفاني دون الأبقى. إنها مواقف ترصد لنا طبيعة النفس البشرية بما فيها من خير وشر، كما تنبهنا إلى حرية الإنسان وتحمله مسؤولية اختياره في اتجاهين متباينين، أحدهما يمثل التزكي والفلاح، والآخر يمثل التدسي والخسران، لقوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا، قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس: 7-10].

خاتمـة

إن ما عرضناه من نماذج في هذا السياق لا يعدو أن يكون مجرد أمثلة للبيان والتوضيح لأثر التزكية واستقامة النفس على طريق التقوى في بناء الإنسان المستخلف المدرك لمسؤوليته، والوفي للأمانة التي امتحن بحملها.

وإن كتاب الله عز وجل حافل بالكثير من النماذج الرسالية التي يزخر بها القصص القرآني، مواقف تجسد بوضوح الممارسات الاستخلافية في اتجاهين متقابلين يمثلان الحق والباطل، والإصلاح والإفساد، والفلاح والخسران، ساقها الوحي الإلهي لتكون منارات في طريق السالكين سبيلَ الهدى، تحمل في طياتها دروساً للسائلين، وعبرةً وموعظة للمؤمنين.

وقد خلص هذا البحث إلى جملة من النتائج نجملها في الآتي:

1- التأكيد على **مركزية مقصد التزكية وصلته الوطيدة بمقصد الاستخلاف** في الأرض باعتباره أمانة عظمى طُلِب من الإنسان الوفاء بها، كما يُبرز مكانة التزكية باعتبارها عملية تأهيلية لهذا الإنسان لابد منها لتحقيق فلاحه، والنجاة من الخسران، ولذلك كانت من أعظم مقاصد بعثة جميع الأنبياء والمرسلين عليهم السلام.

2- التأكيد على **ثبوت مسؤولية الإنسان عن كل أعماله** في هذه الدنيا، وأنه لا أحد يتحمل عنه تبعات سعيه، إذ ليس للإنسان إلا ما سعى، وأن سعيه سوف يُرى ثم يُجزاه الجزاء الأوفى.

3- التأكيد على **الأهمية القصوى لتدبر القصص القرآني**، لكونه يمثل تجربة واقعية لتاريخ البشرية عبر مسارها الطويل، بما فيها من رصد دقيق لقصة النفس البشرية خلال سعيها الاستخلافي على وجه هذه الأرض، سعيٌ في اتجاهين متقابلين: اتجاه التزكية المفضي إلى الفلاح، واتجاه التدسية المفضي إلى الخسران، حيث يمثل كل منهما ممارسة استخلافية لها منطلقاتها المبررةُ لتصرفاتها السلوكيةِ، والمعبرةُ عن إرادتها واختيارها. وفي تدبر كلا المصيرين فرصة للاعتبار والاتعاظ والتزكي.

4- التأكيد على **الطبيعة الابتلائية للأمانة** باعتبارها قيمة مركزية مؤطرة لسلوك الإنسان خلال سعيه الاستخلافي، ذلك أن وفاءه بأعباء الاستخلاف، ونجاحه في هذه الدنيا يتطلب منه خوض معارك مريرة كلها ابتلاءات وامتحانات للنفس، لا نجاح له فيها إلا بالتزود بزاد التقوى، وتزكية النفس بالفضائل المنجية العاصمة له من الزلل.

5- من الحقائق القرآنية الثابتة والتي لا تتخلف، أن تحقق وعد الله بالاستخلاف رهين بتزكية النفس وإعدادها لهذه الأمانة الجسيمة والمسؤولية العظيمة، فالتزكية أساس الاستخلاف الإيماني وشرط تحققه، ومن تم لا فوز بوعد الله بالاستخلاف، إلا بعد تحقق شروطه من الإيمان بالله والعمل الصالح، فبذلك فقط يبلغ العبد أقصى درجات السعادة في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: 97].

6- إن تحقيق التنمية والعمران كيفما كان حجمه، إذا لم يتأسس على بناء النفوس وتزكيتها بالأخلاق الحميدة والقيم السامية، أنتج الفساد والظلم والطغيان، وآل إلى استعباد الإنسان، لأن **تأهيل النفوس وإكسابها أخلاق الأمانة وقدرات القوة هو أساس إقامة العمران الرشيد المحقق لسعادة الدارين**، وهو قطب الرحى في أي حركة تنموية، ومن هنا كان بناء الإنسان أساس كل تقدم وعمران.

لائحة المصادر والمراجع:

1. محمد بن إسماعيل البخاري، **"صحيح البخاري"**، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة- ط1، السنة 1422هـ.
2. مسلم أبو الحسين بن الحجاج: **"صحيح مسلم"**، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
3. أبو بكر البيهقي، **"السنن الكبرى"** تح: محمد عبد القادر عطا- دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان، ط/3، 2003م.
4. جمال الدين ابن منظور، **"لسان العرب"**، دار صادر–بيروت، ط.3. سنة 1414هـ.

5. مجمع اللغة العربية بالقاهرة، مجموعة من المؤلفين، **"المعجم الوسيط"**، دار الدعوة.
6. تقي الدين ابن تيمية، **"مجموع الفتاوى"**، تحقيق: أنور الباز- عامر الجزار، دار الوفاء، ط/3، 2005م.
7. أبو عبد الله محمد الرازي، "**مختار الصحاح"**، تح: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية-الدار النموذجية، بيروت-صيدا، ط5، السنة: 1999.
8. مرتضى الزَّبيدي، **"تاج العروس من جواهر القاموس"**، وزارة الإرشاد والأنباء في الكويت-المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بدولة الكويت، سنوات النشر(1965و2001).
9. محمد الغزالي، **"المحاور الخمسة للقرآن الكريم"**، دار الشروق، ط.4، السنة: 2010.
10. أبو الفضل الألوسي، **"روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني"** - دار إحياء التراث العربي - بيروت.
11. فخر الدين الرازي، **"مفاتيح الغيب" أو التفسير الكبير**، دار إحياء التراث العربي-بيروت، ط.3، 1420هـ.
12. مناع القطان، **"مباحث في علوم القرآن"**، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة 1421هـ- 2000م.
13. سليمان المشعلي، "**المضامين التربوية في قصص الأنبياء في سورة هود"**، رسالة ماجستير في التربية الإسلامية، كلية العلوم الاجتماعية، الرياض-السعودية، موسم: 1430-1431هـ.
14. الطاهر بن عاشور، "**التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»"**، الدار التونسية للنشر - تونس، السنة 1984م.
15. أنس كرزون، **"منهج الإسلام في تزكية النفس وأثره في الدعوة إلى الله تعالى"**، دار نور المكتبات، جدة-السعودية، ودار ابن حزم، بيروت لبنان، الطبعة الرابعة2007 م.
16. محمد عز الدين توفيق، **"التأصيل الإسلامي للدراسات النفسية"**، دار السلام، الطبعة2، السنة 2002 م.

17. ابن قيم الجوزية، **"الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي"** - دار الكتب العلمية – بيروت.
18. عبد المجيد النجار، **"قيمة الإنسان"**، دار الزيتونة للنشر، الرباط -المغرب، الطبعة الأولى، سنة 1996.
19. عائشة عبد الرحمن، **"القرآن وقضايا الإنسان"**، النشر: دار المعارف، القاهرة.
20. محب الدين أبو صالح، **"التربية الإسلامية عند العلامة أبي الحسن الندوي"**، دار ابن كثير- دمشق، ط1، السنة: 2002م.
21. ابن قيم الجوزية، **"مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين"**، تح: محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي-بيروت، ط.3، السنة 1996.
22. أبو إسحاق الشاطبي، **"الموافقات في أحكام الشريعة"**، تحقيق عبد الله دراز - دار المعرفة - بيروت.
23. محمد بسام رشدي الزين، **"مدرسة الأنبياء عبر وأضواء"**، دار الفكر دمشق، سنة 2000 م.
24. محمد حسين فضل الله، **"الحوار في القرآن-قواعده-أساليبه-معطياته"**، دار الملاك، ط.5 السنة: 1996.
25. خياري عبد الفتاح، **"العمران والإنسان المفهوم والدلالة"**، الدار المغربية للنشر والتوزيع، ط. 1، السنة 2023م.
26. محمد إقبال عروي، **"التدبر في القرآن الكريم بين الواجب الإلهي والحق الإنساني"**، دعوة الحق، عدد343، مايو 1999م.

سنن التغيير في القصص القرآني

وأهميتها في ترشيد الممارسة الاستخلافية.

د. عبد الفتاح محفوظ.

أستاذ باحث في التربية والدراسات الإسلامية

مشرف تربوي في التربية الإسلامية بالتعليم الثانوي

مقدمـــة

إن للقصة القرآنية مقاصد تربوية جليلة؛ فهي تعد أداة فريدة للتربية، وعنصرا فعالا لتوجيه وإرشاد الإنسان إلى الهداية، حيث إن ذِكرها في القرآن الكريم، ليس لمجرد التسلية والترفيه والاطلاع على الأخبار التاريخية، وقصص الأمم الغابرة، ولذلك نَبّه القرآن الكريم إلى التأمل في معاني القصص ودروسها وعبرها، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[يوسف: 111]، وقال تعالى: ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[سورة الأعراف:176].

ولعل من بين أبرز تجليات الإفادة التربوية من القصة القرآنية، الكشف عن السنن الربانية وإدراك أسرارها، وآليات عملها في حياة الأفراد والمجتمعات والأمم، واستجلاء أثرها في

تحقيق مبدأ الاستخلاف في الأرض، الذي يعد مقصدا من مقاصد خلق الإنسان وتكليفه في هذه الحياة الدنيوية.

وعلى الرغم من أهمية هذا الموضوع، وفوائده في فقه السنن الإلهية في القصص القرآني، فإنه لم يلق العناية اللازمة من لدن المهتمين والباحثين في الدراسات القرآنية، باستثناء بعض الدراسات والبحوث القليلة التي قاربت بعض جوانبه، ولم تتعمق وتخوض في تفاصيله وجزئياته.

ومن هنا تأتي هذه الورقة العلمية لاستجلاء معرفة السنن الإلهية، وبيان أهميتها وفائدتها وأثرها في ترشيد الممارسة الاستخلافية، على اعتبار أن الإنسان خليفة الله في أرضه لقول الله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة:30]. وإذا كانت هذه الورقة العلمية محدودة الأفق لاستقصاء موضوع السنن؛ نظرا لترامي أطرافه وعناصره ومباحثه، فسنقتصر بحول الله تعالى على سنة من السنن الإلهية المركزية، وهي سنة التغيير التي تعد من السنن الربانية الثابتة التي لا تحيد ولا تتخلف ولا تحابي أحدا، فإذا توفرت أسباب ودواعي التغيير كيفما كان اتجاهه سواء إلى الخير أو الشر، فالنتائج تليه وتتبعه لا محالة، ودليل ذلك قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ [الرعد: 11].

فالفكرة الجوهرية التي ننطلق منها في هذه الورقة البحثية؛ هي بيان السنن المستنبطة من القصص القرآني، التي يمكن التوسل بها من أجل إحداث التغيير المجتمعي المنشود، كسنة الله في الهدى والضلال، وسنة الله في الرزق، وسنة الله في السعادة والشقاوة، وغيرها من السنن الأخرى المبثوثة في ثنايا القصص القرآني، واستجلاء أثرها في تحقيق مبدأ الاستخلاف في الأرض.

أولا: إشكالية البحث.

تعد القصة القرآنية رافدا مهما لمعرفة السنن الربانية في تغيير الأفراد والمجتمعات، وكذا في تحقيق مبدأ الاستخلاف الذي يعد مقصدا رئيسا لمقاصد الشريعة من الخلق، لقوله

تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة:30]، وعلى هذا الأساس فالإشكال الذي ينطلق منه هذا الموضوع، يمكن صوغه ضمن السؤال المركب الآتي: ما الأبعاد الاستخلافية للسنن الإلهية في التغيير المتضمنة في القصص القرآني؟ أو بعبارة أخرى كيف تسهم سنن التغيير الواردة في القصص القرآني في ترشيد الممارسة الاستخلافية؟

ثانيا: أهداف البحث.

يروم هذا البحث استيفاء الأهداف الآتية:

1-بيان السياق الاصطلاحي المؤطر للدراسة.

2-استجلاء أمثلة وشواهد للسنن الإلهية في التغيير من خلال القصص القرآني.

3-رصد معالم وأبعاد معرفة سنن التغيير في ترشيد الفعل الاستخلافي.

ثالثا: منهج البحث.

سيعتمد هذا البحث على المنهج الاستقرائي التحليلي، الذي يقوم على رصد وجمع بعض سنن التغيير التي وردت في القصص القرآني، ثم استنباط وتحليل أثرها في الفعل الاستخلافي؛ قصد الوصول إلى نتائج البحث.

رابعا: الدراسات السابقة.

حظي موضوع السنن الإلهية في التغيير في القرآن الكريم، باهتمام كبير من لدن الباحثين في الدراسات القرآنية، لكن دراسة أبعاد هذه السنن العملية؛ سواء من خلال القصص القرآني أو غير ذلك، لم تلق عناية كبيرة، كما أشرنا إلى ذلك في مقدمة هذا البحث، إلا إذا استثنينا بعض الدراسات التي رامت دراسة أثر معرفة السنن الإلهية في تحقيق الخيرية للأمة، وفي ترشيد الفعل الحضاري اللائق بها، وسأذكر هنا بعض السوابق البحثية لهذا الموضوع، ثم أثني بالإضافة المعرفية والعلمية للموضوع الذي نحن بصدده:

1-**"السنن الاجتماعية في القرآن الكريم" للدكتور محمد السيسي**، هذا الكتاب تعرض فيه الباحث إلى مفهوم السنن الاجتماعية من خلال القرآن الكريم وأصنافها، كما تحدث عن أثر إعمالها في تحقيق الإصلاح الاجتماعي، وذكر أن من بين هذه السنن سنن التغيير

والتحويل، إلا أنه لم يستفض في شرحها وبيان كيفية إعمالها، واقتصر على التمثيل بها في سياق التوضيح والبيان.

2-**"سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها"، للدكتور محمد هيشور،** وهو من منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، تطرق فيه إلى معنى السنن ومفهوم الحضارة كما يصورها القرآن الكريم، وسنن القرآن الكريم في قيام وسقوط الحضارات، كما تناول بالدراسة والبحث سنن التجديد والاستبدال الحضاري في القرآن الكريم.

3- **"أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق"**، للدكتور أحمد محمد كنعان، تعرض فيه صاحبه إلى عدة سنن إلهية في القرآن الكريم، وذكر منها سنة التغيير الاجتماعي، التي أرشدنا القرآن الكريم إلى التقيد بها وفقهها؛ لأهميتها وفائدتها في حياتنا.

والحاصل أن الإضافة العلمية التي تنشد في هذا الموضوع، تتمثل في دراسة أبعاد السنن الإلهية في التغيير، الواردة في القصص القرآني في ترشيد الممارسة الاستخلافية في الأرض، وأن فقه تلك السنن ركيزة أساسية في السعي إلى تغيير الأفراد والجماعات وهدايتهم إلى سبل الرشاد.

خامسا: خطة البحث.

وقد وزعت خطة البحث إلى **مقدمة، وأربعة مباحث، وخاتمة**:

اشتملت المقدمة على إشكالية البحث وأهميته، والمنهج المعتمد فيه، والدراسات السابقة.

أما **المباحث**، فهي كما يلي:

المبحث التمهيدي: سأتطرق فيه إلى بيان المراد بـ «السنن الإلهية» و«التغيير» في القرآن الكريم.

المبحث الثاني: سأتناول فيه أساليب القرآن الكريم في بيان السنن، وأركز على القصص القرآني الذي يعد من أهم مظان وروافد السنن الإلهية خاصة سنة التغيير.

المبحث الثالث: فيه حديث عن ملامح ومعالم سنن التغيير في القصص القرآني، وفيه جملة من الشواهد القرآنية التوضيحية المستقاة من مجموعة من القصص القرآني.

المبحث الرابع: سيتعرض لكيفية الإفادة من السنن الإلهية الواردة في القصص القرآني في درك وتحقيق التغيير المنشود.

خاتمة: تتضمن أهم الخلاصات والاستنتاجات التي خرج بها البحث، كما ستشمل توصيات لها علاقة وصلة ببحثنا هذا.

المبحث الأول: تعريف سنن التغيير لغة واصطلاحا.

سنن التغيير مركب إضافي، يتألف من:

1-سنن، جمع سنة، ومن معانيها في اللغة الطريقة مُرضية كانت أو غير مُرضية [1]، يقال سن سنة حسنة، أي طريقة حسنة، وسن الله سنة أي طريقا قويما، ومنه قوله ﷺ: «مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، كَانَ لَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْتَقِصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ من عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْتَقِصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْئًا»[2].

أما السنة في الاصطلاح فقد عرِّفت بعدة تعاريف:

عرفها الراغب الأصفهاني بقوله: "سنة الله تعالى قد تقال: لطريقة حكمته وطريقة طاعته"[3].

وقيل إنها: "ما سنه الله في الأمم من وقائع، فقوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران: 137] أي: قد خلت من قبل زمانكم وقائع سنها الله في الأمم المكذبة، وأصل السنن: جمع سنة، وهي: الطريقة المستقيمة"[4].

---

(1) انظر: تاج العروس، مرتضى الزَّبيدي، ج35، ص230، والتعريفات، الجرجاني، ص122.

(2) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة، رقم الحديث 1017، ج2، ص704.

(3) مفردات القرآن الكريم، الراغب الأصفهاني، ج1، ص429.

(4) فتح القدير، الشوكاني، ج1، ص 439. -بتصرف-.

وعُرفت بأنها: "منهج الله -عز وجل- في تسيير هذا الكون، وعمارته، وحكمه، وعادة الله -عز وجل- في سير الحياة الإنسانية، وعادته في إثابة الطائعين وعقاب المخالفين طبق قضائه الأزلي على مقتضى حكمته وعدله"[1].

وعرفها الدكتور رمضان خميس بقوله: "السنة هي القانون الضابط المهيمن، والفعل النافذ الحاكم الذي يجري باطراد وثبات وعموم وشمول، مرتبا على سلوك البشر"[2].

كما عرفها أحدهم بقوله إنها: "أمر أو تصرف يهيأ أو يقصد به أو يصلح للاستمرار عليه والعمل به... ومنه قول الله تعالى: ﴿سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء: 77] [3].

ومن هنا يتضح أن من معاني السنة الطريقة، فإذا أضيف إليها لفظ الجلالة لتصبح سنة الله، صار معناها طريقة الله عز وجل، أي: "طريقته سبحانه في تسيير أمور الكون، وفق قانون عام فيه معنى التماثل في النتائج إذا تماثلت المقدمات"[4].

ولذلك عرف الدكتور عبد الكريم زيدان السنن الإلهية بقوله إنها: "الطريقة المتبعة في معاملة الله -عز وجل- للبشر، بناء على سلوكهم وأفعالهم وموقفهم من شرع الله -عز وجل- وأنبيائه، وما يترتب على ذلك من نتائج في الدنيا والآخرة"[5].

وقد عرفها الباحث رشيد كهوس بقوله: "السنن الإلهية هي إرادة الله الكونية، وأمره الشرعي، وفعله المطلق، وكلماته التامات، وحكمته في آفاق الكون وتسلسل التاريخ، الجارية بالعباد عبر رحلة الأعمال إلى المعاد"[6].

وبذلك نستخلص أن السنن في الاصطلاح يراد بها النواميس أو الشرائع أو القوانين الثابتة التي توجد عليها الأمور، وعلى إثرها تكون النتائج والآثار، وقد أرشدنا القرآن الكريم إلى

---

(1) السنن الإلهية في الحياة الإنسانية، الخطيب أحمد شريف، ص27.

(2) مفهوم السنن الربانية دراسة في ضوء القرآن الكريم، رمضان خميس زكي، ص13.

(3) المعجم الاشتقاقي المؤصل للألفاظ القرآن الكريم، محمد حسن جبل، ص1079.

(4) السنن الإلهية في القرآن الكريم ودورها في استشراف المستقبل، عماد عبد الكريم الخصاونة، ص212.

(5) السنن الإلهية في الامم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية، عبد لكريم زيدان، ص10.

(6) علم السنن الإلهية من الوعي النظري إلى التأسيس العملي، رشيد كهوس، ص22.

الاعتبار بسنن الله في الخلق، فقال الله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾[آل عمران: 137]، وقوله تعالى:﴿أَوَ لَمْ يَسِيرُواْ في الأرض فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عاقبة الذين مِن قَبْلِهِمْ﴾[غافر: 21]، ف"إرشاد الله إيانا إلى أن له في خلقه سننا، يوجب علينا أن نجعل هذه السنن علما من العلوم المدونة، لنستمد منها ما فيها من الهداية، والموعظة على أكمل وجه، فيجب على الأمة في مجموعها أن يكون فيها قوم يبينون لها سنن الله في خلقه، كما فعلوا في غير هذا العلم من العلوم والفنون التي أرشد إليها القرآن بالإجمال، وبينها العلماء بالتفصيل عملا بإرشاده كالتوحيد والأصول والفقه"(1).

2- التغيير

أما التغيير في اللغة فمن معانيه التحول من حال إلى حال، يقول ابن منظور: "تغيّر الشيء عن حاله: تحول. وغيّره: حوّله وبدّله كأنه جعله غير ما كان"(2).

ويقول صاحب تاج العروس: "تغير الشيء عن حاله: تحوّل. وغيره: جعله غير ما كان. وغَيَّرَهُ حوله وبدله، وفي التنزيل العزيز: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: 53]، قال ثعلب: معناه حتى يبدلوا ما أمرهم الله"(3).

ثم إن التغيير يرد في اللغة على وجهين:

أحدهما: تغيير صورة الشيء دون ذاته. يقال: غَيَّرْتُ داري: إذا بنيتها بناء غير الذي كان.

والثاني: تبديل الشيء بغيره. نحو: غَيَّرْتُ غلامي ودابّتي: إذا أبدلتهما بغيرهما (4).

فالتغيير في اللغة إذن؛ يراد به تحويل الشيء من حال إلى حال، وهذا التغيير يأخذ وجهين؛ إما أن يلحق صورة الشيء دون ماهيته، أو يكون تغييرا كليا بمعنى التبديل.

---

(1) سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها، محمد هيشور، ص8.

(2) لسان العرب، ابن منظور، مادة: (غير)، ج5، ص40.

(3) تاج العروس، مرتضى الزّبيدي، ج13، ص286.

(4) مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، ج1، ص619.

أما التغيير في **الاصطلاح** فلا يختلف معناه على ما قُرر عند أهل اللغة، حيث عرفه الجرجاني بقوله: "انتقال الشيء من حالة إلى حالة أخرى"[1].

وعرفه أبو البقاء الكفوي بقوله: "التغيير: عبارة عن تبديل صفة إلى صفة أخرى مثل تغيير الأحمر إلى الأبيض، والتغيير إما في ذات الشيء أو جزئه أو الخارِج عنه، ومن الأول: تغيير الليل والنهار، ومن الثاني: تغيير العناصر بتبديل صورها، ومن الثالث: تغيير الأفلاك بتبديل أوضاعها والتحويل يتعدى ويلزم، والتغيير لا يكون إلا متعديا"[2].

وعُرّف التغيير كذلك بأنه: "تحول الشيء لحدة تخالطه تحولا تاما أو كالتام. كتحول نفس الغَيْران من الرضا ونحوه إلى الغضب الشديد، وكالمبادلة في البيع لرغبة النفس عن المتروك، وكالتحول من القصاص إلى الدية...وأن الأصل: أن هذا التحول يكون من حسن أو خير إلى شر. كما جاء في الآية الكريمة: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: 53]، وكذلك سياق الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: 11]، وكذلك: ﴿وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ﴾[محمد: 15]..."[3].

وفي سياق تفسير قوله تعالى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُواْ بِـَايَـٰتِ اِ۬للَّهِ فَأَخَذَهُمُ اُ۬للَّهُ بِذُنُوبِهِمْۖ إِنَّ اَ۬للَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ اُ۬لْعِقَابِ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اَ۬للَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً اَنْعَمَهَا عَلَيٰ قَوْمٍ حَتَّيٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اَ۬للَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة الأنفال: الآية 53-54]، قال الطاهر بن عاشور: "فقوله: لم يك مغيرا مؤذن بأنه سنة الله ومقتضى حكمته؛ لأن نفي الكون بصيغة المضارع يقتضي تجدد النفي ومنفيه.

و«التغيير» تبديل شيء بما يضاده فقد يكون تبديل صورة جسم كما يقال: غيرت داري، ويكون تغيير حال وصفة، ومنه تغيير الشيب أي صباغه، وكأنه مشتق من الغير وهو

---

(1) التعريفات، الجرجاني، ص63.

(2) الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، الكفوي، ص294.

(3) المعجم الاشتقاقي المؤصل للألفاظ القرآن الكريم، محمد حسن حسن جبل، ص1568.

المخالف، فتغيير نعمة إبدالها بضدها وهو النقمة وسوء الحال، أي تبديل حالة حسنة بحالة سيئة...

ذلك أن الأمم تكون صالحة ثم تتغير أحوالها بِبَطَرِ النّعمة فيعظم فسادها، فذلك تغيير ما كانوا عليه، فإذا أراد الله إصلاحهم أرسل إليهم هداة لهم، فإذا أصلحوا استمرت عليهم النعم مثل قوم يونس وهم أهل (نينوى)، وإذا كذّبوا وَبَطِرُوا النعمة غيّر الله ما بهم من النعمة إلى عذاب ونقمة"[1].

نستنتج أن المراد بسنن التغيير في القرآن الكريم، باعتبارها سننا ربانية النواميس والقوانين الثابتة، التي لا تتخلف ولا تحابي أحدا، فهي تقتضي أن حدوث التغيير أو الانتقال من حال إلى حال، مترتب على حدوثه من البشر بعد إذن الله تعالى طبعا، سواء أكانوا أفرادا أم جماعات، وسواء أكان هذا التغيير محمودا أم مذموما، فلا يكون التغيير إذن إلا بسبب، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: 11]، فهنا تغييران:

التغيير الأول: يُحدثه الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾ [الرعد: 11].

والتغير الثاني: يحدثه الناس: ﴿حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: 11].

وهذا المعنى لسنة التغيير هو الذي صرّح به العديد من العلماء، ومن هؤلاء الإمام ابن كثير الذي قال في هذا الشأن: "يخبر تعالى عن تمام عدله، وقسطه في حكمه، بأنه تعالى لا يغير نعمة أنعمها على أحد إلا بسبب ذنب ارتكبه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: 11]، وقوله ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ [آل عمران: 11][2]، أي: كصنعه بآل فرعون وأمثالهم حين كذبوا بآياته، أهلكهم بسبب ذنوبهم، وسلبهم تلك النعم التي أسداها إليهم من جنات وعيون، وزروع وكنوز ومقام كريم، ونعمة كانوا فيها فاكهين، وما ظلمهم الله في ذلك، بل كانوا هم الظالمين"[3].

---

(1) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، ج10، ص45.

(2) وتكملة الآيات من سورة آل عمران: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَأُولئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ (10) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآياتِنا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقابِ (11)﴾.

(3) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ج4، ص69.

المبحث الثاني: القصص القرآني...مصدر للسنن الإلهية.

يعد القصص القرآني من أهم مظان السنن الإلهية؛ ذلك أن السنن في القرآن الكريم عادة تستخدم بمعنى ما بينه وجلاه الله للإنسانية، من طرق واتجاهات عاشتها ومرت بها الأمم السابقة، فكأن الله جعلها قوانين ثابتة في البشر والوجود كله، دون أن تتغير هذه القوانين أو تتبدل[1].

وهذه السنن الإلهية هي من أعز ما يطلب، وأفضل ما يعلم، وأنفس ما يدخر وأحسن ما يهتدى به، ولذلك أرشدنا القرآن الكريم إليها عبر عدة طرق وأساليب بلاغية وبيانية، يأتي في مقدمتها إيراد وذكر أحوال الأمم السابقة، وفي هذا الشأن يقول الدكتور مجدي عاشور عن هذا الأسلوب في تقديم السنن الربانية:"فالتاريخ هو المرآة التي تتجلى فيها سنن الله تعالى في الكون عامة، وفي الاجتماع البشري خاصة، ولهذا اعتنى القرآن عناية بالغة بلفت الأنظار، وتنبيه العقول إلى قصص الأمم السابقة، وأورد كثيرا منها على وجه التفصيل فيما هو متعلق بالاتعاظ والعبرة.

فإذا عرفت قصص الأنبياء ومن اتبعهم ومن كذبهم، وأن متبعيهم كان لهم النجاة والعاقبة والنصر والسعادة، ولمكذبيهم الهلاك والبوار-جعل الأمر في المستقبل مثلما كان في الماضي، فعلم أن من صدقهم كان سعيدا، ومن كذبهم كان شقيا، وهذه سنة الله وقانونه...

إن الله لم يقص علينا في القرآن قصة أحد إلا لنعتبر بها، وإنما يكون الاعتبار إذا قسنا الثاني بالأول، وكانا مشتركين في المقتضى والحكم، فلولا أن في نفوس الناس من جنس ما كان في نفوس المكذبين للرسل-فرعون ومن قبله- لم يكن بنا حاجة إلى الاعتبار بمن لا يشبهه قط، لكن الأمر كما قال تعالى: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [فصلت: 43]، وقال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران: 137]، ولهذا اُحْتج بسنة الله وفعله في مكذبي الرسل كقول النبي شعيب: ﴿وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ

(1) انظر: سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها، محمد هيشور، ص8.

لُوطٍ مِّنكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: 89]، وقال مؤمن آل فرعون: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ [غافر: 31][1].

وهكذا نلفي كثيرا من القصص في القرآن الكريم، يختم بالدعوة إلى الاهتداء والاتعاظ وأخذ العبر والدروس، بل جاء الإرشاد القرآني صريحا إلى الدعوة إلى ذلك، قال الله تعالى بعد ذكر قصة بلعام بن باعوراء: ﴿ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: 176]، وفي تفسير هذه الآية يقول الإمام الطبري: "يقول تعالى ذكره: هذا المثل الذي ضربته لهذا الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها، مثل القوم الذين كذبوا بحججنا وأعلامنا وأدلتنا، فسلكوا في ذلك سبيل هذا المنسلِخ من آياتنا، الذي آتيناها إياه في تركه العمل بما آتيناه من ذلك وأما قوله:﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ﴾[الأعراف: 176]، فإنه يقول لنبيه محمد ﷺ: فاقصص يا محمد هذا القصص، الذي قصصته عليك من نبإ الذي آتيناه آياتنا، وأخبار الأمم التي أخبرتك أخبارهم في هذه السورة، وقصصت عليك نبأهم ونبأ أشباههم، وما حل بهم من عقوبتنا ونزل بهم، حين كذبوا رسلنا من نقمتنا على قومك من قريش، ومن قبلك من يهود بني إسرائيل، ليتفكروا في ذلك فيعتبروا وينيبوا إلى طاعتنا، لئلا يحلّ بهم مثل الذي حل بمن قبلهم من النقم والمثلات"[2].

وقد توالت الآيات القرآنية التي تحض على الاعتبار من القصص القرآني، من ذلك قول الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ، مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى، وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ، وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ، وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: 111]، وقوله تعالى:﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [سورة هود 100،102]، وقوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ

---

(1) ينظر مقال: السنن الإلهية: مصادرها وضوابطها، مجلة المسلم المعاصر، العدد:111، مارس، 2004م.

(2) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الإمام الطبري، ج10، ص589.

كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران: 137]، وقوله تعالى:﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [الروم: 9]، وغيرها من الآيات الدالة على أهمية الاعتبار من الدروس والعبر المتضمنة في أخبار الأمم السالفة، ومن أعظم هذه الدروس استنباط السنن الإلهية، التي بسطها الله تعالى أثناء ذكره لأحوال الأمم السالفة.

ثم إن القرآن الكريم حينما يذكر أخبار الأمم السالفة، ويدعو إلى الاتعاظ بها ينبهنا إلى سننه في الخلق، وقوانينه في نشوء المجتمعات واندثارها، وأن لله سننا ونواميس وقوانين لا تتعطل ولا تتبدل وهي ثابتة مطردة على مدار التاريخ، لقول الله-عز وجل-:﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلا﴾[الأحزاب: 62] وقال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللهِ إِنَّ اللهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [الرعد:31]، وبالتالي فأحداث التاريخ في كثير من الأحايين تعيد نفسها، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: 140]، وقوله تعالى كذلك:﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلا سُنَّةَ الأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلا﴾ [فاطر: 43]...

وبناء على سبق بيانه، يمكن القول إن القصة القرآنية، تعد معينا لا ينضب لاستخلاص واستجلاء السنن والقوانين الربانية الحاكمة، وسنن التغيير مندرجة لا محالة ضمن هذه السنن، وقد وجهنا الله -عز وجل- إلى النظر والاعتبار بها، واستمداد سبل الاهتداء والاقتداء بها، للسير في طريق الله وتحقيق مبدأ الاستخلاف في الأرض، ولا شك أن هذه المعرفة في الحقيقة هي جزء من معرفة الدين، وفي الإعراض عنها وإغفالها وعدم فقهها ومعرفة حقيقتها، ما يؤدي إلى انخرام الحياة وعدم استقامتها.

المبحث الثالث: شواهد واقعية لسنن التغيير في القصص القرآني.

لقد عرض القرآن الكريم، أثناء ذكره لأخبار الأمم السالفة وقصصهم، أمثلة واقعية كثيرة لسنن التغيير، من ذلك ما وقع لقوم فرعون من تبدل الحال من نعمة إلى نقمة، حين كفروا وأعرضوا عن الحق، يقول الله تعالى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ

اِللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اُللَّهُ بِذُنُوبِهِمُۥٓۚ إِنَّ اَللَّهَ قَوِيّٞ شَدِيدُ اُلْعِقَابِ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اَللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعْمَةً اَنْعَمَهَا عَلَيٰ قَوْمٍ حَتَّيٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اَللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ [الأنفال: 53-54].

وفي هذا الصدد قال الشيخ ابن عطية، متحدثا عن معنى التغيير الوارد في الآية: "الإخبار بأن الله -عز وجل- إذا أنعم على قوم نعمة، فإنه بلطفه ورحمته لا يبدأ بتغييرها وتكديرها حتى يجيء ذلك منهم؛ بأن يغيروا حالهم التي تراد وتحسن منهم، فإذا فعلوا ذلك وتلبسوا بالتكسب للمعاصي أو الكفر الذي يوجب عقابهم، غيّر الله نعمته عليهم بنقمته منهم، ومثال هذا نعمة الله على قريش بمحمدﷺ فكفروا ما كان يجب أن يكونوا عليه، فغير الله تلك النعمة بأن نقلها إلى غيرهم من الأنصار وأحل بهم عقوبته"[1].

كما أكد ذلك الإمام ابن القيم-رحمه الله- بقوله:" أخبر الله تعالى أنه لا يغير نعمه التي أنعم بها على أحد، حتى يكون هو الذي يغير ما بنفسه، فيغير طاعة الله بمعصيته، وشكره بكفره، وأسباب رضاه بأسباب سخطه، فإذا غيَّر غير عليه، جزاء وفاقا، وما ربك بظلام للعبيد، فإن غير المعصية بالطاعة، غير الله عليه العقوبة بالعافية، والذل بالعز"[2].

وبذلك فمن عدل الله-عز وجل- وعدم ظلمه للعباد، أنه لا يغير ما بقوم من حال إلى حال حتى يغيروا ما بأنفسهم، فالعذاب الذي لحق الأمم السابقة كان بسبب ذنوبهم ومخالفتهم لأمر الله تعالى، وهذا الأمر عام في التغيير ينطبق على كل الأفراد والأمم دون استثناء في كل وقت وحين.

ومن الأمثلة الواقعية كذلك ما وقع لقوم سبأ، من تغير الحال بعد نعمة وبسط في العيش إلى شظف ونقمة، حين كفروا بنعمة الله وأعرضوا عن الحق، يقول الله تعالى حكاية عنهم: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ وَجَعَلْنَا

(1) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية الأندلسي، ج2، ص541

(2) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي أو الداء والدواء، ابن قيم الجوزية، ج1، ص74.

بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [سبأ:15-19].

فقوم سبأ لم يشكروا الله على ما رزقهم من النعم، ولم يعملوا بطاعته، ولم يجتنبوا نواهيه، بل قابلوا النعم بالجحود والنكران والإعراض، فسلط الله عليهم السيل الجرار الذي خرب سدهم، وأفسد زرعهم، وأتلف أشجارهم.

جاء في تفسير ابن كثير: بان أهل سبأ في اليمن، كانوا في نعمة وغبطة.. واتساع أرزاقهم وزروعهم وثمارهم، وأن الله تبارك وتعالى بعث إليهم الرسل تأمرهم أن يأكلوا من رزقه ويشكروه بتوحيده وعبادته، فكانوا كذلك ما شاء الله تعالى، ثم أعرضوا عما أمروا به، فعوقبوا بإرسال السيل والتفرق في البلاد، شَذَرَ مذر..."[1].

ويضيف السعدي في تفسيره لهذه القصة متحدثا عن الغاية منها، فيقول: "سبأ قبيلة معروفة في أداني اليمن، ومسكنهم بلدة يقال لها "مأرب"، ومن نعم الله ولطفه بالناس عموما، وبالعرب خصوصا، أنه قصّ في القرآن أخبار المهلكين والمعاقبين، ممن كان يجاور العرب، ويشاهد آثاره، ويتناقل الناس أخباره، ليكون ذلك أدعى إلى التصديق، وأقرب للموعظة فقال: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ﴾ أي: محلهم الذي يسكنون فيه ﴿آيَةٌ﴾ والآية هنا: ما أدرَّ الله عليهم من النعم، وصرف عنهم من النقم، الذي يقتضي ذلك منهم، أن يعبدوا الله ويشكروه.

ثم فسر الآية بقوله ﴿جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ وكان لهم واد عظيم، تأتيه سيول كثيرة، وكانوا بنوا سدا محكما، يكون مجمعا للماء، فكانت السيول تأتيه، فيجتمع هناك ماء عظيم، فيفرقونه على بساتينهم، التي عن يمين ذلك الوادي وشماله. وتُغِلُّ لهم تلك الجنتان العظيمتان، من الثمار ما يكفيهم، ويحصل لهم به الغبطة والسرور، فأمرهم الله بشكر نعمه التي أدرَّها عليهم من وجوه كثيرة، منها: هاتان الجنتان اللتان غالب أقواتهم منهما.. فأعرضوا

(1) انظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ج6، ص 445.

عن المنعم، وعن عبادته، وبطروا النعمة، وملوها، حتى إنهم طلبوا وتمنوا، أن تتباعد أسفارهم بين تلك القرى التي كان السير فيها متيسرا. ﴿وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بكفرهم بالله وبنعمته، فعاقبهم الله تعالى بهذه النعمة، التي أطغتهم، فأبادها عليهم، فأرسل عليها سيل العرم"(1).

وقد أحسن الشيخ الطاهر بن عاشور في تفسيره لهذه القصة، حينما ربط السابق باللاحق، ليبين الغرض الحقيقي من إيراد هذه القصة، المتجلي في تذكير الناس بسوء العاقبة بسبب نكران الجميل، وجحد نعم الله تعالى، فقال: "جَرّ خبر سليمان-عليه السلام-إلى ذكر سبإ لما بين ملك سليمان وبين مملكة سبإ من الاتصال بسبب قصة «بلقيس»؛ ولأن في حال أهل سبأ مضادة لأحوال داود وسليمان؛ إذ كان هذان مثلا في إسباغ النعمة على الشاكرين، وكان أولئك مثلا لسلب النعمة عن الكافرين، وفيهم موعظة للمشركين، إذ كانوا في بحبوحة من النعمة، فلما جاءهم رسول من المنعم عليهم يذكرهم بربهم، ويوقظهم بأنهم خاطئون إذ عبدوا غيره، كذبوه وأعرضوا عن النظر في دلالة تلك النعمة على المنعم المتفرد بالإلهية...فهذه القصة تمثيل أمة بأمة، وبلاد بأخرى، وذلك من قياس وعبرة. وهي فائدة تدوين التاريخ وتقلبات الأمم كما قال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيها رِزْقُها رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذاقَهَا اللَّهُ لِباسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِما كانُوا يَصْنَعُونَ وَلَقَدْ جاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذابُ وَهُمْ ظالِمُونَ﴾ [النَّحل: 112، 113]، فسوق هذه القصة تعريض بأشباه سبأ"(2).

ومما يمكن الاستشهاد به في هذا المقام عن سنن التغيير المستفادة من القصص القرآني، ما حكاه القرآن الكريم عن حال أصحاب البستان (الجنة)، الذين قال الله في قصتهم: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ۝ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ۝ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ۝ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ۝ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ۝ أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ

(1) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن السعدي، ص677.

(2) التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، ج22، ص165.

كُنْتُمْ صَارِمِينَ فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ﴾ [القلم: 17-30].

فهذه القصة القرآنية تنطوي على دروس عظيمة تتعلق بسنن الله في خلقه، وتجلي لنا مظهرا من مظاهر تجليات سنة التغيير، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾، أي أن أصحاب الجنة ارتكبوا واقترفوا إثما وتصرفا خاطئا؛ حيث أرادوا التحايل على منع وحرمان الفقراء والمساكين من حقهم، فعوقبوا بإهلاك جنتهم، فأصبحت كالليل المظلم الأسود، ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ، فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾، فتدخل الرجل الصالح العاقل وهو خَيرهمْ وأعدلهم ليرشدهم وليوجههم الوجهة الصحيحة: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾؛ حيث بيّن لهم أن المشكلة في أنفسهم، وأرشدهم إلى العودة إلى الله، فرجعوا إلى أنفسهم، واكتشفوا الخطأ الذي وقعوا فيه، فكأنهم قاموا بعملية النقد الذاتي؛ حيث اعترفوا بظلمهم: ﴿قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ﴾ [القلم: 30] والاعتراف هو بداية التغيير، واللوم يعد مؤشرا على الرغبة في التغيير، فقد لاموا أنفسهم على ما فعلوه وارتكبوه من جريرة، وقد ورد مصطلح اللوم في القرآن الكريم على قسمين:

الأول: لوم فردي، كما في قوله تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: 2].

الثاني: لوم جماعي، كما ورد في قصة أصحاب الجنة.

وعاقبة اللوم والندم حسنى دائما؛ لأنهما بداية طريق التغيير، لذلك اعتبر الشرع الندم على ما فات، من شروط التوبة النصوح كما قرر ذلك علماؤنا؛ ونتيجة ذلك أبدل الله عز وجل هؤلاء خيرا من جنتهم في الدنيا، وفي هذا يقول الطاهر بن عاشور: "فهم رجوا الله أن يبدلهم خيرًا منها، ووعدوا أنهم سيرغبون إلى الله، ويلحون عليه في الدنيا، فإن كانوا كما قالوا،

فالظاهر أن الله أبدلهم في الدنيا خيرا منها؛ لأن من دعا الله صادقا، ورغب إليه ورجاه، أعطاه سؤله.

قال تعالى مبينا ما وقع: ﴿كَذَلِكَ الْعَذَابُ﴾ أي الدنيوي لمن أتى بأسباب العذاب أن يسلب الله العبد الشيء الذي طغى به وبغى، وآثر الحياة الدنيا، وأن يزيله عنه، أحوج ما يكون إليه."[1].

ومن الدروس والعبر المستخلصة من هذه القصة ومن باقي القصص الواردة في القرآن الكريم، مما له ارتباط وثيق بسنة التغيير أن: "الازدهاء والغرور بسعة الرزق المفضيين إلى الاستخفاف بدعوة الحق، وإهمال النظر في كنهها ودلائلها، قد أوقعا من قديم الزمان أصحابهما في بَطَر النعمة وإهمال الشكر، فجر ذلك عليهم شرّ العواقب، فضرب الله للمشركين مثلا بحال أصحاب هذه الجنة، لعلهم يستفيقون من غفلتهم وغرورهم. كما ضرب المثل بقريب منه في سورة الكهف، وضرب مثلا بقارون في سورة القصص"[2].

وإن التغيير يتخذ اتجاهين، اتجاه إلى الخير، وتغيير إلى الأسوأ، كما ورد في قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: 112]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [يونس: 13].

وفي هذا يقول الإمام الطبري في بيان تفسير هذه الآية: "يقول تعالى ذكره: كما أهلكنا هذه القرون من قبلكم، أيها المشركون، بظلمهم أنفسهم، وتكذيبهم رسلهم، وردهم نصيحتهم، كذلك أفعل بكم؛ فأهلككم كما أهلكتهم؛ بتكذيبكم رسولَكُم محمداﷺ، وظلمكم أنفسكم؛ بشركك بربكم، إن أنتم لم تُنيبوا وتتوبوا إلى الله من شرككم؛ فإن من ثواب الكافر بي على كفره عندي، أن أهلكه بسَخَطي في الدنيا، وأوردُه النار في الآخرة"[3].

---

(1) نفسه، ج1، ص880

(2) نفسه، ج29، ص79.

(3) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري، ج15، ص38.

المبحث الرابع: أهمية الوعي بسنن التغيير في ترشيد الممارسة الاستخلافية.

لقد مرّ معنا أن المقصد الأسنى من القصص، وأخبار الأمم السالفة الواردة في القرآن الكريم التأسي بصالح أحوالهم، لقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: 90]، والتحذير من مساوئهم لقوله تعالى: ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ [إبراهيم: 45] وفي خلالها تعليم وإرشاد وهداية[1]، ومن وجوه هذا التعليم تعليم الإنسان سنن التغيير ومبادئه وأسبابه وثمراته، التي تفيده في ترشيد خلافته على الأرض، التي هي غاية من غايات وجوده عليها، حيث ذهب الإمام الراغب الأصفهاني إلى أن مقصود الشرع من الخلق ثلاثة، وهي[2]:

1- **مقصد العبادة لله**: إليها يشير قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ﴾ [الذاريات: 57].

2- **مقصد الخلافة عن الله**: إليها يشير قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: 30].

3- **مقصد العمارة للأرض**: إليها يشير قوله تعالى: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾[هود: 61].

ولا شك أن فقه السنن الإلهية في التغيير واستيعابها، يعين لا محالة على تحقيق مبدأ الاستخلاف على الأرض[3]، لذلك يقول أحمد كنعان في معرض بيانه أثر الوعي بسنن التغيير في تحقيق مبدأ الاستخلاف في الأرض: "...وعلى هذا الأساس نستطيع أن نحدد أهم الشروط التي تتطلبها سنة التغيير، مسترشدين في ذلك بأمثلة واقعية موثوقة رواها القرآن الكريم عن الأمم الغابرة، وبخاصة منها الأمم التي بعث الله -عز وجل- إليها رسله، يدعونها للالتزام

---

(1) التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، ج1، ص41.

(2) الذريعة إلى مكارم الشريعة، الراغب الأصفهاني، ص82.

(3) عرف الاستخلاف بأنه:" عبادة طوعيَّة لله بالتزام هديه وشرائعه ينشأ عنها ضبط للسلوك الإنساني في علاقته مع الله وعلاقته بالكون والمخلوقات؛ بحيث تسير الحياة الإنسانية ضمن إطار الصلاح"، الخلافة في الأرض، حسن فرحات، دار الأرقم، الكويت، ط:1، 1406هـ / 1986م، ص21.

بمنهج الله وشريعته، على أساس أن هذا الالتزام هو الطريق القويم لتغيير المجتمع، وتأهيله للقيام بمهمة الاستخلاف خير قيام"[1].

ذلك أننا إذا يممنا وجوهنا نحو ما ذكره الله من سنن التغيير، المتضمنة في القصص التي أخبر بها الله تعالى في محكم تنزيله، ألفينا دروسا وعبرا عظيمة ترشد إلى وظيفة الإنسان المستخلَف في الأرض في التغيير والبناء وعمارة الأرض وفق منهج الله القويم، وأن الإنسان يعد ركيزة مهمة في حركة التغيير وقيادته وتدبيره، لذلك اعتنى القرآن الكريم بتأهيل الإنسان كي يكون أهلا للأمانة والمسؤولية الملقاة على عاتقه، تتحقق فيه شروط التزكية والاستجابة التي دعا إليها الشرع في تشريعاته وأحكامه، وهذا الدور الرائد للإنسان في الخطاب القرآني يقول عنه الدكتور عبد المجيد النجار: "المحور الأساسي في البيان القرآني يدور عليه القول في سائر الأغراض، وتعود إليه المعاني في سائر المقامات، وليس ذلك في مجال الخطاب التكليفي فحسب مما يبدو بدهيا؛ إذ القرآن خطاب من الله تعالى للإنسان، ولكن في كل مقامات الشرح الوجودي في مختلف الأغراض، وهو ما يشهد بأن للإنسان مقاما في القرآن الكريم، يغاير في النوع مقام الموجودات الأخرى جميعا"[2].

وهذا المقام الذي أشار إليه النص السالف، يتجلى أساسا فيما كُلف به الإنسان في هذه الدنيا، وذلك بأن يكون مستحضرا في أعماله وتصرفاته ومقاصده أنه خليفة الله في أرضه، ينفذ مراده في الأرض ويجري أحكامه فيها، ومعناه:" أن يكون الإنسان سلطانا في الكون بغاية تطبيق المهمة التي كلفه بها المستخلِف-الله- ائتمارا بما أمر وانتهاء عما نهى"[3].

فالوعي بالسنن الإلهية عامة وسنن التغيير على وجه الخصوص، غايته المثلى إصلاح الفرد وإصلاح المجتمع، ذلك أنه: "إذا كان المطلوب من المعرفة أن تنهض بأي مجتمع وتخدمه، فإن عليه أن يتجه إلى الحياة، بسبر أغوارها، ويفهم نظمها، وما فيها من تكيف

---

(1) أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق، أحمد كنعان، ص111-112.

(2) قيمة الانسان، عبد المجيد عمر النجار، ص5-6.

(3) خلافة الإنسان بين الوحي والعقل، عبد المجيد عمر النجار، ص47–48.

وصرامة، وإمكانيات للمناورة والتصرف مع شروطها وقيودها، عبر فهم عميق للسنن على رأسها سنة التغيير"[1].

والمتأمل في معاني أخبار الأمم السالفة، يجد ضالته ومبتغاه وما يحتاجه من سنن ربانية في التغيير، المقيدة ببنود ومقتضيات عهد الاستخلاف الذي أخذه الله تعالى على الإنسان لما استخلفه في هذه الأرض، قال تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: 38]، وقال الله تعالى: ﴿فَإِمّا يَأْتِيَنَّكم مِنِّي هُدًى﴾ معناه: "العهد أخذه الله على آدم، فلزم ذريته أن يتبعوا كل هدى يأتيهم من الله...وأولى الهدى وأجدره بوجوب اتباعه، الهدى الذي أتى من الله لسائر البشر، وهو دين الإسلام الذي خوطب به جميع بني آدم"[2].

وجملة القول هنا، فإن تدبير شؤون هذا الكون وتعميره وفق ما شرعه الله تعالى يقتضي معرفة سننه ونواميسه، ومن هذه السنن الإلهية سنن التغيير والتحويل، وإن القصص القرآني يعتبر مصدرا وافيا لهذه السنن وإدراكها إدراكا جيدا، لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة:242]، فمهمة الخلافة تقتضي التغيير في الأرض تغييرا إصلاحيا بإقامة العدل وإشاعة الإحسان بين الناس.

فضلا عن أن الوعي بالسنن الإلهية في التغيير الواردة في القصص القرآني قمين أن يوجه ويقوم سلوك الأفراد والجماعات وأخلاقهم؛ لتحقيق مبدأ الاستخلاف في الأرض، وهذا ما يفسره تركيز كل رسول مرسل لقومه لإصلاح لديه خلل تصوري أو سلوكي، كسعي نبي الله لوط -عليه السلام- لإصلاح ما وقع فيه قومه من الفواحش والرذائل الدنيئة، وسعى نبي الله شعيب لإصلاح خلق قومه: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا

---

(1) مدخل إلى التنمية المتكاملة، عبد الكريم بكار، ص123.

(2) التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، ج1، ص443-444.

فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ. وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف:85-86]، وقال تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: 88].

وهذا دأب كل الأنبياء والرسل والمصلحين لإصلاح أقوامهم، ففي هذه القصص عبرة وعظة ودروس بارزة لهذه الأمة، حتى لا تقع فيما وقع فيه أولئك فيحيق عليها العذاب الآجل والعاجل[1]، ولذلك نبه ابن عباس رضي الله عنهما إلى ذلك بقوله: "إن كل ما ذم الله أهل الكتاب عليه فالمسلمون محذرون من مثله"[2].

خاتمــة

بعد هذا التطواف في رحاب موضوع سنن التغيير الإلهية في القصص القرآني، وأهميته في ترشيد الممارسة الاستخلافية للإنسان، أخلص إلى استيفاء النتائج الآتية:

1-إن القصص في القرآن الكريم مصدر مهم من مصادر السنن الإلهية؛ ذلك أن إخبار الله تعالى بأحوال الأمم السابقة ومصائرهم، ليس الغرض منه التسلية والترفيه وإنما الاعتبار والاتعاظ والتأسي والإرشاد.

2-إن سنن التغيير في القصص القرآني، شأنها شأن باقي السنن الربانية المذكورة في كتاب الله تعالى، ولها اتجاهان: اتجاه أسه تغيير إلى الخير، واتجاه أسه تغيير إلى الشر، وكل ذلك تبع لأسباب ومقدمات ممهدات.

3-إن استيعاب وإدراك الإنسان للسنن الإلهية في التغيير المستنبطة من القصص القرآني وغيرها، يعتبر من الوظائف الأساس في المهام الاستخلافية للإنسان في هذه الأرض؛

---

(1) مقال: مقاصد القصص القرآني، الدكتور أبو اليسر رشيد كهوس، منشور بموقع: الجامعة الإسلامية دار العلوم ديوبند، https://darululoom-deoband.com الزيارة:2023/06/12.

(2) التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، ج2، ص69.

فذلك يعين على تأدية الإنسان لأدواره الاستخلافية على الوجه الأكمل والأصح، وفق ما أرشد إلى ذلك الله -عز وجل- في شرعه الحكيم.

4- إن الإنسان باعتباره مكلفا في هذه الأرض يعد ركيزة أساسية في التغيير، فهو يتبوأ مكانة مهمة في حدوثه ووقوعه، وقد تضمنت أخبار الأمم السابقة شواهد كثيرة على ذلك.

5- إن فقه سنن التغيير الواردة في القصص القرآني، حاجة ملحة في عصرنا الحالي؛ واستجابة لله تعالى، وتأسيا بما يحقق التغيير المنشود، وابتعادا عن كل الأسباب التي تؤدي إلى التغيير المذموم، ولا يتحقق ذلك من غير فقه ما يعرفه الواقع وما تعج به حياتنا المعاصرة اليوم من تحديات وإكراهات.

6- ومن توصيات هذا البحث ضرورة عناية العلماء والباحثين بجمع ودراسة سنن التغيير الواردة في القصص القرآني، والعمل على ربطها بواقع أمتنا الإسلامية وما تعيشه من تحديات حضارية.

لائحة المصادر والمراجع

1. **أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق،** أحمد كنعان، سلسلة كتاب الأمة، العدد: 26. محرم 1411 هـ.
2. **تاج العروس،** مرتضى الزَّبيدي، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية، د. ط، د.ت.
3. **التحرير والتنوير،** الطاهر بن عاشور، الطبعة:1، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984م.
4. **التعريفات،** الجرجاني، ضبطه وصححه جماعة من العلماء، دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى: 1403هـ /1983م، بيروت –لبنان.
5. **تفسير القرآن العظيم،** ابن كثير، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون، الطبعة: الأولى، 1419 هـ، بيروت.

6. **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان،** عبد الرحمن السعدي، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، 1420هـ/2000م.
7. **جامع البيان عن تأويل آي القرآن،** الإمام الطبري، تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، ط1، 1422هـ /2001م.
8. **الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي أو الداء والدواء،** ابن قيم الجوزية، دار المعرفة، الطبعة1، السنة: 1418هـ – 1997م، المغرب.
9. **خلافة الإنسان بين الوحي والعقل،** عبد المجيد عمر النجار، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1407هـ/1987م، بيروت.
10. **الذريعة إلى مكارم الشريعة، الراغب الأصفهاني،** تحقيق: أبو اليزيد العجمي، دار السلام، (د.ط) 1428هـ/2007م، القاهرة.
11. **السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية،** عبد لكريم زيدان، مؤسسة الرسالة، ط3، 2002م.
12. **السنن الإلهية في الحياة الإنسانية،** الخطيب، شريف، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، ط1، 2004م، الرياض.
13. **السنن الإلهية في القرآن الكريم ودورها في استشراف المستقبل،** عماد عبد الكريم الخصاونة، مجلة المنارة، المجلد الخامس عشر، العدد الثاني، 2009م.
14. **سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها،** محمد هيشور، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الطبعة الأولى: 1417هـ/1996م.
15. **صحيح مسلم،** تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي-بيروت-، د.ط، د.ت.
16. **علم السنن الإلهية من الوعي النظري إلى التأسيس العملي،** رشيد كهوس، مركز جمعة ماجد للثقافة والتراث، ط: 1، 2017، دبي.

17. **فتح القدير، الشوكاني،** دار ابن كثير، دار الكلم الطيب، ط:1، 1414 هـ- دمشق، بيروت.
18. **قيمة الانسان، عبد المجيد عمر النجار،** سلسلة الإنسان في العقيدة الإسلامية (2)، دار الزيتونة للنشر، ط1، 1417هـ/1996م، الرباط المملكة المغربية.
19. **الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية،** أبو البقاء الكفوي، تحقيق: عدنان درويش - محمد المصري، مؤسسة الرسالة – بيروت، د.ط، د.ت.
20. **لسان العرب،** ابن منظور، دار صادر – بيروت، الطبعة: الثالثة - 1414 هـ.
21. **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز،** ابن عطية الأندلسي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، الطبعة، 1، 1422 هـ، بيروت.
22. **مدخل إلى التنمية المتكاملة،** عبد الكريم بكار، رؤية إسلامية، دار القلم، 1420هـ/2000م، دمشق.
23. **المعجم الاشتقاقي المؤصل للألفاظ القرآن الكريم،** محمد حسن حسن جبل، مكتبة الآداب، الطبعة الأولى، 2010م، القاهرة.
24. **الخلافة في الأرض،** حسن فرحات، دار الأرقم، الكويت، ط:1، 1406 هـ/1986م.
25. **مفردات القرآن الكريم،** الراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية، الطبعة: الأولى، 1412هـ، دمشق بيروت.

قصة يوسف عليه السلام

من الأمانة والعرفان إلى الولاية والعمران

دراسة في القيم اليوسفية.

د. محمد صابير

أستاذ باحث في الفكر الإسلامي

وأستاذ زائر بكلية علوم التربية وبالمدرسة العليا للتربية والتكوين بالرباط

مقدمـة

قصة يوسف عليه السلام؛ قصة نبي كريم، يشع إيمانا ويقينا وورعا؛ جمع بين حسن الظاهر وجمال الباطن، في مثالية وطهرانية تستند إلى علم وميراث النبوة، عاش في بيئة يبادله بعض أناسها كل أنواع المكر والكيد والغدر والحسد. احتوت قصته من العجائب والمتناقضات ما يفوق الخيال، فسبحان من سماها أحسن القصص؛ قال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ [يوسف:3]؛ إذ تضمنت هذه القصص الكثير من القضايا؛ ففيها أنباء الرسل، وشؤون العمران والاجتماع البشري، وأصول التدبير، وأدب السياسة والحكم والتخطيط، وأحوال العشاق وسلوك المخلصين والزهاد، وأحوال المحسنين وعاقبة المكذبين والخائنين، وأنواع الابتلاء والمحن؛ كل ذلك في سياق القضية الأم التي هي: "الاستخلاف"؛ باعتباره العنوان الأبرز الذي تجليه هذه الشخصية الكريمة في جل أطوار وتقلبات القصة، وما تكتنزه هذه القيمة المركزية الكبرى من معاني الوفاء والصبر والتسامح والكرم، وعبر لا تنتهي ولا تعد؛ تمثل الحياة والواقع الذي يعيشه الإنسان في كل زمان ومكان،

بل وطبيعة النفس البشرية في كل أحوالها وتقلباتها. إذ يسعفنا السياق أن نقول: إن سورة يوسف تشكل بمشاهدها وأحاسيسها، وانفعالات شخوصها ومشاعرهم المتحركة، أساس "علم نفس إسلامي" قائم بذاته، حيث يتداخل فيها النفسي بالعاطفي والسلوكي والوجداني، في نسق يجمع بين مخاطبة الفطرة والعقل في بناء الأنفس؛ من خلال تصحيح الاعتقاد والتفكير باعتبار ذلك منطلق وركيزة لإصلاح عمل الإنسان؛ إذ متى استقامت العقيدة ونضج فكر الإنسان، تسدد رأيه وانصلح عمله تبعا، مبينة أن طريق إصلاح العمران يمر أولا عبر إصلاح الإنسان، جاعلة الأمانة والقوة والعلم ركائز قيمية للإنسان الخليفة العدل. نستدعي هذه القصة بمعانيها لتكون نبراسا يضيء لنا طريقنا اليوم، ونورا نستهدي به في ظلمات الجهل؛ لما تجمع فيها من علوم الدنيا، ومعاني الصدق تحققا بالتخلق والتعقل والاعتبار.

إشكالية الدراسة:

في مثل هذه البحوث يبدو التركيز على الإشكالية مبعدا عن المقصود، غير محقق للمرصود، على اعتبار أن القصة التي بين أيدينا، هي حقيقة قرآنية بأحداثها ووقائعها وشواهدها، بل بخلاصاتها ونتائجها. وإشكالية البحث في الحقيقة مرتبطة بقدرة الباحث على إبراز ما تضمنته من القيم الاستخلافية، وتوظيفها في بناء نسق معرفي علمي، يعبر عن مقاصد القصة وأهدافها وغاياتها.

ومن جهة أخرى هي: قصة ذات مضمون يتداخل فيه الدعوي بالسياسي بقرينه الاقتصادي، في سوق عجيب يجعل السياسة باقتصادها في خدمة المشروع الدعوي "الرباني التوحيدي"؛ باعتباره (المشروع الدعوي التوحيدي) القضية المركزية التي تتكاثف قيم المحبة والتواضع، والرحمة والصبر والعفو والتسامح على تجليتها وترسيخها عقيدة وفكرا وسلوكا، يقدم من خلاله الصدِّيق يوسف: نموذج الخليفة العادل، الذي جعل العرفان في خدمة العمران ومحققا إنسانية الإنسان. ولذلك نقول: إن البحث يهدف إلى إبراز قضية مركزية هي:

ما مدى أهمية الأمانة في إسناد الولايات والمهام والمسؤوليات، وكيف تتضافر قيم النبل والرحمة والصدق والمحبة والعفو والتسامح إلى جانب الكفاءة والخبرة العلمية والعملية في بناء شخصية الخليفة العادل؟ وما دلالة صفات الأمانة والعلم والقوة في التكليف بالمسؤوليات والمناصب والمهام؟ ويرتبط بهذه الإشكالات مجموعة من الأسئلة الفرعية، من مثل؛ ما هي الأسس القيمية التي جسدها يوسف من أجل التحقق بمبدأ الاستخلاف؟ ما مكانة الأمانة والعلم في قصة يوسف؟ وما آثارهما في تحقيق العدل وصيانة الحقوق؟ ما هي أسس فقه الاستخلاف في المشروع الإصلاحي اليوسفي؟ ما وظيفة القصة عموما وقصة يوسف على وجه الخصوص؟ وما تجليات الكفاءة في تحقيق الرفاه الاقتصادي؟

منهج الدراسة

الدراسة التي بين أيدينا قائمة على المنهج الاستقرائي في تتبع أحداث القصة، وما قيل فيها وعنها في القرآن الكريم؛ باعتباره عمدة الملة وينبوع الحكمة، وما جادت به قرائح العلماء وخصوصا علماء التفسير؛ أجمع في ذلك بين التحليل والاستنتاج عند الوقوف على القضايا والموضوعات ودراستها وبيان المواقف التي تثيرها، والحكم والقيم المرتبطة بها، وبيان دلالتها التشريعية وغاياتها المقاصدية، مع اعتماد المقارنة بين آراء وأقوال العلماء، مرجحا ومقدما بما يسمح به الإمكان والحال، متجنبا تكرار ما قيل في الموضوع.

خطة البحث

بعد المقدمة وطرح الإشكالية وتوضيح منهج الدراسة، قسمت الموضوع إلى ثلاثة محاور؛ خصصت الأول لضبط المفاهيم وبيان وظائف القصة، بينما تكلف المحور الثاني ببيان فقه الاستخلاف والتغيير في المشروع العمراني اليوسفي على مستوى الفرد والمجتمع، ثم أفردت الحديث في المحور الثالث عن القيم الأخلاقية، التي شكلت الشخصية الاستخلافية ليوسف عليه السلام؛ في مرحلة ما قبل الولاية والسلطان، ثم خصصت صفتي الأمانة والعلم ببيان وتأصيل تقتضيه طبيعة الموضوع، ومركزية القيمتين في التمكين

للمشروع الاستخلافي اليوسفي الرشيد، متطرقا في أحد مباحث هذا المحور إلى مسألة طلب الولاية تحت حكم الكافر، من جهة ما يترتب على الفعل من مصالح ومفاسد، وأقفلت الموضوع بخاتمة لأهم الخلاصات المستفادة من هذا البحث

المبحث الأول: مدخل مفاهيمي تأصيلي.

المطلب الأول: ضبط المفاهيم.

1- القصة: أشارت معاجم اللغة إلى أنها بمعنى التتبع فقيل: "القاف والصاد أصل صحيح يدل على تتبع الشيء، من ذلك قولهم: اقتصصت الأثر إذا تتبعته"[1]، وبمعنى رويته، يقول ابن فارس: "واقتصصت الحديث: رويته"[2].

اصطلاحا هي: "الخبر عن حادثة غائبة عن المخبر بها"[3]، تتعلق بأحوال الأمم السابقة، غرضها في القرآن "بيان وبرهان"، تتحقق به ومن خلاله العظة والعبرة، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُوْلِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف:111]، وهي مكون عظيم في القرآن، ومنهج أصيل في إقامة الحجة ونشر الدعوة.

2- الأمانة: لغة:" ضد الخيانة"[4]. اصطلاحا قيل هي: "أداء حق في ذمتك لغيرك"[5]، وهذا الحق قد يكون متعلقا بالله أو بالغير من الخلق؛ يقول السعدي هي: "الأمور التي يؤتمن عليها العبد فيشمل ذلك أداء حقوق الله، وخصوصا الخفية وحقوق خلقه كذلك"[6]، وحق الله: التوحيد وما يستتبعه من العبادة والطاعة الكاملة في كل الأحوال، وحق الخلق يشمل الإحسان للإنسان والحيوان والجماد وسائر المخلوقات التي هي في خدمة الإنسان، وهو مسؤول ومستخلف كي يتعامل معها بعدل، ويعمر الأرض بالعمل الصالح. وهي شرط من

(1) مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، كتاب القاف، باب القاف وما بعدها في الثلاثي الذي يقال له المضاعف والمطابق، ج5، ص11.

(2) مجمل اللغة، ابن فارس، كتاب القاف، باب القاف وما بعدها في المضاعف والمطابق، ص728.

(3) التحرير والتنوير "تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، الطاهر بن عاشور، ج1، ص67.

(4) لسان العرب، ابن منظور، كتاب النون، فصل الألف، ج13ص21.

(5) تفسير الشعراوي – الخواطر، محمد متولي الشعراوي، ج4، ص2349.

(6) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن السعدي، ص943.

شروط الولاية كما ذهب إلى ذلك كثير من علماء الإسلام، قال ابن تيمية:" الولاية لها ركنان: القوة والأمانة"[1]، ومتى تحصلت الأمانة في الوالي استشعر مراقبة الله وخاف الله في أقواله وأفعاله، وراعى مصلحة الخلق وكان أبعد عن الظلم.

3- العرفان: لغة: "العلم"[2]. اصطلاحا: قيل العرفان أعلى شأنا ومرتبة من العلم، قال الكفوي: "وقد يستعمل العرفان فيما تدرك آثاره ولا تدرك ذاته، والعلم فيما تدرك ذاته، ولهذا يقال: (فلان عارف بالله) ولا يقال: (عالم بالله)؛ لأن معرفته ليست بمعرفة ذاته، بل بمعرفة آثاره، فعلى هذا يكون العرفان أعظم درجة من العلم"[3].

وقد خضع هذا المصطلح لتجاذبات فلسفية وصوفية كلامية، وأخذ أبعادا معرفية متأثرا بهذه الحقول، وأصبح مقارنا للبرهان والبيان كتعابير عن حقول معرفية أخرى، أبان عنه الجابري واعتبره نظاما مستقلا بذاته ومنهجا يعبر عن العلم والحكمة، فقال: "يبدو نظاما معرفيا مستقلا بذاته(...)منهج وطريق في المعرفة(...)بمعنى العلم والحكمة"[4]. وسواء أكان العرفان زائدا عن العلم أم مساويا له؛ فإن المقصود به هنا: ذلك المنهج الذي به يصل الإنسان إلى حقائق الأشياء ويدرك جوهرها.

4- الولاية: في اللغة بمعنى النصرة والسياسة، يقال: "هم على ولاية، أي: مجتمعون في النصرة"[5]. اصطلاحا: "سلطة شرعية لشخص في إدارة شأن من الشؤون، وتنفيذ إرادته فيه على الغير من فرد أو جماعة"[6]، إذن فهي نيابة عن الله على عباده فيما لهم من حقوق، ووكلاء عن العباد في أنفسهم وأموالهم، وذلك ما عبر عنه ابن تيمية بقوله: "الولاة نواب الله على عباده وكلاء العباد على نفوسهم"[7]. وتتعدد أنواع الولايات؛ من ولاية الأب على أبنائه،

---

(1) السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية، ص17.

(2) لسان العرب، كتاب الفاء، فصل العين المهملة، ج 9، ص236.

(3) الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، أبو البقاء الكفوي، ص612.

(4) بنية العقل العربي، دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية، محمد عابد الجابري، ص236.

(5) لسان العرب، باب الواو والياء من المعتل، فصل الواو، ج15، ص407.

(6) أهل الذمة والولايات العامة في الفقه الإسلامي، نمر محمد الخليل النمر، ص27.

(7) السياسة الشرعية، ابن تيمية، ص15.

إلى ولاية وصي اليتيم على ماله، إلى ولاية الزواج، إلى الولايات العامة؛ كالإمامة العظمى أو النيابة على البلدان، أو الولاية على الصلوات أو غيرها. وفي كل هي نيابة عن الله تعالى في تدبير حقوق الرعية، فالوالي نائب عن الله، يتولى العدل بين عباده وتوصيل الحقوق إليهم، والمقصود بها هنا الحكم والتمكين.

5- العمران: مأخوذة من العمارة، وهي: "ضد الخراب"[1] والهدم، وعرف فريد الأنصاري العمران بقوله: "هو بناء الإنسان بما هو عقيدة وثقافة، وبما هو حضارة وتاريخ، وبما هو فكر ووجدان، وبما هو نفس ونسيج اجتماعي"[2]. هذا التعريف من فريد الأنصاري يركز على الإنسان باعتباره الأساس في بناء العمران، ويبين أن العمران الإنساني متقدم على العمران المادي، بل العمران المادي لا يكون صالحا إلا بالعمران البشري؛ "لأن الإنسان هو أهم عناصر العمران وأول مرتكزاته، وهو الذي يعطي للبناء معناه العمراني"[3]، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ﴾[التوبة:18].

خلاصة التعاريف تقتضي منا في هذا البحث، العمل على استجلاء حقيقة الاستخلاف كما عبرت عنها القصة، وتجسدت في سلوك الصديق يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن خليل الرحمان إبراهيم؛ الكريم بن الكريم بن الكريم، وما تضمنته وأرشدت إليه من قيم الصبر والرحمة والوفاء والصدق والعفة والكفاءة والعلم والتقوى... متضافرة في بناء الفرد والمجتمع عقيدة وفكرا وعملا، ينعكس على العمران رشدا وصلاحا ماديا ومعنويا.

---

(1) مقاييس اللغة، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي، ج1، ص288.

(2) الفطرية بعثة التجديد المقبلة، من الحركة الإسلامية إلى بعثة الإسلام، فريد الأنصاري، ص168.

(3) نفسه، ص163.

المطلب الثاني: وظائف القصة في القرآن الكريم.

من خلال تتبع القصص في القرآن والوقوف على أحداثه ووقائعه وتاريخه ومآلاته، يتبين أن محوريته راجعة إلى تحقيق غرضين كبيرين، أو مقصدين عظيمين لهذا القصص، تتمثل الأولى في "إقرار الوظيفة التعقلية"، والثانية في "الوظيفة التربوية". وسنقف على كل وظيفة من هذه الوظائف بيانا وشرحا وتوضيحا.

1) الوظيفة التعقلية.

إذا كانت القصة في عمومها عبارة عن وقائع وأحداث وعلائق، وتصارع بين الخير والشر، ونجاح وفشل، وفراق ولقاء وكيد وإحسان، يجسدها أناس عاشوا في مرحلة زمنية متقدمة، يصورها القرآن ماثلة أمامك، تتخذ من خلال شخوصها المواقف، وتخطط في سنن تختلف ولا تتخلف، تتناقض إلى درجة الاقتتال، وتتصالح إلى درجة الوئام التام؛ فإن الغاية الكبرى من إيرادها هو أن ينتبه العقلاء ويعتبروا بنتائجها ومآلاتها، عبر إدراك العلائق التي تربط بين شخوصها، واستنباط الحقائق الثاوية فيها، وأداة ذلك التحقق والإدراك هو: "العقل" الذي يتتبع هذه الظواهر، وهذه الآيات باعتبارها أدلة وبراهين، كان التدليل عليها عقليا حجاجيا؛ لأنها تساق "لقوم يعقلون"، و"لأناس يتفكرون"، قال تعالى: ﴿فَاقْصُصْ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[الأعراف:176]. حيث المفروض في المخاطبين أن يُعملوا أدوات التفكير؛ التي هي السمع والبصر والفؤاد؛ لأن هذه القصص والأمثال القرآنية بليغة إلى درجة ألا يدركها ولا يفهم مراميها وأبعادها إلا العاقلون العالمون من أولي الألباب.

إن نظرة تأملية استقرائية في القرآن، تجعلنا ندرك أن مادة "عقل" وردت في حوالي "تسع وأربعين مرة"، بصيغة الفعل المضارع تتوزع بين لفظ" تعقلون" في "أربع وعشرين مرة"، ولفظ" يعقلون" في "اثنتين وعشرين مرة"، بينما وردت بصيغة الفعل" عقل" و"نعقل" و"يعقل" مرة لكل منهم، واتخذت الصيغة تصاريف متعددة في مجملها وردت في شكل استفهام إنكاري يفيد التقريع والتنديد والتعجب في "ثلاثة عشر موضعا"، ورد منها في سورة يوسف قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ

يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف:109]، تقريرا لرجحان الدار الآخرة على الدنيا الزائلة الفانية، بمعنى أن من أساليب القرآن الدعوة إلى شحذ العقل عقب تفصيل قصص السابقين، من خلال الاستفهام الاستنكاري المتوجه لمن عطلوا العقول تقريعا وتوبيخا "أفلا تعقلون".

كما ارتبط التفكر والتعقل بالآيات باعتبارها دلالات وعلامات، ومعجزات في مواطن عديدة من القرآن، منها قوله تعالى: ﴿نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس:109]. وحثنا القرآن الكريم على التفكر في المجالات وعلى كل الهيئات، واستثنى التفكر في ذاته، وجعل التفكر ميزة أولي النهى والعقول باعتباره هاديا إلى الصواب ودالا على الحقيقة، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران:189 - 191]. داعيا إلى إعمال التفكير في قصص من سبق، قال تعالى: ﴿فَاقْصُصْ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف:176].

من المعروف أن القصة في القرآن الكريم ليست ترفا فكريا أو مقصدا في حد ذاته، بل هي قصة من أجل التفكر والاعتبار، يبرز الجانب العقلي فيها من خلال التأكيد على النظر الذي هو أداة من أدوات التعقل الموصلة إلى الحقيقة، وإدراك مغزاها يقتضي النظر والتأمل عبر السير في الساحات وفي الأماكن، وتأمل الجغرافيا وقوفا على العاقبة والمآل، والنتيجة التي لحقت بالمكذبين.

وتعد قصة يوسف منطق تقويم التعقل والنظر، فهي لا تخرج عن ما سُطر في قصص السابقين، بل تفتح السورة بالدعوة إلى التعقل من خلال النظر الفاحص في آيات القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف:1-2]، يعني: تفكروا في قصصه وتعقلوا معانيه وآياته وتدبروا عبره، كي يكون حالكم حال من يرجى أن يعقلوا معانيه ومقاصده، وكما ابتدأت بالدعوة إلى التعقل فقد اختتمت بالحث عن الاعتبار والتعقل، قال تعالى:﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

[يوسف:111]، وهو أمر فيه ما فيه من وجوه الحكمة والإعجاز التي يدركها "أصحاب العقول" من أولي الألباب؛ بما هو معنى من المعاني المرادفة للعقل، وردت في القرآن الكريم في نحو "ستة عشر موضعا"، وهذا واحد منها.

وفي السياق ذاته حذرت السورة من وسائل تعطيل العقل؛ ومنها الغفلة، حيث قال تعالى إرشادا لرسوله وتحذيرا: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنْ الْغَافِلِينَ﴾ [يوسف:3]، فنحن يا محمد ننقلك من طور الغفلة بهذا القرآن، إلى طور التعقل وبناء الفكر والعلم؛ لأن الغفلة صادة عن ذلك، لذلك ورد ذمها في القرآن في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنْ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمْ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف:179]، فالغفلة تعطل أدوات المعرفة وتنفيها من السمع والبصر والفؤاد، قال تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنْ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنْ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيراً مِنْ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [الروم:6-9]، وقد أكد الحق أن تعطيلها موجب للهلاك كما في قصة فرعون، قال تعالى: ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف:136]، كما أن الغفلة شأن الأنعام التي عطلت حواسها، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنْ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمْ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف:179].

والدعوة إلى التفكر نابعة مما تحمله القصص من الآيات والعبر والدلالات، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ﴾ [يوسف:7]، والآية تقتضي الوقف على شواهدها وحججها وعلاماتها، فلا تكن(يا محمد) كحال هؤلاء الذين عطلوا عقولهم وأعرضوا عنها، قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف:105]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [يوسف:109]. والنتيجة هي العذاب الأليم، قال تعالى: ﴿وَلا يُرَدُّ بَأْسُنَا

عَنْ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [يوسف:110]، وقال تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف:107].

وغاية التعقل: التحقق بالاعتبار: "فإن من مقاصد القرآن في ذكر القصص الماضية أن يعتبر بها المسلمون في الخير والشر"(1)، وعليه فالقصة عموما تقصد إلى تقويم جانب النظر والفكر من خلال ما يلي:

أولا: تكوين العقلية العلمية المعتبرة بمصائر من سبق، المستفيدة مما توفره قصصهم من دروس وعبر في أمور الدين والدنيا.

ثانيا: نبذ التقليد واتباع الظن ومتابعة الآباء والكبراء والمترفين، وبالمقابل الحث على اعتماد الحجة والبرهان في بناء القيم واتخاذ المواقف.

2) الوظيفة التربوية التزكوية.

المقصد التربوي في القصة هو في حقيقته مقصد من مقاصد القرآن كما بين ذلك الطاهر ابن عاشور، على اعتبار أن القصة تشكل المكون الأكبر في القرآن، والمحور الأكثر اتساعا، وذلك لما تتضمنه من قيم وعبر ودروس وأحكام كذلك؛ فالقصة منجم لكل ما ذكرنا؛ وإذا كانت الوظيفة التربوية هي الإطار العام للقصة؛ فإن تمظهرات الوظيفة التزكوية تتلخص فيما يأتي:

1. تثبيت فؤاد النبي والفئة المؤمنة

وتسليتهم جراء ما يتعرضون له من أذى، فهي تحمل من جمال التشويق والإثارة ما تحيى به النفوس وتتزكى وتتعظ، قال تعالى: ﴿وَكُلاًّ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود:120]، وقد جاءت سورة يوسف بعد سورة هود، تواسي النبي في محنته وتسليه مما يلقاه من الكفار، قال تعالى:﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [هود:12]، فهي تسلية للنبي تبين ظلم يوسف من أقاربه، وذلك

---

(1) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، ج2، ص69.

ديدن الأنبياء مع أقوامهم، لذلك ختمت الآيات بقول الله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنْ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [يوسف:111]، فلا بد أن يكون يوسف قدوة لك يا محمد في صبره على إخوته، وصبره عن المعصية، وصبره على الابتلاء ودخوله إلى السجن، ومع ذلك فهو محسن مع الجميع، المسيء والمتواطئ؛ فهو محسن مع إخوته الذين آذوه، ومع زوجة العزيز والنسوة بشهادتهن، ومحسن مع السجناء يرأف بهم ويواسيهم، قال تعالى: ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنْ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:36]، وهو بشهادة الخالق محسن: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:20]، ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:56]، وهو محسن بتزكية الله له، قال تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:72]، ومحسن بشهادة إخوته: ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنْ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:78]، حتى يمكننا القول إن القيمة المركزية التي ميزت يوسف وهي "الأمانة"، تكتنز قيما عليا مثل الإحسان و التسامح والصبر والعفو والعلم...

وتخاطب السورة نبينا عليه الصلاة والسلام قائلة: إن ما وقع ليوسف من محن وابتلاءات سيصيبك يا محمد، فلست أول المبتلين، فلقد كان لك في يوسف والأنبياء إسوة، فكما قاطعتك عشيرتك وحاصرتك في شعاب الجبال، نفي يوسف وأبعد عن أبيه سنوات، وعاش العبودية، وسيخرجك قومك من بلدتك ويهمون بقتلك، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال:30]، امتحن يوسف بالسجن ظلما، وصبر ثم بعد ذلك انتصر، فكذلك أنت يا محمد سينصرك الله عليهم، وهذا من التشابه إلى التطابق بين القصتين، حيث ترسم الخاتمة صورة تمكن يوسف من إخوته وعفوه عنهم، كما سطر بألوان الفخر والعز إحسان النبي لقريش قائلا: "يا معشر قريش ما ترون أني فاعل بكم؟ قالوا: خيرا. أخ كريم وابن أخ كريم،

قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء"[1]، تشبها بيوسف، ولذلك لا عجب أن وصفت (سورة يوسف) في أحد الآثار، بأنها إضافة إلى سورة مريم مما يتفكه به في الجنة، وبأنه "لا يسمع سورة يوسف محزون إلا استراح إليها"[2]، لما فيها من التنفيس عن المكروب، ومواساة للمحزون وتخفيفا عنه.

2. دفع الملل.

أورد الطبري أن هذه السورة نزلت لأسباب متعددة؛ ومنها أنها جاءت جوابا "المسألة أصحابه إياه أن يقصَّ عليهم"[3]. وقيل: لسؤال اليهود. يعضد الرأي الأول ما جاء عن سعد في قول الله عز وجل: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾. قال: أنزل الله القرآن على رسول الله ﷺ فتلاه عليهم زمانا، فقالوا: يا رسول الله لو قصصت علينا، فأنزل الله: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ إلى قوله نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾، فتلاها رسول الله ﷺ زمانا، فقالوا: يا رسول الله لو حدثتنا، فأنزل الله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا﴾ [الزمر:23].

يعضد السبب الثاني ما جاء في الأثر: "فقد روى أن علماء اليهود قالوا لكبراء المشركين: سلوا محمداً لم انتقل آل يعقوب من الشام إلى مصر؟ وعن قصة يوسف أَنْزَلْناهُ: أنزلنا هذا الكتاب الذي فيه قصة يوسف في حال كونه قُرْآناً عَرَبِيًّا"[4].

وسواء تعددت أسباب النزول أم توحدت فإنه لا بد من التأكيد على القضايا التالية:

أولا: قلة وخلو قصة يوسف من الأحكام التي تتعلق بالأوامر والنواهي، والحلال والحرام، ولعل الحكمة في ذلك كي لا "يشغل سماعها القلب"[5]، وتكون سببا في تسرب الملل إلى النفوس كما بينت أسباب نزولها، فعن عون بن عبد الله: مل أصحاب رسول الله ملة فقالوا:

---

(1) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، ج8، ص18.

(2) معالم التنزيل في تفسير القرآن، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، ج4، ص212.

(3) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، أبو جعفر، محمد بن جرير الطبري، ج15، ص552.

(4) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، محمود الزمخشري جار الله، ج2، ص440.

(5) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الألوسي، ج7، ص70.

يا رسول الله حدثنا، فأنزل الله تعالى:﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾[الزمر:31]،، قال: ثم إنهم ملوا ملة أخرى، فقالوا: يا رسول الله فوق الحديث ودون القرآن، يعنون القصص، فأنزل الله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ [يوسف:3]، فأرادوا الحديث فدلهم على أحسن الحديث، وأرادوا القصص فدلهم على أحسن القصص»[1]. وهذا النوع من التحول بالقصة فيه إنعاش للنفوس، ودفع لها نحو التأسي بالمقصوص والاعتبار بحاله، من جهة ما لاقاه من الويلات، وما وصل إليه من العز والسؤدد.

ثانيا: الآيات المرتبطة بالأحكام في سورة يوسف لا تتجاوز "اثنتان وعشرون آية"[2]، وفق ما ذكر ابن العربي من أصل مائة وإحدى عشرة آية.

المبحث الثاني: فقه الاستخلاف والتغيير في المشروع العمراني اليوسفي.

المطلب الأول: تغيير الأفراد أو تغيير الأنفس.

إذا كان التغيير والإصلاح هو الهدف والغاية، التي اتفق على نشدانها دعاة الإصلاح قديما وحديثا، وكانت أعز ما يطلب لديهم؛ فإن وحدة الهدف لم تحجب عنهم اختلافهم في بيان طرائق التغيير، وأشكاله ومنطلقاته ومجالاته وأولوياته؛ فمنهم من راهن على التغيير السياسي واعتبره المدخل الحقيقي في التغيير؛ مستغلا ما تتيحه الانتخابات وصناديق الاقتراع من تعبيد لطريق النمو والارتقاء، ومنهم من اعتبر التغيير الثقافي بشموليته، وامتداداته العلمية والاجتماعية والفنية والأدبية جوهر الفكرة الإصلاحية؛ معتبرا أن مشكلة الأمة اليوم فكرية وليست سياسية؛ مؤكدا أن الخلل السياسي ما هو إلا امتداد للخلل الفكري والتربوي. وتشكل من هذه الاتجاهات فروعا؛ منها من جعل غاية إصلاحه قائمة على إصلاح الاعتقاد، ومنهم من اهتم بالجانب السلوكي، ومنهم من اهتم بالدعوة والفكر...وكانت هذه المشاريع والتخصصات في غالبها ذات أثر محدود. غير أن الرؤية اليوسفية القرآنية اتسمت بالعمق والشمولية؛ فهي عميقة من حيث نتائجها وآثارها، وشاملة من حيث امتداداتها النفعية؛

(1) أسباب نزول القرآن، أبو الحسن علي الواحدي النيسابوري، ص270.

(2) أحكام القرآن، ابن العربي، ج3، ص35.

وفيما يلي عرض لأهم معالم الإصلاح اليوسفي، المنطلقة من النفس باعتبارها محل التغيير وموطنه، "فالإنسان هو أساس العمران"[1]، فإذا كان مراد الله من بعثة الأنبياء وإنزال الكتب هو حفظ نظام العالم وصلاحه واستقامة أحواله؛ فإن ذلك لا يستقيم إلا من خلال إصلاح الإنسان المهيمن عليه بتعبير ابن عاشور (الإنسان)؛ هذا الأخير هو أساس إصلاح المجموع وعليه يتوقف؛ لأن المجتمع هو في نهايته جماعة من الناس،" فلا جرم كان إصلاح المجتمع متوقفا بادئ الأمر على إصلاح الأفراد"[2]، ولا عجب أن يكون الخطاب القرآني صريحا في أولوية إصلاح النفس ومركزيتها في أي إصلاح حقيقي، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد:12]، فما هي تجليات إصلاح الفرد في المشروع الاستخلافي اليوسفي؟

نقطة الانطلاق في تغيير الأنفس في هذا المشروع تقوم على إصلاح الاعتقاد؛ فهو أول ما اهتم به النبي الصدِّيق في مشروعه العمراني على المستوى الروحي، كون العقيدة تمثل نظرة الإنسان إلى الكون والوجود بأكمله، ورؤيته لعالمي الغيب والشهادة، لأجل ذلك فهو "أعظم سبب لإصلاح الخلق"[3].

وقد كان مسرح هذا التغيير هو السجن، بأيامه وسنواته وحواراته المتعددة بين يوسف والسجناء، وكانت الغاية الكبرى من البدء بهذا المقصد الأعظم في الشريعة هي: "بناء الإنسان الخليفة العدل"؛ بإصلاح اعتقاده، وتصحيح تصوراته، باعتبار ذلك ركيزة الإصلاح الشامل والعميق، فمتى استقامت عقيدة الإنسان كان في خدمة العمران صلاحا وإصلاحا، وقد سلك الصديق في سبيل ذلك مسلكين؛ هما مسلك "التعليل"، ومسلك "التفصيل والبيان"، وأستعير المصطلح من ابن عاشور- رحمه الله- لكن برؤية مختلفة وموجهة.

فأما التعليل فهو منهج رام من خلاله يوسف عليه السلام بناء عقلية علمية تستند إلى الدليل والبرهان فيما يصدر عنها من مواقف، بحكم أنه(المنهج): "يزيل عن النفس عادة

---

(1) الفطرية، فريد الأنصاري، ص168.

(2) أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، محمد الطاهر بن عاشور، دار السلام، 2005م، ص39.

(3) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، ج1، ص40.

الإذعان لغير ما قام عليه الدليل، ويطهر القلب من الأوهام، الناشئة عن الإشراك والدهرية وما بينهما"[1]، إلى استدعاء العقول من أجل النظر والتفكير، باعتماد الحجج والبراهين من أجل الاستدلال على وجود الله تعالى، وهذا التقرير وفاء للوظيفة التعقلية للقصة كما قررنا سابقا.

أما التفصيل فمن خلال بيان زيف معتقداتهم وفساد منطلقاتهم، وإعلان فضائح أغلاطهم، قال تعالى: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [يوسف:37]، وهو يقصد دين أهل مصر الذي قام على الشرك، محاولا اجتثاث الشرك من جذوره، فقال: ﴿مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [يوسف:38].

والعلاقة الرابطة بين المسلكين راجعة إلى كون التعليل في حقيقته مكمل لمسلك التفصيل ومبين له.

تبرز المقارنة العقلية التعليلية "اليوسفية" صريحة في قوله تعالى:﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف:39]، فهذه الآية هي بمثابة تمرين للعقول يدفعها إلى التفكير وإعادة التفكير، وتشغيل واستدعاء أدوات النظر في الأنفس والآفاق استجلابا للحقيقة، قال تعالى:﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:40]. ولا تؤتي الدعوة ثمارها وتحقق نفعها، إلا عبر برهان عقلي ينطلق من الغيب ليبرهن على عالم الشاهدة، ليكون ذلك دافعا إلى التخلق بخلق التوحيد، لذلك حين طلب إليه تفسير حلم السجينين، كما حكى القرآن الكريم:﴿قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْراً وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنْ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:36]، لم يتعجل يوسف في الإجابة على سؤالهما؛ لأنه نبي مأمور بالتبليغ، بل استغل حاجتهما إلى المعرفة، مستندا إلى الثقة وحسن الظن الذي يكنانه لشخصه، المتمثل في قوله تعالى:﴿إنا نَرَاكَ مِنْ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:36]،

(1) نفسه، ج1، ص40.

لتمرير عقيدة التوحيد ابتداء، فكأننا به يجيب فيقول: "فاسمعوا أولا ما يتعلق بالدين لتهتدوا"[1]، ولضمان نجاح مسعاه احتاج يوسف إلى البرهنة عن معتقده بأدلة يعرفونها ويلمسونها ويشاهدونها، وهو ما سيوظفه من خلال التفصيل في طبيعة الإله الواحد، وقدراته ذات المنحة الربانية. فهؤلاء أناس لهم معتقد وبين أيديهم في هذه اللحظة آلهة تعبد، ويوسف يريد إقناعهم بإله غيبي قاهر قادر متجبر، فاستثمر الموجود الذي يدركونه، والمتاح الذي لم يكن سوى الطعام، في بيئة تغيب عنها الشمس والسهول والجبال والدواب؛ مجال التفكير من داخلها محصور محدود، فبادرهم بالمحسوس الذي هو الطعام، قائلا:﴿قَالَ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا﴾ [يوسف:37]، أي سأخبركم بنوعه وشكله ومذاقه وطبيعته ولونه، جامعا بين علمي الدنيا والدين، فعلم الدنيا متمثل في"علم التأويل والتفسير والإحاطة من جهة"، والعلم "بنوع الطعام"، وعلم الدين ممثلا في "التوحيد"، ومصدر هاذين العلمين هو الله عز وجل؛ الذي هو محور المحادثة، حتى إذا تأكد صدق ما أخبرهم به، لم ينسبه لنفسه، بل للخالق: ﴿ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾ [يوسف:37]، فمصدر العلم هو الله " لا كهانة ولا سحر"، مما يدل على أن لفظ "ربي" سيثير حفيظة هؤلاء الذين أصبحت نفوسهم مهيئة لقبول دعوته، من بعد ما رأوا من الآيات والدلائل، وهنا سيعمد يوسف إلى المقارنة بين إلهه وآلهتهم، فآلهتهم متعددة متفرقة" في الصغر والكبر والشكل والعدد"، وهي أسماء من صنعهم وصنع أجدادهم، لا سلطان لها ولا قدرة.

أما إله يوسف فهو إله المرسلين، وهو إله واحد غير متعدد. لذلك قال اتبعت ملة آبائي إبراهيم، ولا شك أن القوم سبق إلى علمهم من يكون إبراهيم وإسحاق... وكأنه يقول لهم: استدعوا عقولكم؛ كيف يمكن عقلا أن يجتمع إلهان في كون واحد؟ أليس هذا مما يستحيل عقلا؟ مخاطبا فطرتهم؛ لأن" آلهة متعددة تعني تعدد الإرادات؛ فهذا يريد شيئا والآخر يريد عكسه، وذلك لا يريد، لذلك حسم الحق هذه الشبهة بقول:﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ

(1) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، ج9، ص191.

لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء:29]، فأشار بالتفرق لينقدح ذلك في عقولهم، ليتدرج يوسف إلى ترسيخ اليوم الآخر باعتباره أصل الأصول كلها؛ وذلك تعليل لما قبله أي: علمني ذلك لأني تركت ملة أولئك"[1].

وهو إله حكيم حاكم أمركم بعبادته وحده، وتوحيده هو الدين المستقيم الذي لا اعوجاج فيه، وإلا انتفى عنكم العلم والعقل، فانطلق الصديق في برهنته الغيبية من المشاهد المحسوس إلى الغيبي، "وإنما قال يوسف عليه السلام لهما بهذا، ليحصل الانقياد منهما له فيما يدعوهما إليه بعد ذلك من الإيمان بالله والخروج من الكفر"[2]، وهو ما كان بالفعل.

المطلب الثاني: في أصول الإصلاح الاجتماعي.

بعد أن قام يوسف عليه السلام بإعداد قادة من المؤمنين، مستغلا فترة السجن بطولها (أقلها خمس سنوات) لترسيخ عقيدة التوحيد ونبذ الشرك، نستطيع أن نجزم أن هذه المرحلة شكلت فرصة ذهبية ليوسف عليه السلام لصناعة نخبة التأسيس، أو" شريحة التغيير" التي هي: "الأداة الأساسية القادرة على إحداث التغيير"[3]، وقد اعتمد الصديق المدخل الاقتصادي أساسا للإصلاح السياسي، أو الإصلاح الشامل أو المجتمعي بالتعبير الحالي. فما هي معالم هذا الإصلاح؟

فإذا كانت أعمال الإنسان جارية صلاحا وفسادا على حسب تفكيرهم، فبعد أن تمكن الاعتقاد السليم من قلوب العامة في السجن، ستعرف رحلة يوسف الإصلاحية منعطفا جديدا، يتمثل في الاحتكاك المباشر بالسلطة وما تجمع تحتها من اقتصاد وإدارة، حيث يشكل المدخل الاقتصادي سبيل الإصلاح الشامل والعميق الذي سيتبناه الصديق في رحلته الاستخلافية، ولا غرابة في ذلك، فطالما كان الاقتصاد عصب وسر قوة الاستمرارية السياسية قديما، بل إلى اليوم، ولا عجب أن يسهب القرآن ويفصل في ذكر أطوار قصة هي من أكبر القصص وأعمقها حكما؛ تبين كيف يؤثر زواج المال بالسياسة في صناعة الاستبداد، حيث

---

(1) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ناصر الدين أبو سعيد الشيرازي البيضاوي، ج3، ص164.

(2) فتح القدير، محمد بن علي الشوكاني، ج3، ص32.

(3) قواعد في الممارسة السياسية، جاسم سلطان، ص144.

يرشدنا القرآن الكريم إلى أن التغول السياسي ما كان له أن يتمدد ويستشري إلا برافعة اقتصادية، لأجل ذلك كان لبنة مهمة في التمكين للمشروع الإصلاحي اليوسفي ورسوخه.

وقد استند يوسف الحفيظ العليم إلى إصلاح الاقتصاد كسبيل ومنهج في إصلاح الملك والسلطان، ودعوة الناس إلى التوحيد. فلقد كانت رؤيا الملك بغرابتها وعجز المستشارين والمقربين من المعبرين والكهنة والمنجمين والسحرة عن تعبيرها، سببا في تذكر السجين السابق، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:45-46]، فما كان من يوسف إلا أن استجاب مباشرة لطلب الساقي وقام بتفسير الحلم، بل زاد عليه أن اقترح الحل، مما يسمى اليوم إدارة الأزمة الاقتصادية؛ ممثلا في قوله تعالى: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّا تَأْكُلُون ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّا تُحْصِنُونَ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ [يوسف:47-49].نقف مع هذه الآيات تفسيرا وبيانا، ونستخلص منها الخطة التي اعتمدها يوسف لتجنيب مصر القحط، والمساهمة في إنقاذ المناطق المجاورة؛ حيث اعتمد يوسف اسراتيجية قائمة على أمور، منها:

أولا: التخطيط.

وهو: "وضع خطة مدروسة للنواحي الاقتصادية والتعليمية والإنتاجية"[1]؛ إذ يعتبر من الطرائق العلمية التي تهدف "لمواجهة احتمالات المستقبل وتحقيق الأهداف المنشودة"[2]، أو هو" الإشراف على عوامل الإنتاج وتوجيهها لتحقيق أهداف معينة"[3]. إذن فالتخطيط منهج علمي يقوم على دراسة الاحتمالات من أجل حل الأزمات، وسورة يوسف

---

(1) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، مجموعة من المؤلفين: إبراهيم مصطفى، أحمد الزيات، حامد عبد القادر، محمد النجار، ج1، ص244.

(2) الرسول والعلم، يوسف القرضاوي، دار العدالة، 2021م، ص44.

(3) أصول التخطيط الاقتصادي، وليم أرثولويش، ترجمة مجدي القماش، ص1، -من تصدير الكتاب-.

مليئة بهذا المنهج العلمي الرصين، غير أننا نميز فيه بين نوعين من التخطيط؛ هناك التخطيط الماكر السيئ، ويمثله الإخوة وزوجة العزيز. والتخطيط العلمي الاقتصادي الكبير في خطة يوسف باعتباره مسلكا قرآنيا ونبويا، على اعتبار أن القرآن بعقائده وقصصه وأمثاله قائم على التخطيط للمستقبل، فنقرأ القصص لنضع لأنفسنا منهجا نستفيد من خلاله من أخطاء شخوصها، ونستثمر نجاحاتهم لتحقيق طموحاتنا، وقصة يوسف أكبر مثال على هذا النوع من التخطيط المحكم باقتراحه وإشرافه، قال تعالى: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف:55]. حيث سن ما يسمى بالخطة "الخمس عشرية" كخطة رشيدة لمواجهة الجفاف.

ثانيا: فعالية استراتيجية التنفيذ.

وتجلت هذه الاستراتيجية من خلال أمور، منها:

1) تحفيز عناصر الإنتاج

وهو ما عبرت عنه الآية، من قبيل قوله تعالى:﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً﴾ [يوسف:47]؛ أي تزرعون بجد واجتهاد كدأبكم؛ "كعادتكم"، بل وزيادة. قال الخازن:" وقيل ازرعوا بجد واجتهاد"[1]. قال الألوسي في معنى الدأب: "وأصل معناه التعب، ويكنى به عن العادة المستمرة؛ لأنها تنشأ من مداومة العمل اللازم له التعب"[2]، والاستمرارية في الزراعة دون توقف، وذلك ما فهمه صاحب المنار حيث قال: "فأوجب عليهم الشروع في زراعة القمح دائبين عليه دأبا مستمرا، كما قال تعالى:﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ﴾ [إبراهيم:33]، سبع سنين بلا انقطاع"[3].

---

(1)لباب التأويل في معاني التنزيل، أبو الحسن، المعروف بالخازن، ج2، ص532.

(2) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ج6، ص444.

(3) تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، محمد رشيد رضا، ج12، ص263.

2) الادخار أو التخزين

يعتبر التخزين من المشاكل القديمة التي واجهت المجتمعات الزراعية وهي تسعى لضمان أمنها الغذائي، ولا زال إلى اليوم يرخي بظلاله وتحدياته. شرح يوسف الصديق عملية الادخار بعبارات وجيزة، تحمل دلالات عظيمة معرفيا وعلميا، وشكلت مرجعا إلى اليوم في المجال الزراعي، وكيفية إدارة حفظ المنتوج، قال تعالى: ﴿فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦ﴾ [يوسف:47]، وقد أشارت الآية إلى إعجازين علميين:

أولهما: هو أن الإبقاء على الحب في السنبل يجعله محفوظا، لا يتسرب إليه السوس والفساد والرطوبة، فمعلوم أن الزرع إذا فصل عنه الساق لن يصمد طويلا، فحمل هذا التوجيه النبوي من الإعجاز العلمي ما يبعث على العجب، كما أثبتت الدراسات -على المستوى الغذائي- أن نسبة البروتينات والسكريات التي توجد في الحبوب السنبلية أفضل من غيرها؛ أي من التي فصلت عن الساق، يقول أحد الباحثين:" الحبوب التي تبقى محفوظة في السنابل يبقى محتواها من البروتينات والسكريات العامة من دون تغيير أو نقصان، أما الحبوب التي تعزل من السنابل فتتقلص كمية البروتينات بنسبة ٪32 مع مرور الوقت؛ أي بعد سنتين، وبنسبة ٪20 بعد سنة واحدة، ولكن نسبة السكريات لم تختلف معنويا"[1].

وثانيهما متعلق بمدة صمود الحب ومقاومته للفساد؛ حيث أثبتت الدراسات "أن أقصى مدة الإبقاء على الزرع في السنبل هو 15 سنة، وهي المدة القصوى لاستمرار الحبوب محافظة على طاقة النمو والتطور فيها"[2]، وهنا تجلت عبقرية الصديق الذي اتجه إلى بناء المخازن والصوامع لحفظ الغلال. من جهة أخرى لم يهتم يوسف عليه السلام بحياة الآدميين فقط بل أسهم أمره "ذروه في سنبله" في حفظ حياة البهائم؛ وهي عنصر مهم في الزرع والحرث وحمل الأحمال، والتنقل في الصحراء والمساهمة في الاقتصاد، فكان: "الحب

---

(1) فذروه في سنبله، عبد المجيد بلعابد، المؤتمر العالمي الثامن للإعجاز العلمي في القرآن والسنة، ص108، .https://almoslih.net

(2) نفسه، ص 103.

لغذاء الناس، والتبن لغذاء البهائم والدواب"[1]. على ماذا يدل هذا التخطيط اليوسفي؟ في الحقيقة يشير هذا الإجراء إلى حقائق منها:

1. **إن يوسف صاحب عقلية علمية**، ولربما توفرت في أتباعه؛ لأن عظمة هذا العمل يقتضي وجود علماء يهتمون بالنبات والزراعة.

2. **وجود مهندسين لهم تصور عن كيفية الحفظ**؛ كي لا تتسرب الرطوبة إلى المحصول فيفسد العمل بأسره؛ لأن سر نجاح يوسف عليه السلام هو في قوله: "فذروه في سنبله"، وكيفية تشييد المصانع والأهرامات التي ستحفظ الزرع، يقتضي كل ذلك المعرفة بالجغرافيا والطقس، وطبيعة التربة، ومدى صلاحيتها من عدمه، مما يحتم على يوسف وهو يسعى لتحقيق الاكتفاء الذاتي أن يقوم باستصلاح واسع للأراضي، وأن يختار أفضل أنواع البذور، وأن يشجع العمل ويحارب البطالة، وأن يمنح الفلاحين أراضي في ملكية الدولة من أجل إحيائها واستصلاحها ومساعدة الفلاحين في ذلك؛ مما يقتضي تدخلا مباشرا للدولة في دعم الفلاح، هذا الأخير الذي سيجعل منتوجه عند حصاده في خدمة مشروع الأمة، الذي يشرف عليه يوسف عليه السلام، وفوق ذلك كله تحذير الفلاحين من خطورة الأزمة المستقبلية وإقناعهم بذلك، كل ذلك جعل الانتاجية تزيد أضعافا قدرها أحد الباحثين بـ "حوالي 400٪"[2].

3. **إدارة الموارد البشرية؛** فعمل بهذا الحجم يحتاج إضافة إلى خبراء وبنائين...يحتاج إلى جند للحراسة وإلى فلاحين مهرة، مع استثمار الوقت المتاح والمال فيما يتعلق برواتب الموظفين واليد العاملة كل حسب اختصاصه، والساهرين على حساب وعد المخزون...أو ما يسمى إدارة التموين والتوزيع، والسهر على مراقبة الأوزان وتجهيز الأوزان للمكتالين وتفقد الأوعية، وتخصيص البعير بالكمية المطلوبة دون تجاوزها، وقد سلك يوسف الصديق خطة استهلاكية عجيبة في سنوات القحط؛ حيث استغل المنتوج الذي تم حصاده في السنة

---

(1) تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، ج2، ص263.

(2) سورة يوسف، دراسة تحليلية، أحمد نوفل، ص414.

الأولى ليستهلك في سنة الجذب الأولى، والمنتوج الخاص بالسنة الثانية يستهلك في السنة الثانية للجذب وهكذا، وذلك ما نبّه عليه عديد من المفسرين، وفي ذلك يقول أحد الباحثين: "ويؤكل الأقدم فالأقدم، فإذا جاءت السنون الجدبة تقوت الناس الأقدم فالأقدم من ذلك المدخر، وادخروا أيضا الشيء الذي يصاب في أعوام الجدب على قلته"[1].

كما يوحي هذا التدبير إلى علم يوسف بالعوامل التي تؤدي إلى فساد المحصول، وهي كثيرة منها: "عامل الزمن، والحرارة، ونسبة الرطوبة وهو العامل الأكثر أهمية في حفظ الحبوب من التلف والفساد، نسبة الأكسجين"[2].

4. **إدارة الاستهلاك أو الموازنة بين الإنتاج والاستهلاك؛** ﴿إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّا تَأْكُلُونَ﴾؛ حيث أمر الصديق بترشيد الاستهلاك، قال القرطبي: "أي استخرجوا ما تحتاجون إليه بقدر الحاجة"[3]؛ أي تقسيم المنتوج بين الاستهلاك والادخار؛ يقتضي تخصيص الحيز الأكبر للادخار وتخصيص الحيز الأقل للأكل؛ لأن السنوات التي تلي الرخاء ستكون مجحفة شديدة، قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ [يوسف:48]؛ وهي من المعادلات الصعبة في التدبير الاقتصادي اليوم، ولا تحسنه معظم الدول بكل خبرائها ومواردها وطاقاتها وإنتاجاتها، وقد استندت الخطة على قاعدة كبرى من قواعد الإسلام ألا وهي: "التوسط والاعتدال"، مع "مراعاة القصد والاكتفاء بما يسد حاجة الجوع، فإن الناس يقنعون في سني الخصب والرخاء بالقليل"[4]، وقد كان يوسف يضرب المثل في التقشف من نفسه أولا مما ساعده على النجاح في خطته. كما عمل على تخزين الفائض لسد العجز الغذائي في المستقبل وذلك أمر صعب؛ ففي بلدنا المغرب نستورد مثلا ما بين 60 إلى 75 مليون قنطار من الحبوب"[5] من الولايات المتحدة وكندا وأوكرانيا، علما أن أفضل ما

---

(1) المحرر الوجيز، لابن عطية الأندلسي المحاربي، ج3، ص253.

(2) انظر: فذروه في سنبله، عبد المجيد بلعابد، ص104.

(3) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، ج9، ص203.

(4) تفسير المنار، ج12، ص263.

(5) مقال بموقع بلادنا 24، مريم الأحمد بتاريخ 14 أبريل 2022م.

يمكن أن يصل إليه انتاجنا في أحسن أحواله هو "51.5 مليون بزيادة 62 في المائة عن السنة الفارطة (2022)"[1].

5. الإحصاء: لتنجح الخطة اليوسفية لابد من اعتماد آلية الإحصاء؛ "بحيث يعتمد التخطيط على الإحصاء"[2]، وقد بنى يوسف إدارته للأزمة على تنبؤات مستقبلية قائمة على الاحصاءات العلمية الدقيقة ممثلة في إحصاء ما يلي:

أ- عدد أفراد الشعب المصري وحاجياته في اليوم والليلة، ليتصرف في الاستهلاك بناء على ما سيترجح لديه.

ب- اليد العاملة المؤهلة التي ستساعده في القيام بدوره بكل إتقان.

ج- الشعوب المجاورة التي ستحج إلى مصر طلبا للميرة؛ لأنهم تأثروا بالقحط كذلك "فلما جاء الجدب؛ لم يَأْتِهَا وحدها(مصر)؛ بل عَمَّ البلاد التي حولها، بدليل أن هناك أُنَاساً من بلاد أخرى لجئوا يطلبون رزقهم منها"[3]، حيث ستصبح مصر محجا للقبائل والمدن والقرى المجاورة، ومن هؤلاء الذين ستسوقهم حكمة الله إليه إخوته، ليقضي الله أمرا كان مفعولا، قال تعالى: ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ﴾ [يوسف:58].

المبحث الثالث: القيم الأخلاقية التي شكلت الشخصية الاستخلافية ليوسف عليه السلام.

المطلب الأول: قيم ما قبل الولاية والسلطان.

المتأمل لقصة يوسف بما هي أحسن القصص، يلحظ بجلاء ذلك الكم النوعي على مستوى القيم، فالسورة غنية بالقيم الأخلاقية، بأسلوب وقالب فني يأخذ بالألباب، تدافع قيمي بين الخير والشر، بين الفضيلة والرذيلة، والوفاء والغدر، وبين الخيانة والأمانة، الممتع أكثر أن قيم الخير هي المنتصرة في الأخير، وقيم صاحبها هي الجديرة بالخلود.

---

(1) موقع العربية، بتاريخ 29 أبريل 2023.

(2) الرسول والعلم، يوسف القرضاوي، ص43.

(3) تفسير الشعراوي –الخواطر، محمد متولي الشعراوي، ج11، ص7001.

لقد ارتبطت شخصية البطل بقيم النبل؛ فجمع إلى جمال الظاهر جمال المَخبَر والباطن؛ فهو الصدوق الرحيم، العفو المتسامح، الصبور التقي النقي، العفيف الوفي الكفء.. استقراؤنا لهذه القيم، يدفعنا إلى القول باطمئنان أن صفتي الأمانة والعلم ليستا إلا تتويجا لقيم النبل التي اكتسبها طيلة مساره الدعوي والحياتي؛ سواء في علاقته بإخوته، أو في بيت عزيز مصر، أو في علاقته بالسجناء، أو حتى في ولايته العامة على شؤون الاقتصاد والدولة.

وفي هذا المبحث سأقتصر على بعض الصفات، التي أهلت يوسف لهذا المنصب السامي، فمن خلال تتبع أحداث أحسن القصص نجد أن يوسف عليه السلام، نجح على المستوى الاجتماعي، والأسري، ثم العلائقي من خلال بيئة السجن. فعلى المستوى الأسري تبرز العلاقة بين الأب وابنه الصغير قائمة على الحب والاحترام والتقدير، والخطاب القرآني يجسد ذلك من خلال إشراك الطفل الصغير أباه في ما يهمه ويحسه، قال تعالى:﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: 4]، نحن أمام ابن صغير يتسلل إلى قلب والده من باب الأدب والنباهة والاصطفاء، وهو ما يعكس رد الوالد المحب الحريص الموجه: ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ﴾ [يوسف:5]، تلك العلاقة التي لم تستسغها عقول الإخوة؛ هؤلاء الذين وصفتهم القصة في غير ما موضع "بالعصبة"، قال تعالى:﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾[يوسف:8]، وقال تعالى:﴿قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذاً لَخَاسِرُونَ﴾ [يوسف:14]، إنهم مزهوون بقوتهم وصلابتهم، متميزون بالعقوق وقطيعة الرحم؛ ظهر عقوقهم من خلال وصفهم لأبيهم النبي بالضال في قوله تعالى:﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ [يوسف:8]، وهو ما أكدوا عليه في آخر السورة حين وصلت ريح يوسف إلى يعقوب قائلين: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ﴾ [يوسف:92]. وقطيعة الرحم ممثلة في التخلص من يوسف في قوله تعالى: ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْماً صَالِحِينَ﴾ [يوسف:9-10]. التفكير في التخلص من يوسف إنما لاعتقادهم تفضيله عليهم من طرف أبيهم، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ [يوسف:8]، وهم وإن فاقوا يوسف في القوة

والشوكة، فإن يوسف فاقهم في الفطنة وحسن الأدب، الذي بينه القرآن من خلال محاورته لوالده، فيعقوب نبي؛ ولا يمكن أن يميز بين أبنائه بناء على هوى وكبر، بل إن محبة يوسف وأخيه كانت على أساس الأخلاق، لذلك فهو يحب الجميع، لكن الأفضل هو يوسف، وقد ورد الأمر باسم التفضيل "أحب"، وهذا الحب ليس من التفرقة المنهي عنها؛ التي هي التفرقة في العطايا والهدايا والمنح كما جاء في الحديث النبوي، بل راجعة إلى المشاعر والقلوب التي لا سلطان للعقل عليها؛ لأنها لا تُمْلك كما ذهب إلى ذلك كثير من المفسرين، وقد كان الرسول يقول: «اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك، ولا أملك»[1].

وإذا كان التمكين الإلهي للعبد لايتم إلا بعد أن يبتليه بابتلاءات صعبة فيخرج منها منتصرا على نفسه قبل غيرها، فإن ابتلاءات الله ليوسف عليه السلام متعددة نذكر منها:

الابتلاء الأول:

هو الإغراء والإغواء، وبطلة هذا الابتلاء هي زوجة العزيز، قال تعالى: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾ [يوسف:23]، إضافة إلى نسوة المدينة، حيث يمثلن في القصة طبقة مترفة من علية القوم. قابل يوسف هذه المحنة بصبر عن المعصية، وفي هذه المشاهد تطفو قيمة "العفة والحياء والاعتصام بالله، واللجوء إليه واستشعار مراقبته"، من جهة أخرى تظهر حقوق العباد ممثلة في الوفاء وعدم الخيانة؛ حيث حفظ يوسف شرف عزيز مصر معترفا بفضله وإكرامه.

الابتلاء الثاني:

وهو محنة السجن، وهي محنة صبر فيها يوسف على الابتلاء في السجن ظلما، ومع السجن تتفتق معاني السمو الأخلاقي اليوسفي، فتتجلى شخصية الرسول الداعية الرحيم المعترف بفضل الله المحب الخدوم. تصور لنا الآيات مشهدا ينم عن مركزية يوسف ومحوريته؛ فهو ملجأ السجناء، ومخفف آلامهم وأحزانهم، قال السدي: "وكان يوسف قد

---

(1) مسند الدارمي، كتاب النكاح، باب القسمة بين النساء، رقمه 2253، ج3، ص1416.

اشتهر في السجن بالجود والأمانة، وصدق الحديث وحسن السمت وكثرة العبادة"[1]، ولعل الوقوف بجانب المرضى والضعفاء ونصحهم، له الأثر الأكبر عليهم حتى من سماع مواعظ كثيرة وخطب رنانة، فالتأثير بالفعل يدخل إلى القلوب من غير استئذان. وفي السجن تبرز قيمة الحرص على الضعفاء ودعوتهم إلى الخير، حيث يتحول السجن من وسيلة للعقاب إلى أداة للنجاة وتبليغ دين الله عزوجل، وتكوين طليعة التغيير المتخلقة بخلق التوحيد في انطلاقة جماعية نحو التمكين.

الابتلاء الثالث:

وتمثل في بغض إخوته له وسعيهم لإبعاده عن أبيهم، فما كان منه إلا مقابلة إساءتهم له بالصفح الجميل، عندما جاؤوا خاشعين متضرعين طالبين جوده، فأكرمهم وما انتقم لنفسه، بل سارع إلى مسامحتهم، قال تعالى: ﴿قَالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف:91-92]، حيث برز خلق العفو والتسامح، والرحمة بالمخطئ والتجاوز عنه، فغفر لإخوته رغم ما لاقاه بسببهم من عذاب وتشرد وابتعاد عن الأب والأهل، بل سامحهم في أدب جم غفير، حين نسب فعل الإبعاد إلى الشيطان، قال تعالى:﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنْ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنْ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ [يوسف:100]. إذن فالقيم المستوحاة من هذه المشاهد بين يوسف وإخوته هي قيم: الأمانة والصدق والصبر والتقوى والرحمة والإكرام والعفو والتسامح.

المطلب الثاني: الأمانة والعلم صفات الوالي الخليفة.

بعد أن خرج يوسف من السجن، واستطاع أن يعبر رؤيا الملك التي عجز عنها المعبرون وكبار المستشارين، وبعد أن تبينت براءته اقترح يوسف عليه السلام على الملك أن يوليه خزائن الدولة، ﴿قَا لَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف:55]،

---

(1) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ج4، ص332.

والمقصود بالحفظ هو الأمانة: "أحفظ ما تستحفظنيه"[1]، أي إنه أمين فيما استرعى عليه من أموال وخزائن، والمقصود بالعلم أنه عالم بكيفية التخزين وطريقته والأصلح له، وقيل: "عليم بالألسن"[2]، أي: بلغات الأقوام بما يسهل عملية التواصل مع القادمين لمصر من أجل الميرة. والأمانة والقوة هما جماع صفات الخير المطلوبة في كل من ولي من أمر الدولة شيئا، وعلل طلبه ذلك بقوله: إني حفيظ عليم، المفيد تعليل ما قبلها لوقوع (إن) في صدر الجملة؛ فإنه علم أنه اتصف بصفتين يعسر حصول إحداهما في الناس بله كلتيهما، وهما: الحفظ لما يليه، والعلم بتدبير ما يتولاه"[3]، والحقيقة أن صفة القوة التي أشار إليها قوله تعالى:﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف:54]، هي صفة محورية كذلك؛ إذ الأمانات تقتضي القوة، والعلم في الحقيقة هو تجل من تجليات القوة كما أشار ابن تيمية رحمه الله تعالى، حيث قال: "القوة في كل ولاية بحسبها"[4]، بعد أن ذكر أن ركنا الولاية هما القوة والأمانة، معتبرا أن القوة لها تجليات؛ فالقوة في الحرب هي الشجاعة والإقدام، "والقوة في الحكم بين الناس ترجع إلى العلم"[5]، ولعل تخصيص القرآن ليوسف بالعلم لحساسية الموقف التي تقتضي التدقيق بدل التعميم.

وطلب يوسف عليه السلام للمنصب غايته تحقيق ثلاثة مقاصد أساسية هي:

أولا: إمضاء حكم الله ودعوة الناس إلى التوحيد.

ثانيا: إقامة العدل بين الناس.

ثالثا: الخوف من ضياع الحقوق؛ إن لم يطلب الولاية ضاعت الحقوق أو تولاها من ليس أهلا لها؛ ولأنه لا أحد يستطيع أن يقوم بهذه المسؤولية، واقتراح يوسف- عليه السلام- ذلك إعداد لنفسه للقيام بمصالح الأمة "على سنة أهل الفضل والكمال من ارتياح نفوسهم للعلم

(1) الكشاف، محمود الزمخشري جار الله، ج2، ص482.

(2) المحرر الوجيز، ابن عطية، ج3، ص256.

(3)التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، ج13، ص9.

(4) السياسة الشرعية، ابن تيمية، ص17.

(5) نفسه، ص17.

في المصالح، ولذلك لم يسأل مالا لنفسه ولا عرضا من متاع الدنيا، ولكنه سأل أن يوليه خزائن المملكة ليحفظ الأموال ويعدل في توزيعها، ويرفق بالأمة في جمعها وإبلاغها لمحالها"[1].

والعلماء في هذه القضية على قسمين: قسم يرى جواز طلب المنصب في ظل حكم وضعي، وقسم يرى الوجوب.

الذين قالوا بالجواز هم فئة معتبرة من أهل العلم؛ منهم الإمام الزمخشري، وابن عطية وابن القيم وغيرهم كثير، وحجتهم عدم اعتراض الملك الكافر على رأي الرجل الصالح، حيث يقول صاحب الكشاف بعد أن ذكر الآية: "هو دليل على أنه يجوز أن يتولى الإنسان عملا من يد سلطان جائر، وقد كان السلف يتولون القضاء من جهة البغاة ويرونه. وإذا علم النبي أو العالم أنه لا سبيل إلى الحكم بأمر الله، ودفع الظلم إلا بتمكين الملك الكافر أو الفاسق. فله أن يستظهر به. وقيل: كان الملك يصدر عن رأيه ولا يعترض عليه في كل ما رأى، فكان في حكم التابع له والمطيع"[2]، حيث ربطوا الإباحة بعدم الاعتراض على فعله، وتفويض هذا الأخير له مقاليد الملك والتدبير، وهو ما أكد عليه ابن عطية، وزاد ابن القيم أن تكون نيته تكثير ما يحبه الله ورسوله من الخير لا حظوظ نفسه، مع العلم أن الحظوة بين الناس ناجزة لحساسية المنصب.

طلب الفعل وجوبا؛ الذين قالوا بهذا الرأي علماء أجلاء من المتقدمين والمتأخرين، فمن المعاصرين ذهب ابن عاشور إلى القول بأن:" هذه الآية أصل لوجوب عرض المرء نفسه لولاية عمل من أمور الأمة، إذا علم أنه لا يصلح له غيره، لأن ذلك من النصح للأمة، وخاصة إذا لم يكن ممن يتهم على إيثار منفعة نفسه على مصلحة الأمة(...)فهو لإيمانه بالله، يبث أصول الفضائل التي تقتضيها شريعة آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب- عليهم السلام-"[3]. معتبرا أن هذا لا يعارض ما جاء في الصحاح من النهي عن طلب الإمارة. ومن قبله قال

(1) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، ج13، ص8.

(2) الكشاف، محمود الزمخشري جار الله، ج2، ص482.

(3) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، ج13، ص9.

القرطبي: "وهكذا الحكم اليوم، لو علم إنسان من نفسه أنه يقوم بالحق في القضاء أو الحسبة، ولم يكن هناك من يصلح ولا يقوم مقامه لتعين ذلك عليه، ووجب أن يتولاها ويسأل ذلك، ويخبر بصفاته التي يستحقها به من العلم والكفاية وغير ذلك، كما قال يوسف عليه السلام"[1]. وهكذا في زماننا فمن وجد من نفسه الكفاءة والقدرة على العمل، ولا أحد يستطيعه غيره توجب عليه طلبه، لذلك وجب على المؤمنين من أهل الخبرة والعلم أن يعرفوا بأنفسهم ليوصلوا إلى الفقراء حقوقهم. هذا المعطى الوجيه هو ما يجعل المسألة أقرب إلى الوجوب منها إلى الإباحة، وخصوصا في زماننا هذا الذي رق فيه حال التدين، وأصبح التهافت على المناصب بغير وجه حق هو الديدن والسائد، بل يذهب فقهاؤنا إلى أبعد من ذلك فيقرون أنه من الواجب أن يتولى الصالحون الحكم تحت ولاية المغتصبين من الكفار، حيث يتميز العز بن عبد السلام برؤية مقاصدية قائمة على الموازنة بين خير الفعل وشر الترك، فيقول: "ولو استولى الكفار على إقليم عظيم، فولوا القضاء لمن يقدم مصالح المسلمين العامة، فالذي يظهر؛ إنفاذه ذلك كله جلبا للمصالح العامة ودفعا للمفاسد الشاملة؛ إذ يُبعِد من رحمة الشرع، ورعايته لمصالح العباد؛ تعطيل المصالح العامة، وتحمل المفاسد الشاملة، لفوات الكمال فيمن يتعاطى توليتها لمن هو أهل لها"[2]، لذلك اعتبر ابن تيمية عمل يوسف من فعل الممكن، حيث قال: "فإن القوم لم يستجيبوا له، لكن فعل الممكن من العدل والإحسان، ونال بالسلطان من إكرام المؤمنين من أهل بيته، ما لم يكن يمكن أن يناله بدون ذلك، وهذا كله داخل في قوله فاتقوا الله ما استطعتم"[3].ومن الآثار؛ ما جاء عن عائشة -رضي الله عنها- أنها سئلت عن القاضي العادل إذا استقضاه الأمير الباغي،

(1) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، ج9، ص216.

(2) قواعد الاحكام في مصالح الأنام، ج1، ص121، 122.

(3) مجموع الفتاوى، شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، ج20، ص56.

هل يجيب؟ فقالت: إن لم يقض لكم خياركم قضى لكم شراركم"[1]، وفي رواية أخرى إذا لم يستعمل خياركم يستعمل شراركم"[2].

المطلب الثالث: مسألة طلب الولاية تحت حكم الكافر من جهة ما يترتب على الفعل من مصالح ومفاسد.

حقيقة عمل يوسف في ميزان المصلحة والمفسدة، أنه عليه السلام ابتغى تحقيق مصلحة لكنها ممزوجة وملوثة بالحرام أو قل الفساد. المصلحة هي: إنقاذ المنطقة من الجفاف والحفاظ على أرواح البلاد والعباد والدواب، والمفسدة هي ما يلزم ذلك من العمل تحت أو مع "حاكم كافر"، وما يستتبع الفعل من التعامل والتعايش والرضا، مع ما يشتمل عليه إعمال المنصب وتوابعه من محرمات ومفاسد ومنكرات.

هذه المسألة سنناقشها من جهة المصلحة والمفسدة؛ فنقول ابتداء إن أمور الدنيا مبنية على الامتزاج فلا توجد مصلحة خالصة، "فالمصالح المحضة قليلة، وكذلك المفاسد المحضة، والأكثر منها اشتمل على المصالح والمفاسد"[3]، والقاعدة "إذا اختلطت المصلحة بالمفسدة، فإنه ينظر إلى مقدار المصلحة عند مقارنتها بالمفسدة، فإن ترجحت المصلحة جلبت، واغتفر اليسير من المفسدة، وإذا غلبت المفسدة على المصلحة، قدم دفع المفسدة على جلب المصلحة، كما في حالة" ترك المستحب إذا كان في فعله فساد راجح على مصلحته"[4]. وراجح المسألة أن تولي المنصب هو لرجحان المصلحة، التي تقتضي اغتفار المفسدة المصاحبة بناء على زوايا متعددة منها: **أولا:** موقعها في مراتب المقاصد الشرعية؛ ففيها حفظ لضرورية المال وضرورية النفس، بل فيها تمكين لضرورية الدين؛ التي هي رأس الكليات الخمس في الشريعة، فنتحمل المفاسد الصغرى في مقابل حجم المصالح

---

(1) التلخيص الحبير، ابن حجر، كتاب القضاء، رقم 2573، ج4، ص453.

(2) نفسه، ج4، ص343.

(3) قواعد الأحكام في مصالح الأنام، ج1، ص14.

(4) مجموع الفتاوى، ابن تيمية، ج 14، ص106.

المستجلبة، وهو ما نبه عليه القرطبي –رحمه الله- حيث قال:" هذه الآية[1] أصل في القول بالمصالح الشرعية، التي هي حفظ الأديان والنفوس والعقول والأنساب والأموال، فكل ما تضمن تحصيل شيء من هذه الأمور فهو مصلحة، وكل ما يفوت شيئا منها فهو مفسدة ودفعه مصلحة»(2). وهي قاعدة كلية تعطي للاجتهاد مساحة كبيرة في اقتناص مصالح الخلق على جميع المستويات؛ الاجتماعية والسياسية والدينية والعلمية، تدفع عن الشريعة "النكاية"، وتصبغها بصبغة الصلوحية والدوام، وتجعلها مرهوبة الجانب قوية مطمئنة البال. **ثانيا:** أن ما قام به يوسف "مصلحة محضة" يقول النووي: "فمن المصلحة قول يوسف ﷺ اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم"(3)،" فيتصرف لهم على الوجه الأحوط والأصلح والأرشد"(4).

ثالثا: أنه يقصد المصلحة العامة وليس مصلحة نفسه؛ حيث "تقتضي فلسفة التشريع في الإسلام أن مصلحة الجماعة مقدمة على مصلحة الفرد عند التعارض"(5)، ويتفرع عنها قاعدة "تحمل الضرر الخاص لأجل دفع الضرر العام"، ثم إن هذا التولي من المصالح العامة، ومصلحة التنصل منه من المصلحة الخاصة، فصاحب المنصب يصيبه الضرر في نفسه، في مقابل انتفاع العموم بفعله، فنقدم الضرر الخاص دفعا للضرر العام، وما كانت مصلحته عامة يجلب ويغتفر في ذلك على ما كانت مفسدته خاصة بالآحاد؛ ولأنه "تغتفر بعض المحرمات غير المقصودة، إذا كان لا بد منها للوصول إلى إقامة المصالح العامة"(6)، مما يترجح أن المفسدة المتعلقة بالآحاد أقل ضررا من المفسدة المتعلقة بالمجموع، وتغتفر في سبيل مصلحة العموم.

---

[1](1) قوله تعالى: {فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ} [يوسف: 47]

(2) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، ج9، ص203.

(3) المنهاج شرح صحيح مسلم، النووي، ج16، ص17.

(4) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ج4، ص 339.

(5) فقه مراتب الأعمال نحو إعادة ترتيب العقلية المسلمة، سعد الدين العثماني، ص82.

(6) النظر المقاصدي في حكم تولي الولايات العامة والمناصب المهمة، أحمد الريسوني، ص13.

ثم إن الباعث على توليها رغبة الإنسان في الإصلاح، وتقليل دائرة الفساد، وجلب النفع للمجتمع، ودرء الشرور ما أمكن انطلاقا من ذلك المنصب، ويكون المتصدي لهذا الأمر "قاصدا إلى الإصلاح، وعازما على تغيير المنكر أو تقليصه ما أمكن، وتنمية الصلاح والنفع العام، وليس مجرد طالب للمنصب، لمصلحته أو لحظوظ نفسه"[1].

ومن جهة رابعة؛ أن هذا الفعل يتبع المقاصد والنيات؛ لأن المقاصد والنيات معتبرة في التصرفات، يقول ابن تيمية:" بل لو كانت الولاية غير واجبة وهي مشتملة على ظلم، ومن تولاها أقام الظلم، حتى تولاها شخص قصده بذلك تخفيف الظلم فيها، ودفع أكثره باحتمال أيسره، كان ذلك حسنا مع هذه النية، وكان فعله لما يفعله من السيئة بنية دفع ما هو أشد منها جيدا، وهذا باب يختلف باختلاف النيات والمقاصد"[2].

أما على مستوى الواقع فإن الفعل السياسي هو من استغلال الممكن والمتاح: "ولم يكن يوسف يمكنه أن يفعل كل ما يريد- وهو ما يراه من دين الله-، فإن القوم لم يستجيبوا له، لكن فعل الممكن من العدل والإحسان، ونال بالسلطان من إكرام المؤمنين من أهل بيته ما لم يكن يمكن أن يناله بدون ذلك"[3]، وهذا كله من قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن:16]. وقديما قيل: "اللبيب إذا بدا من جسمه مرضان مختلفان داوى الأخطر".

من جهة أخرى إن فسادها إن بقيت خالية من أهل الصلاح فساد متعد إلى المجتمع، كما أن صلاحها صلاح وتمكين للخير والمجتمع، يقول الريسوني: "معلوم أن المؤسسات والمرافق العامة إذا فسدت، لا يبقى فسادها منحصرا فيها، بل يتعداها، فتصبح مصدر إفساد لعموم المجتمع، والعكس بالعكس، ففسادها متعد وصلاحها متعد. ومن هنا تتضاعف أهمية العمل على انتشالها ومعالجتها واستئصال أورامها، ويصبح ذلك مطلبا شرعيا وشعبيا، وأما اجتناب الصالحين والمصلحين لتولي مثل هذه المناصب العامة، والإفتاء لهم بذلك، فيجعلان إصلاحها ميؤوسا منه، ويجعلها لا تزداد_ على مر الأيام -إلا فسادا- بينما توليهم

(1) نفسه، ص10.

(2) مجموع الفتاوى، ابن تيمية، ج20، ص43.

(3) نفسه، ج20، ص34.

لها يقلل من حجم الفساد ويردعه، وينمي فيها الصلاح ويشجع عليه"[1]، ثم إن أحكام العذر والضرورة تسعفنا في إيجاد مخرج شرعي، إذ قد يترك الواجب لعذر، ويفعل المحرم للمصلحة الراجحة، حين يكون المأمور به أعظم من جنس المنهي"، وتستعمل هذه القاعدة باستمرار في جميع القرارات السياسية والتدبيرية، في الاقتصاد والتجارة والصحة والمعاهدات وغيرها.

خاتمة:

المتأمل في قصة يوسف وما تزخر به من قيم النبل والصلاح، وما اجتمع فيها من قضايا الأسرة والتدبير والسلطنة والحكم والاقتصاد، وما اختصت به من ذكر أحوال السجن والزراعة، وفتن العشاق، وكيد الإخوة وحسد الأقارب، وما اشتملت عليه من صور الابتلاء الأخرى بممارسة أمانة الاستخلاف العام، يدرك أنها تمثل تدافعا حقيقيا بين قوى الخير والشر، وبين الفضيلة والرذيلة، وبين الوفاء والغدر، وبين الخوف من الله واتباع الهوى، تنتصر فيه قيم النبل الجديرة بالخلود، مؤسسة لرؤية إصلاحية شاملة من حيث امتداداتها النفعية؛ انطلقت من إصلاح الأنفس نحو إصلاح المجموع، مؤكدة أن إصلاح الإنسان هو لبنة إصلاح العمران. تفيدنا اليوم في بيان أسباب وعوامل النهضة القرآنية، وما يمهد لنا الدين القويم من سنن الرقي والتقدم، وهي عميقة بما احتوته من إعجاز علمي في كيفية التعامل مع الأزمات بعقلانية، وبما اشتملت عليه من توجيهات ووظائف تربوية وعقلية، ورؤى مستقبلية، وقوة توكل وحسن تدبير وتخطيط، تتشكل بها ومن خلالها شخصية المؤمن الخليفة العدل، الذي جعل القرآن(الوحي) في خدمة العمران.

---

(1) النظر المقاصدي في حكم تولي الولايات العامة والمناصب المهمة، ص14.

لائحة المصادر والمراجع:

1. **أحكام القرآن**، لأبي بكر محمد بن عبد الله المعروف بابن العربي(543هـ)، تحقيق محمد عبد القادر عطا، منشورات علي بيضون، دار الكتب العلمية، الطبعة الثالثة، 2003م/1434هـ، بيروت لبنان.
2. **أسباب نزول القرآن**، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي(ت468هـ)، تحقيق عصام بن عبد المحسن الحميدان، الطبعة الثانية1412هـ/1992م، دار الإصلاح – الدمام.
3. **التحرير والتنوير "تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد"** محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت 1393هـ)، سنة النشر: 1984 هـ، الدار التونسية للنشر – تونس.
4. **الجامع لأحكام القرآن**، أبو عبد الله، محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الطبعة الثانية، 1384 هـ / 1964م، دار الكتب المصرية القاهرة.
5. **السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية**، عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية، تحقيق علي بن محمد العمران، إشراف بكر بن عبد الله بن بوزيد، دار الفوائد للنشر والتوزيع، بدون تاريخ نشر.
6. **الفطرية بعثة التجديد المقبلة، من الحركة الإسلامية إلى بعثة الإسلام،** فريد الأنصاري، الطبعة الثانية 1434هـ/2013م، دار السلام للطباعة والنشر.
7. **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل،** محمود بن عمر بن أحمد الزمخشري [ت 538 هـ]، ضبطه وصححه ورتّبه: مصطفى حسين أحمد، الطبعة: الثالثة 1408هـ/ 1987م، دار الريان للتراث بالقاهرة - دار الكتاب العربي ببيروت.

8. **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل**، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (ت 538هـ)، الطبعة الثالثة 1407هـ، دار الكتاب العربي – بيروت.
9. **الكليات** معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي، أبو البقاء الحنفي (ت 1094هـ)، المحقق: عدنان درويش - محمد المصري، الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت.
10. **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (ت 542هـ)، المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى 1422 هـ بيروت.
11. **المعجم الوسيط**، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، مجموعة من المؤلفين: إبراهيم مصطفى / أحمد الزيات / حامد عبد القادر / محمد النجار)، الناشر: دار الدعوة.
12. **المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج**، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (ت 676هـ)، دار إحياء التراث العربي، الطبعة: الثانية، 1392هـ، بيروت.
13. **النظر المقاصدي في حكم تولي الولايات العامة والمناصب المهمة** الدكتور أحمد الريسوني، دار القلم للنشر والتوزيع 1436 هـ / 2015م.
14. **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (ت 685هـ)، المحقق: محمد المرعشلي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى 1418 هـ– بيروت.
15. **أهل الذمة والولايات العامة في الفقه الإسلامي**، نمر محمد الخليل النمر، المكتبة الإسلامية عمان- الأردن، بدون طبعة وتاريخ نشر.
16. **بنية العقل العربي**، دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية، محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة السادسة، 2000م.
17. **تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)**، المؤلف: محمد رشيد بن علي رضا (ت 1354هـ)، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

18. **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (ت 1386هـ) المحقق عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى 1420هـ 2000م.

19. **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، أبو جعفر، محمد بن جرير الطبري (310هـ)، دار التربية والتراث - مكة المكرمة - بدون تاريخ نشر.

20. **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، شهاب الدين محمود بن عبد الله الألوسي (ت 1270هـ)، تحقيق علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى 1415هـ، بيروت.

21. **سورة يوسف، دراسة تحليلية**، أحمد نوفل، دار الفرقان الأردن، الطبعة الأولى، 1989م.

22. **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (852هـ)، دار المعرفة - بيروت، 1379، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، عليه تعليقات العلامة: عبد العزيز بن عبد الله بن باز.

23. **قواعد الأحكام في مصالح الأنام** لأبي محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن السلمي الدمشقي، الملقب بسلطان العلماء (المتوفى: 660هـ)، راجعه وعلق عليه: طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية – القاهرة، طبعة: جديدة مضبوطة.

24. **قواعد في الممارسة السياسية**، جاسم سلطان، مؤسسة أم القرى للترجمة والتوزيع، الطبعة الأولى 1428هـ/2008م.

25. **لباب التأويل في معاني التنزيل**، علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيحي أبو الحسن، المعروف بالخازن (ت 741هـ)، تصحيح: محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى1415 هـ.

26. **لسان العرب**، محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي (ت 711هـ)، الناشر: دار صادر، الطبعة: الثالثة 1414 هـ، بيروت.
27. **مجمل اللغة**، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (ت 395هـ)، دراسة وتحقيق: زهير عبد المحسن سلطان، دار النشر: مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة الثانية - 1406 هـ / 1986 م.
28. **مجموع الفتاوى**، شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم رحمه الله، وساعده: ابنه محمد وفقه الله، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، عام النشر: 1425 هـ / 2004 م، المدينة المنورة – السعودية.
29. **مسند الدارمي المعروف بـ (سنن الدارمي)**، أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بَهرام بن عبد الصمد الدارمي، التميمي السمرقندي (ت 255 هـ)، تحقيق: حسين سليم أسد الداراني. [ت 1443 هـ]، الناشر: دار المغني للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى 1412 هـ /2000 م، المملكة العربية السعودية.
30. **معالم التنزيل في تفسير القرآن = تفسير البغوي**، محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي (ت 510هـ)، حققه وخرج أحاديثه محمد عبد الله النمر - عثمان جمعة ضميرية-سليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة 1417هـ/1997م.
31. **مقاييس اللغة**، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (ت 321هـ)، المحقق: رمزي منير بعلبكي، الناشر: دار العلم للملايين – بيروت، الطبعة: الأولى 1987م.
32. **تفسير الشعراوي – الخواطر**، محمد متولي الشعراوي (ت 1418هـ)، الناشر: مطابع أخبار اليوم، نشر عام 1997م.
33. **مقاييس اللغة**، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (ت 395هـ)، المحقق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر1399هـ/ 1979م.

فهرس المحتويات

تقديم 4

القسم الأول: المدخل الاستخلافي لدراسة القصص القرآني 9

العرض الافتتاحي: وقفات مع تأطير قصة الاستخلاف للقصص القرآني والإنساني
ذ. عبد السلام محمد الأحمر 10

القصة القرآنية خصائصها ووظائفها. د. عبد الرحيم خياري 31

القصص القرآني وبناء المفاهيم القرآنية - مفهوم الاستخلاف نموذجا
د. محمد بن عبد القادر الفيلة 53

القصة في نظام الاستخلاف القرآني - النسق القيمي والفني د.إدريس التركاوي 101

القصة القرآنية - منهجية السرد القرآني وأبعادها الوظيفية د.عبد السلام أقلمون 121

القسم الثاني: الممارسة الاستخلافية من خلال القصص القرآني 153

الأسئلة الوجودية وجواب القرآن عنها من خلال القصص د. مصطفى فاتيحي 154

الابتلاء والتمكين من خلال الممارسة الاستخلافية في القصص القرآني
د. محمد البويسفي 165

التزكية أساس صلاح الممارسة الاستخلافية من خلال القصص القرآني
د. حفيظ غياط 216

سنن التغيير في القصص القرآني وأهميتها في ترشيد الممارسة الاستخلافية
د. عبد الفتاح محفوظ 256

قصة يوسف عليه السلام - من الأمانة و العرفان إلى الولاية والعمران
دراسة في القيم اليوسفية د. محمد صابير 280